طبعة يناير 2025

مختصر الأنوار المحمدية

الشيخ يوسف بن إسماعيل النبهاني

(مختصر) الأنوار المحمدية

- للشيخ: يوسف بن إسماعيل النبهاني -

رقم الإيداع: 31835 / 2024

التّرقيم الدّولي: 978-977-9655-14-7

تدقيق لغـوي: فريق نور المحبين

تصميم الغلاف: فريق نور المحبين

إخراج داخلي: لخضر بن الزهرة

دار الهالة للنّشر والتّوزيع

- جمهوريّة مصر العربيّة -

رئيس مجلس الإدارة / المدير العام: هالة البشبيشي

@Alhalapublishing

alhalapublishing@gmail.com

(+20) 1066444204

جميعُ حقوقِ الطَّبعِ والنَّشرِ محفوظةٌ للدّارِ، ولا يحقُّ لأيِّ شخصٍ أو مؤسّسةٍ أو جهةٍ إعادةُ إصدارِ هذا الكتابِ أو جزءٍ منهُ، أو نقلُه بأيِّ شكلٍ منَ الأشكالِ أو وسيلةٍ منْ وسائلِ نقلِ المعلوماتِ، ولا يجوزُ تداولُهُ إلكترونيًّا: نسخًا أو تسجيلًا أو تخزينًا؛ دون إذنٍ خطيٍّ منَ الدَّار.

جميعُ الآراء الواردة في هذا الكتاب تُعبِّر عن رأي كاتبها، ولا تُعبِّر بالضّرورة عن رأي دار النّشر.

الشيخ يوسف بن إسماعيل النبهاني

(مختصر)
الأَنْوَارُ المُحَمَّدِيَّة

الهالة للنشر والتوزيع
AL HALA PUBLISHING & DISTRIBUTION

مقدمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحم للعالمين، سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فهذا اختصار لكتاب (الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية) للإمام القاضي/ يوسف بن إسماعيل النبهاني رحمه الله تعالى، وهو كتاب عظيم نافع، تناول سيرة سيدنا رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- من الميلاد للانتقال، كما تناول ما يتعلق بحضرته من متاع دنيوي أو سنن نبوية شريفة.

وقد جاء الكتاب حافلًا، إمامًا في بابه، إلا أن تناوله يصعب على كثير من الناس نظرًا لكبر حجمه، فعمدنا إلى اختصاره اختصارًا يفي بمقصوده، ولا يخل بمضمونه، فحذفنا بعض الرويات المكررة، وبعض الفصول التي لها تعلق بالأمور الفقهية؛ وذلك طلبًا لاختصار الكتاب؛ ولينتفع به جميع الناس الراغبين في التعرف على سيرة المصطفى -صلى الله عليه وآله وسلم- دون النظر إلى تخصصاتهم ومستوياتهم العلمية.

وقد كانت عملية الاختصار من الصعوبة بمكان؛ وذلك نظرًا لأهمية كل كلمة وردت في هذا الكتاب العظيم، وهذا السفر الجليل.

ونسأل الله -سبحانه وتعالى- أن يجعل هذا الكتاب في ميزان حسنات مؤلفه، وأن يتقبل اختصاره كما تقبل أصله فتلقته الأمة بالقبول.

الناشر

ترجمة المؤلف

اسمه: هو الإمام إسماعيل بن يوسف بن إسماعيل بن محمد ناصر الدين النبهاني.

مولده: ولد سنة 1265هـ في قرية (إجزم) من أعمال (فلسطين)، وينسب إلى (بني نبهان) من عرب البادية في فلسطين.

تعليمه: حفظ القرآن الكريم على يد والده ثم أرسله للتعلم في الأزهر الشريف سنة 1283هـ، وتلقى تعليمه على يد أكابر علماء الأزهر الشريف، وعلى رأسهم العلامة الشيخ/ إبراهيم السقا الشافعي، وشيخ الأزهر الشريف الإمام/ شمس الدين محمد الأنبابي، والشيخ/ حسن العدوي المالكي.

مؤلفاته: له مؤلفات كثيرة جدًا، وكلها ذات قيمة علمية كبيرة، ومنها:

1. إتحاف المسلم بإتحاف الترغيب والترهيب من البخاري ومسلم.
2. سعادة الدارين في الصلاة على سيد الكونين.
3. الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير.
4. البرهان المسدد في إثبات نبوة محمد.

5. قرة العين من البيضاوي والجلالين.

6. جواهر البحار في فضائل النبي المختار.

7. حجة الله على العالمين في معجزات سيد المرسلين.

وفاته: توفي في مدينة بيروت في أوائل شهر رمضان سنة 1350هـ، ودفن في مقبرة الباشورة، وقبره ظاهر يزار، رحمه الله تعالى.

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ للهِ الذي اصطفى آدمَ ونوحًا وآلَ إبراهيمَ وآلَ عمرانَ على العالمين، واختارَ منهم العربَ، ومنهم قريشًا، ومنهم بني هاشم، ومنهم حبيبَه محمدًا سيدَ المرسلين، فهو ﷺ صفوةُ المصطفينَ الأخيار، ونخبةُ النخبِ وخيارُ الخيار، صلى الله عليه صلاةً كاملةً دائمةً يشاركُ فيها الأزلُ الأبدَ، ولا يشاركُه فيها من خلقِ اللهِ أحدٌ، صلاةً لا تُخبَرُ فتُحدَّ، ولا تُحصَرُ فتُعدَّ، صلاةَ نهايةِ أعلى درجاتِ المقربين لا تصلُ إلى بدايتها في الأزل ولا بداية، ولم تزلْ دائمةَ الترقي في كل لمحةٍ، ولن تزالَ كذلك، فليس لها نهايةٌ، وعلى آله الأقربين، وأمهاتِ المؤمنين، وصحبه نجومِ المهتدين، ورجومِ المعتدين، والتابعين لهم بإحسانٍ إلى يومِ الدين.

أما بعد، فيقولُ الفقيرُ المذنبُ يوسفُ بنُ إسماعيلَ النبهانيُّ غفر الله زللَه، وقبِل عملَه، وبلغه من كل خيرٍ في الدارينَ أملَه: لا يخفى أن سيدَنا ومولانا ونبينا أبا القاسمِ محمدًا ﷺ هو في كل وصفٍ جميلٍ

أفضلُ الأنبياءِ والمرسلين، والملائكةِ المقربين، وجميعِ عبادِ اللهِ الصالحين، وكافةِ الخلقِ أجمعين، أفرادًا وإجمالًا، أي إنه ﷺ أفضلُ من كل فردٍ منهم على حِدَتِه وأفضلُ من مجموعِهم لو اجتمعوا، بمعنى أن جميعَ فضائِلِهم لو اجتمعتْ في كفةِ ميزانٍ وفضائلَه ﷺ في الكفةِ الأخرى، لرجحت فضائلُه ﷺ على فضائِلِهم.

وما أحسنَ ما قلتُه في مطلعِ القصيدةِ الثانية، إحدى القصائدِ السبعِ التي ختمتُ بها كتابي «أفضل الصلوات على سيد السادات»، وكلُّها تخاميسُ على نحوِ هذا الأسلوبِ الحسن.

سيدُ الرسلِ قدرُه معلوم ... أين منه المسيحُ أين الكليمُ
أين نوحٌ وأَين إبراهيمُ ... كلهم عن مقامِه مفطوم
فعليه الصلاةُ والتسليم
أين جبريلُ أين إسرافيلُ ... أين ميكالُ أين عزرائيلُ
فعليهم طرًا له التفضيلُ ... وبمعراجه دليلٌ قويم
فعليه الصلاةُ والتسليم
أين كلُّ العوالمِ العلوية ... أين كلُّ العوالم السفلية
أين كلُّ الورى بكل مزية ... إنما فوقه العليُّ العظيم
فعليه الصلاةُ والتسليم

إذا علمت ذلك، تعلم أنَّه لا سبيلَ إلى معرفة فضائلِه ﷺ ومزاياه، معرفةً تُحيط بها من كلِّ الوجوه، ولو اجتمع لذلك كلُّ مَن عداه؛ إذ لا يعرف حقيقته ولا يحيط بفضائله عليه الصلاةُ والسلام إلّا الله. وما زال مَهَرةُ العلماء يغوصون في لُجج بحورها الزواخر، فيستخرجون منها روائعَ اللآلئ وبَدائعَ الجواهر. فمنهم مَن نظمها عقودًا زيَّن

بها جيدَ الزمان، ومنهم مَن نثرها على بساط البسيطة فاستغنى بها أهلُ المعرفة والإيمان، ألقوا فيها الكتب، ودوَّنوا الدواوين، ورَوَوْا أخبارَها عن كلِّ صادقٍ أمين، فمنهم من اختصر في تأليفه فأجاد، ومنهم من أطال فأطاب وأفاد، ومنهم من توسَّط وكان مذهبه حُسنَ الاقتصاد.

فمن المختصرين الإمام البارع القاضي عياض، وحسبك بكتابه الشفاء الذي سار في الآفاق، ووقع على قبوله الإنفاق. ومن المطوَّلين الإمام الهمام الحسن بن عبد الرحمن الأنصاري؛ لم أطَّلِع على كتابه، وإنما رأيت في آخر نفح الطيب بعد أن نقل منه شيئًا من المدائح النبوية ما نصه: «نقلتُه من المجلد الخامس والعشرين من كتاب منتهى السول في مدح الرسول للحسن بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم بن عذرة المغربي الأنصاري رحمه الله تعالى ورضي عنه.» ومن المتوسِّطين الإمام العلامة الشيخ أحمد شهاب الدين القسطلاني في كتابه المواهب اللّدنية بالمنح المحمدية، وهو مجلَّدان ضخمان سارت به الركبان، في سائر البلدان، ولم يشتهر أَجمعُ وأنفع منه من مؤلَّفات هذا الشأن، إلا أن مؤلِّفه رحمه الله ونفعنا به أكثر فيه من الاستطراد إلى دلائل أصولية، ومسائل فُروعية، ومناقشات مذهبية، ومباحث خلافية، وشَحَنه بفرائدَ بهية، وجدت في غير مكانها، وفواكهَ شَهية، أتت في غير زمانها. وهو رحمه الله صرَّح بذلك في الفصل الثالث من المقصد السابع عند الكلام على أهل بيته ﷺ، فقال: «وقد أطلتُ المقال، وإنما جرَّني إلى ذلك ذكرُ حملِ الصِّدِّيقِ للحسن على عائقه.» ثم قال بعد أَسطرٍ: «وهذا وقع

لي كثيرًا في هذا المجموع، بل في غالبِه، لكنَّه لا يخلو من فرائد الفوائد.» فكان كتابه رحمه الله بذلك كثير العلم، كبير الحجم، وصار عزيز الحصول، مقصور النفع على أهل العلم، ومع كثرة تداوله بين العلماء الأعلام، وظهور وجوب اختصاره لينتفع به الخاص والعام، لم أرَ له مختصرًا، ولم أسمع له خبرًا، مع اطلاعي من أسماء الكتب على ما لا أكاد أُحصيه.

نعم، رأيت بعد شروعِي باختصاره في خلاصة الأثر في ترجمة العلامة الشيخ أحمد الوارني أنه شرع في اختصاره، ومات قبل إكماله رحمه الله.

وقد وفَّقني الله، وله الحمد والمنة، لاختصاره بحذف ما ذكرتُه من المباحث الزوائد، مع استيفاء ما يتعلَّق بالنبي ﷺ من الأخبار والفوائد. اختصرته أحسنَ اختصار، اقتصرتُ به منه على لُبابه، وجرَّدت سيفه الصقيل من قِرابه، وأمطت عن وجهه الجميل سِتار نِقابه، وأزلت عن بدره المنير حِجابَ سَحابه، فكان مستوفيًا لكافَّة شروط الحُسن وجميع أسبابه.

وقد جاء بحمد الله أقل من نصف حجمه، مع بقاء كلِّ المقصود من علمه، وصار سهل الحصول مع سهولة فهمه؛ إذ جمعت أشتات معانيه، وضَمَمت كل شكل إلى شكله، وجعلته بحالةٍ مألوفة، لا عذرَ معها لمؤمن في جهله، مع الحرص على بقاء عبارات مُصنِّفه العلامة النحرير، وربما تصرَّفتُ بها في النزر النادر بتقديم وتأخير، أو إكمال حديث، أو تبديل يسير، أو زيادة تفسير من (الشارح) أو (نهاية ابن الأثير) عقب بعض الألفاظ الغريبة التي تركها بلا تفسير.

ولما تمَّ اختصاره، وأشرقت أنواره، سمَّيتُه (الأنوار المحمدية من المواهب اللّدنية)، فدونته مختصرًا طابَ أصلُه فطاب، وتجلَّت شُموس معانيه من تحت سحاب الإسهاب، جمع من فضائله وشؤونه ﷺ ما لم يجمعه في حجمه كتاب، واشترك في سهولة فهمه والانتفاع بعلمه العامةُ والعلماءُ والطلاب.

فأسأل الله العظيم، ربَّ العرش الكريم، أن يجعله سببًا لمحبته ومحبَّة رسوله الرؤوف الرحيم، وأن ينفعني والمسلمين به كما نفع بأصله الأصيل، وأن يتقبَّله مني، ويعفو به عني، وهو حسبي ونعم الوكيل. ومع ذلك، لا تُغني هذه الخصائص عن اقتناء أصلها، وهو (المواهب اللّدنية)، فقد جمعت أصول العلوم الدينية إلى جانب المنح المحمدية، فلا يستغني عنها أي عالم من الأعلام، فضلًا عن غيرهم من أفاضل الإسلام.

وأنا أروي هذا الكتاب بإجازة من عدة طرق، منها عن أستاذي العلامة الإمام الشيخ إبراهيم السقا المصري رحمه الله، عن عدة شيوخ منهم الشيخ ثعيلب، عن شيخيْه الأحمديْن المُلوي والجوهري، وهما عن عبد الله بن سالم البصري، عن الشيخ منصور الطوخي، عن الشيخ سلطان المزاحي، عن الشيخ نور الدين الزيادي، عن القطب أبي الحسن البكري، عن مؤلفه الشيخ شهاب الدين القسطلاتي، وكل هؤلاء أئمة شافعيون، وجميعهم مصريون إلا عبد الله بن سالم، رحمهم الله ونفعنا بهم.

وقد اعتمدت ترتيب هذا المختصر وفق أصل (المواهب اللّدنية) على عشرة مقاصد:

المقصد الأول: في تشريف الله تعالى له عليه الصلاة والسلام بسبق نبوته في الأزل وطهارة نسبه وآيات حمله وولادته ورضاعه وحضانته وأخبار بعثته وهجرته ومغازيه وسراياه وبعوثه وسيرته مرتَّبًا على السنين من حين نشأته إلى وقت وفاته ﷺ.

المقصد الثاني: في ذكر أسمائه الشريفة وأولاده الطاهرين وأزواجه الطاهرات أمهات المؤمنين وأعمامه وعماته وإخوته من الرضاعة وجداته وخدمه ومواليه وحرسه وكتَّابه وكتبه إلى الملوك وغيرهم ومؤذنيه وخطبائه وحدَّاثه وشعرائه وآلات حروبه ودوابه والوافدين إليه ﷺ، وفيه عشرة فصول.

المقصد الثالث: فيما فضله الله سبحانه وتعالى به من كمال خِلْقته وجمال صورته وأخلاقه الزكية وأوصافه المرضية وما تدعو ضرورة حياته إليه ﷺ، وهذا المقصد جامع لشمائله الشريفة عليه الصلاة والسلام، وفيه ثلاثة فصول.

المقصد الرابع: في معجزاته عليه الصلاة والسلام الدالة على ثبوت نبوته وصدق رسالته وما خصه الله به من خصائص آياته وبدائع كراماته ﷺ، وفيه فصلان.

المقصد الخامس: في تخصيصه عليه الصلاة والسلام بخصائص المعراج والإسراء وتعميمه بعموم لطائف التكريم في حضرة التقريب بالمكالمة والمشاهدة الكبرى.

المقصد السادس: فيما ورد في آي التنزيل من تعظيم قدره ورفعة ذكره وشهادته تعالى له بصدق نبوته وقَسمِه على تحقيق رسالته وعلوِّ منصبه ووجوب طاعته واتباع سنته وأخذه تعالى له الميثاق على سائر

النبيين ليؤمنن به إن أدركوه ولينصرنه، والتنويه به في الكتب السابقة كالتوراة والإنجيل وغير ذلك، وفيه عشرة أنواع.

المقصد السابع: في وجوب محبته واتباع سنته والاهتداء بهديه وفرض محبة آله وأصحابه وحكم الصلاة والتسليم عليه ﷺ، وفيه ثلاثة فصول.

المقصد الثامن: في طِبِّه ﷺ لذوي الأمراض والعاهات وتعبيره الرؤيا وإنبائه بالأنباء المغيبات، وفيه ثلاثة فصول.

المقصد التاسع: في لطيفة من حقائق عباداته ﷺ، وفيه سبعة أنواع.

المقصد العاشر: في إتمام الله نعمته عليه بوفاته ﷺ ونَقْلِه إليه وزيارة قبره الشريف ومسجده المنيف وتفضيله في الآخرة بفضائل الأوليات وتشريفه بخصائص الزلفى في مشهد الأنبياء والمرسلين وتخصيصه بالشفاعة العظمى والمقام المحمود في مجمع الأولين والآخرين وترقيه ﷺ في الجنات إلى أعلى الدرجات.

المقصد الأول

في تشريف الله تعالى له عليه الصلاة والسلام بسَبق نبوته في الأزل وطهارة نسبه وآيات حمله وولادته ورضاعته وحضانته وأخبار بعثته وهجرته ومغازيه وسراياه وبعوثه وسيرته مرتبة على السنين من حين نشأته إلى وقت وفاته ﷺ.

اعلم أنه لما تعلقت إرادة الحق تعالى بإيجاد خلقه أبرَزَ الحقيقة المحمدية من أنواره ثم سلخ منها العوالم كلها علوها وسفلها ثم أعلمه بنبوته وآدم لم يكن إلا كما قال ﷺ بين الروح والجسد ثم انبجست[1] منه ﷺ عيون الأرواح فهو الجنس العالي على جميع الأجناس والأب الأكبر لجميع الموجودات.

ولما انتهى الزمان بالاسم الباطن في حقه ﷺ إلى وجود جسمه وارتباط الروح به انتقل حكم الزمان إلى الاسم الظاهر وظهر محمد ﷺ بكليته جسمًا وروحًا، ففي صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال: إن الله عز وجل كتب مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء ومن جملة ما كتب في الذكر وهو أم الكتاب إن محمدًا خاتم النبيين. وعن العِرْبَاض بن سارية عن النبي ﷺ قال: إنني عند الله لخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته أي مطروح ملقى قبل نفح الروح فيه؛ وعن ميسرة الضبي قال: قلت يا رسول الله متى كنت نبيًّا؟ قال: وآدم بين الروح والجسد، وعن سهيل بن صالح الحمداني قال سألت أبا جعفر محمد بن علي كيف صار محمد ﷺ يتقدم الأنبياء وهو آخر من بعث، قال إن الله تعالى لما أخذ من بني آدم من ظهورهم ذرِّيَّاتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم كان محمد ﷺ أول من قال بلى ولذلِكَ صار يتقدم الأنبياء وهو آخر من بعث.

---

(1) اِنْبَثَقَ، تَفَجَّرَ، تَدَفَّقَ، كما في قوله تعالى في سورة الأعراف آية 160: فانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتا عَشْرَةَ عَيْنًا.

وعن بعضهم أنه ﷺ خصّ باستخراجه من ظهر آدم قبل نفخ الروح لأنه ﷺ هو المقصود من خلق النوع الإنساني وهو عينه وخلاصته وواسطة عقده، ورُوي عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه قال: لم يبعث الله نبيًا من آدم فمن بعده إلا أخذ عليه العهد في محمد ﷺ لئن بُعث وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه ويأخذ بذلك العهد على قومه وهو يروى عن ابن عباس أيضًا، وقيل إن الله تعالى لما خلق نور نبينا محمد ﷺ أمره أن ينظر إلى أنوار الأنبياء عليهم السلام فغشيهم منه ما أنطقهم الله به فقالوا يا ربنا من غشينا نوره فقال الله تعالى هذا نور محمد بن عبد الله إن آمنتم به جعلتكم أنبيا، قالوا آمنا به وبنبوته فقال الله تعالى أشهد عليكم قالوا نعم فذلك قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ**﴾[آل عمران: 81] إلى قوله تعالى: ﴿**وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ**﴾[آل عمران: 81].

فإذا عُرف هذا فالنبي ﷺ نبي الأنبياء ولهذا ظهر ذلك في الآخرة جميع الأنبياء تحت لوائه وفي الدنيا كذلك ليلة الإسراء صلى بهم، ولو اتفق مجيؤه في زمن آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى صلوات الله وسلامه عليهم وجب عليهم وعلى أممهم الإيمان به ونصرته وبذلك أخذ الله الميثاق عليهم.

وعن علي بن الحسين عن أبيه عن جدّه رضي الله عنهم عن النبي ﷺ قال: كنت نورًا بين يدي ربي قبل خلق آدم بأربعة عشر ألف عام، وفي الخبر لما خلق الله تعالى آدم جعل ذلك النور في ظهره فكان يلمع في جبينه فيغلب على سائر نوره ثم رفعه الله تعالى على سرير

مملكته وحمله على أكتاف ملائكته وأمرهم فطافوا به في السماوات ليرى عجائب ملكوته. وعن عمر بن الخطاب ﵁ قال: قَال رسول الله ﷺ: لما اقترف آدم الخطيئة، قال: يا رب، أسألك بحق محمد لما غفرت لي. فقال الله: يا آدم، وكيف عرفت محمدًا ولم أخلقه؟ قال: لأنك يا رب، لما خلقتني بيدك، ونفخت في من روحك، رفعت رأسي، فرأيت على قَوَائِمِ العرش مكتوبًا: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك. فقال الله تعالى: صدقت يا آدم، إنه لأحب الخلق إليَّ، وإذا سألتني بحقه فقد غفرت لك، ولولا محمد ما خلقتك، وهو آخر الأنبياء من ذريتك. وروى هشام بن محمد الكلبي عن أبيه قال: كتبت للنبي ﷺ خمسمائة أم، فما وجدت فيهن سفاحًا، ولا شيئًا مما كان من أمر الجاهلية. وعن علي كرم الله وجهه أن النبي ﷺ قال: خرجت من نكاح، ولم أخرج من سفاح، من لدن آدم إلى أن ولدني أبي وأمي، ولم يصبني من سفاح أهل الجاهلية شيء. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: قَال رسول الله ﷺ: لم يلتق أبواي قط على سفاح، لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة، مصفًّى مهذَّبًا، لا تتشعب شعبتان إلا كنت في خيرهما. وعن أنس ﵁ قال: قرأ رسول الله ﷺ: لقد جاءكم رسول من أنفسكم، بفتح الفاء، وقال: أنا أنفسكم نسبًا وصهرًا وحسبًا، ليس في آبائي من لدن آدم سفاح.

واعلم أنه عليه الصلاة والسلام لم يشركه في ولادته من أبويه أخٌ ولا أخت، لانتقاء صفوتيهما إليه، وقصور نسبهما عليه، ليكون مختصًّا بنسبٍ جعله الله تعالى للنبوة غاية، ولتمام الشرف نهاية.

وأنت إذا اختبرت حال نسبه، وعلمت طهارة مولده، تيقنت أنه سلالة آباءٍ كرامٍ. فهو ﷺ النبي العربي الأبطحي الحرمِي الهاشمي القرشي، تحبَّة بنيٍ هاشم المختار المنتخب من خير بطون العرب، وأعرقها في النسب، وأشرفها في الحسب، وأنضرها عودًا، وأطولها عمودًا، وأطيبها أرومة، وأعزها جُرثومة، وأفصحها لسانًا، وأوضحها بيانًا، وأرجحها ميزانًا، وأصحها إيمانًا، وأعزها نفرًا، وأكرمها معشرًا، من قبل أبيه وأمه، ومن أكرم بلاد الله على الله، فهو سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله الذبيح بن عبد المطَّلب، واسمُه شيبةُ الحمد بن هاشم، واسمُه عمرو بن عبد مناف، واسمُه المغيرة بن قصي، واسمُه مجمع بن كلاب، واسمُه حكيم بن مرة بن كعب، وكانت تجتمع إليه قريش يوم الجمعة، فيخطُبهم ويذكّرهم بمبعث النبي ﷺ، ويُعلمهم بأنه من ولده، ويأمرهم باتباعه والإيمان به. ابن لوّي بن غالب بن فهر، واسمُه قريش بن مالك بن النضر، واسمُه قيس بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس. ويذكر أنه كان يسمع في صلبه تلبية النبي ﷺ بالحج، ابن مضَر بن نزار، سُمِّي بذلك، قيل: لأنه لما وُلِد، ونظر أبوه إلى نور محمد ﷺ بين عينيه، فرح فرحًا شديدًا، وأطعم، وقال: إن هذا كلُّه نَزرٌ، أي قليلٌ بحق هذا المولود، فسُمِّي نزارًا بن معدّ بن عدنان. قال ابن دحية: أجمع العلماء، والإجماع حُجَّة، على أن رسول الله ﷺ إنما انتسب إلى عدنان ولم يتجاوزْه، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه ﷺ كان إذا انتسب لم يُجَاوِزْ معدَّ بن عدنان، ثم يُمسك ويقول: كذَبَ النسابون مَرَّتَيْنِ أو ثلاثًا. ولما فرج الله تعالى عن عبد المطلب -أمر الحبشة- ورجع أبرهة خائبًا، فبينما هو نائم

في الحجر إذ رأى منامًا عظيمًا، فانتبه فزعًا مرعوبًا، وأتى كهنة قريش وقصَّ عليهم رؤياه، فقالوا له: إن صدقت رؤياك، ليخرجنَّ من ظهرك من يؤمن به أهل السماوات والأرض، وليكوننَّ في الناس علمًا مبينًا. فتزوج فاطمة، وحملت بعبد الله الذبيح، وقصته في ذلك مشهورة.

ولما انصرف عبد الله مع أبيه بعد أن فداه بنحر مائة من الإبل، نَرُؤيا رآها مر على امرأة كاهنة متهودَة قد قرأت الكتب، يقال لها فاطمة، فقالت له حين نظرت إلى وجهه، وكان أحسن رجل في قريش: لك مثل الإبل التي نُحِرَتْ عنك، وقَعْ عليَّ الآن، لما رأت في وجهه من نور النبوة، ورجت أن تحمل بهذا النبي الكريم ﷺ، فأجابها بقول:

أما الحرام فالممات دونه،

والحل لا حل فاستبينه،

فكيف بالأمر الذي تبغينه؟ يحمي الكريم عرضه ودينه.

ثمّ خرج به عبد المطّلب حتى أتى به وهب بن عبد مناف بن زهرة، وهو يومئذٍ سيد بني زهرة نسبًا وشرفًا؛ فزوجه ابنته آمنة، وهي يومئذٍ أفضل امرأة من قريشٍ نسبًا وموضعًا، فوقَعَ عليها يوم الإثنين من أيام مِنى في شعب أبي طالب، فحملت برسول الله ﷺ.

ثم خرج من عندها، فمر بالمرأة التي عرضت عليه ما عرضت، فقال لها: «مالك لا تعرضين علي اليوم ما عرضت بالأمس؟» فقالت: «فارَقَكَ النورُ الذي كان معك بالأمس، فليس لي بك اليوم حاجة، إنما أردت أن يكون النور في، فأبى الله إلا أن يجعله حيث شاء». وفي حديث ابن إسحاق أن آمنة كانت تُحَدِّثُ أنها أُتِيَتْ حين حملت

به ﷺ، فقيل لها: «إنك حملت بسيد هذه الأمة»، فقالت: «ما شعرت بأني حملت به، ولا وجدت له ثقلًا، ولا حِملًا كما تجد النساء، إلا أني أنكرت رفع حيضتي، وأتاني آتٍ وأنا بين النائمة واليقظة، فقال: «هل شعرت بأنك حملت بسيد الأنام؟» ثم أمهلني حتى إذا دنت ولادتي أتاني، فقال: «قولي: أعيذُه بالواحد من شر كل حاسد، ثم سميه محمدًا»».

وعن أبي زكريا يحيى بن عائذ، بقي ﷺ في بطن أمه تسعة أشهر كاملة، لا تشكو وجعًا ولا مغصًا ولا ريحًا، ولا ما يعرض لذوات الحمل من النساء. وكانت تقول: «والله ما رأيت من حمل هو أخف ولا أعظم بركةً منه»، ولما تمَّ لها من حملها شهران، توفي عبد الله في المدينة عند أخوال بني النجار، ودُفن بالأبواء. ويُذكر عن ابن عباس (رضي الله عنهما) أنه لما توفي عبد الله، قالت الملائكة: «إلهنا وسيدنا، بقي نبيك يتيمًا» فقال الله تعالى: «أنا له حافظٌ ونصيرٌ». وروى الطبراني أنه لما وقع إلى الأرض، وقع مقبوضة أصابع يديه، مشيرًا بالسبابة كالمسبح بها. وروي عن عثمان بن أبي العاص عن أمه فاطمة، قالت: «لما حضرت ولادة رسول الله ﷺ، رأيت البيت حين وقع قد امتلأ نورًا، ورأيت النجوم تدنو حتى ظننت أنها ستقع علي» وعن العرباض بن سارية (رضي الله عنهما)، أن رسول الله (ﷺ) قال: «إني عبد الله وخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته. وسأخبركم عن ذلك، إني دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى ورؤية أمي التي رأت، وكذلك أمهات النبيين يرون. وإن أم رسول الله ﷺ رأت حين وضعته نورًا أضاءت له قصور الشام».

وإلى هذا أشار عمه العباس بقولهم:

وأنت لما وُلدت أشرقت الأرض

وضاءت بنورك الأفق

فنحن في ذلك النائي

وفي النور وسبل الرشاد نخترق.

وروى ابن سعد أنه وُلد نظيفًا ما به قذر، وفي إضاءة قصور الشام بذلك النور إشارة إلى ما خص الشام من نور نبوته، فإنها دار ملكه كما ذكر كعب أن في الكتب السالفة، محمد رسول الله مولده بمكة ومهاجره بيثرب وملكه بالشام. ولهذا أسرى به ﷺ إلى بيت المقدس كما هاجر قبله إبراهيم عليه السلام إلى الشام، وبها ينزل عيسى بن مريم عليه السلام، وهي أرض المحشر والمنشر.

وروى عبد الرحمن بن عوف عن أمه الشفاء (رضي الله عنهما) قالت: لما ولدت آمنة رسول الله (ﷺ) وقع على يدي فاستهل، فسمعت قائلًا يقول: رحمك الله، وأضاء لي ما بين المشرق والمغرب حتى نظرت إلى بعض قصور الروم. قالت: ثم ألبسته وأضجعته فلم أنشب أن غشتني ظلمة ورعب وقشعريرة ثم غيب عني، فسمعت قائلًا يقول: أين ذهبت به؟ قال: إلى المشرق. قالت: فلم يزل الحديث مني على بال حتى ابتعثه الله، فكنت في أول الناس إسلامًا.

وعن حسان بن ثابت (رضي الله عنه) قال: إني لغلام ابن سبع سنين أو ثمان أعقل ما رأيت وسمعت إذا يهودي يصرخ ذات غداة: يا معشر يهود، فاجتمعوا إليه وأنا أسمع. قالوا: ويلك، ما لك؟ قال: طلع نجم

أحمد الذي وُلد به في هذه الليلة. وعن عائشة أم المؤمنين (رضي الله عنها) قالت: كان يهودي قد سكن بمكة، فلما كانت الليلة التي وُلد فيها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: يا معشر قريش، هل ولد فيكم الليلة مولود؟ قالوا: لا نعلم. قال: انظروا، فإنه وُلد في هذه الليلة نبي هذه الأمة بين كتفيه علامة، فانصرفوا فسألوا، فقيل لهم: قد وُلد لعبد الله بن عبد المطلب غلام. فذهب اليهودي معهم إلى أمه، فأخرجته لهم، فلما رأى اليهودي العلامة خر مغشيًا عليه، وقال: ذهبت النبوة من بني إسرائيل يا معشر قريش، أما والله ليسطون بكم سطوة يخرج خبرها من المشرق والمغرب. رواه يعقوب بن سفيان بإسناد حسن كما في فتح الباري.

ومن عجائب ولادته (صلى الله عليه وسلم) ما رُوي من ارتجاج إيوان كِسرى وسقوط أربع عشرة شرفة من شرفاته، وغيض بحيرة طبريا، وخمود نار فارس، وكان لها ألف عام لم تخمد، كما رواه كثيرون، ومن ذلك ما وقع من زيادة حراسة السماء في الشهب، وقطع رصد الشياطين ومنعهم من استراق السمع. وولد (صلى الله عليه وسلم) مختونًا مسرورًا أي مقطوع السرة كما روي عن ابن عمر وغيره. وعن أنس (رضي الله عنه) أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: من كرامتي على ربي أني وُلدت مختونًا ولم ير أحد سوأتي.

وقد اختُلف في عام ولادته (صلى الله عليه وسلم)، والأكثرون أنه ولد عام الفيل وأنه بعد الفيل بخمسين يومًا وأنه في شهر ربيع الأول يوم الإثنين لثنتي عشرة خلت منه عند طلوع الفجر. وعن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال: وُلد (صلى الله عليه وسلم) يوم الإثنين، واستُنبئ يوم الإثنين، وخرج مهاجرًا من مكة إلى المدينة يوم الإثنين، ودخل المدينة يوم الإثنين

ورفع الحجر يوم الإثنين، وكذا فتح مكة ونزول سورة المائدة يوم الإثنين.

وليلة مولده (ﷺ) أفضل من ليلة القدر، ووُلد (ﷺ) في مكة في الدار التي كانت لمحمد بن يوسف، وأرضعته (ﷺ) ثُويبة عتيقة أبي لهب، أعتقها حين بشرته بولادته عليه الصلاة والسلام. وقد رؤى أبو لهب بعد موته في النوم فقيل له: ما حالك؟ فقال: في النار إلا أنه خُفِّف عني في كل ليلة اثنين، وأمصُّ من بين إصبعي هاتين ماءً، وأشار برأس إصبعيه، وإن ذلك بإعتاقي لثويبة عندما بشرَتني بولادة النبي (ﷺ) وبإرضاعها له. قال ابن الجزري: فإذا كان هذا أبو لهب الكافر الذي نزل القرآن بذمه جُوزيَ بفرحه ليلة مولد النبي (ﷺ)، فما حال المسلم الموحد من أمته (ﷺ) يُسَرُّ بمولده ويبدل ما تصل إليه قدرته في محبته (ﷺ)! لعَمْري إنما يكون جزاؤه من الله الكريم أن يُدخله بفضل الله العميم جنات النعيم.

وما زال أهل الإسلام يحتفلون بشهر مولده (عليه الصلاة والسلام) ويعملون الولائم، ويتصدقون في لياليه بأنواع الصدقات، ويظهرون السرور، ويزيدون في المبرات، ويعتنون بقراءة مولده الكريم، ويظهر عليهم من بركاته كل فضل عميم. ومما جرب من خواصه أنه أمان في ذلك العام وبشرى عاجلة بنيل البغية والمرام، فرحم الله امرأ اتخذ ليالي شهر مولده المباركة أعيادا.

قالت حليمة: قدِمت مكة في نسوة من بني سعد بن بكر تلتمس الرضعاء في سَنِة شهباء، فقدمت على أتان[2] لي ومعي صبي لنا

(2) كلمة «أَتَان» تعني أنثى الحمار.

وشارف لنا، والله ما تبض بقطرة، وما نام ليلتنا تلك أجمع مع صبينا، ولا نجد في ثديّي ما يغذيه، ولا في شارقنا ما يغنيه. فقدمنا مكة، فوالله ما علِمت منا امرأة إلا وقد عُرض عليها رسول الله (ﷺ)، فتأباه إذ قيل: إنه يتيم من الأب، فوالله ما بقي من صاحباتي امرأة إلا أخذت رضيعا غيره، فلما لم أجد غيره قلت لزوجي: إني لأكره أن أرجع من بين صاحباتي وليس معي رضيع، لأنطلقن إلى ذلك اليتيم، فلأخذنه. فذهبت فإذا به مدرج في ثوبٍ صوف أبيض من اللبن، يفوح منه المِسك، وتحته حريرة خضراء، راقدا على قفاه يغِط[3]، فأشفقت أن أوقظه من نومه لحسنه وجماله، فدنوت منه رويدا، فوضعت يدي على صدره، فتبسم ضاحكًا، ففتح عينيه ينظر إليّ، فخرج من عينيه نور حتى دخل خلال السماء، وأنا أنظر، فقبلته بين عينيه، وأعطيته ثدي الأيمن، فأقبل عليه بما شاء من لبن، فحولته إلى الأيسر، فأبى، وكانت تلك حالته بعد، قالت: فروي وروي أخوه. ثم أخذته فما هو إلا أن جِئت به إلى رحلي، فأقبلت عليه ثديي بما شاء الله من لبن، فشرب حتى روي، وشرب أخوه حتى روي، فقام صاحبي، تعني زوجها، إلى شارقنا، فإذا بها لحافل، فحلب ما شرب، وشربت حتى روينا، وبتنا بخير ليلة، فقال صاحبي: يا حليمة، والله إني لأراك قد أخذت نسمة مباركة، ألم تري ما بتنا به الليلة من الخير والبركة حين أخذناه، فلم يزل الله يزيدنا خيرا. قالت حليمة: فودعت أم النبي (ﷺ)، ثم ركبت أتاني، وأخذته بين يدي، فسبقت دواب الناس الذين كانوا معي، وهم يتعجبون منها. ثم قدمنا منازل

(3) يغِط: أي مستغرق في النوم.

بني سعد، ولا أعلم أرضا من أرض الله أجدب منها، وكانت غنمي تروح علي حين قدمنا به شباعا لبنا، فنحلب ونشرب، وما يحلب إنسان قطرة لبن، ولا يجدها في ضرع، حتى كان الحاضر من قومنا يقولون لرعيانهم: اسرحوا حيث يسرح راعي غنم بنت أبي ذؤيب، فتروح أغنامهم جياعا، ما تبض بقطرة لبن، وتروح أغنامي شباعا لبنا.

وعن عمِّه العباس (رضي الله عنه) قال: قلتُ: يا رسول الله، دعاني إلى الدخول في دينك أمارةٌ لنبوتك، رأيتُك في المهد تُنَاغي[4] القمر، وتُشير إليه بإصبعك، فحيث أشرتَ إليه مال. قال: إني كنتُ أُحدثه ويُحدثني، ويُلهيَنِي عن البكاء، وأسمع وجبته حين يسجد تحت العرش.

وفي فتح الباري أنه (صلى الله عليه وسلم) تكلم في أوائل ما وُلد، وذكر ابن سبع أن مهدَه كان يتحرك بتحريك الملائكة، وعن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال: كانت حليمة تحدث أنها أول ما فطمَت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) تكلم فقال: الله أكبر كبيرًا، والحمد لله كثيرًا، وسبحان الله بكرة وأصيلًا. فلما ترعرع كان يخرج فينظر إلى الصبيان يلعبون فيجتنبهم. وعنه أيضًا أن الشيماء أخت النبي (صلى الله عليه وسلم) من الرضاعة رأت غمامة تظله إذا وقف، وقفت، وإذا سار، سارَتْ. أيامَ كان عند حليمة، كان (صلى الله عليه وسلم) يشبُّ شبابًا لا يشبهه الغلمان. قالت حليمة: فلما فصلته قدِمنا به على أمه، ونحن أحرص شيء على مكثه فينا لما نرى من بركته، فكلمنا أمه وقُلنا: لو تركتيه عندنا حتى يغلظ، فإنّا نخشَى عليه وباء مكة، ولم ننزل حتى ردَّته معنا، فرجعنا به. فوالله إنه لبعد مقدمنَا بشهرين أو ثلاثة مع

(4) المناغاة: المحادثة.

أخيه من الرضاعة لِفِي بَهْم لنا خلف بيوتنا، جاء أخوه يشتد فقال: ذاك أخي القرشي قد جاءه رجلان عليهما ثياب بيض، فأضجعاه وشقا بطنه. قالت حليمة: فخرجت أنا وأبوه نشدُّ نحوَه، فنجدُه قائمًا منتقعًا لونه، فاعتنقه أبوه فقال له: أي بنيَّ، ما شأنك؟ قال: جاءني رجلان عليهما ثياب بيض فضجَعاني وشقا بطني، ثم استخرجا منه شيئًا فطرحاه، ثم رَدَاه كما كان. فرجعناه معنا، فقال أبوه: يا حليمة، لقد خشيت أن يكون ابني قد أُصيب، فانطلقي بنا نرده إلى أهله قبل أن يظهر به ما نتخوَّف. فاحتملناه حتى قدمنا به مكة على أمه. فقالت: ما ردَّكما به، فقد كنتما حريصين عليه. قلنا: نخشى عليه الأخلاف والأحداث. فقالت: ما ذاك بكما، فاصدُقاني شأنكما. فلم تدعنا حتى أخبرناها خبره. قالت: أخشيتما عليه الشيطان؟ قلنا: لا، والله ما للشيطان عليه سبيل، وإنه لكائن لابني هذا شأن، فدعاه عنكما.

وقد وقع شق صدره الشريف مرةً أخرى عند مجيء جبريل عليه السلام له بالوحي في غار حراء، ومرةً أخرى عند الإسراء به (ﷺ). وروى أبو نعيم في الدلائل الشق أيضًا وهو ابن عشرين، والحكمة في شق صدره الشريف في حال صباه واستخراج العلقة منه تطهيره عن حالات الصبا حتى ينصف في من الصبا بأوصاف الرجولية، ولذا نشأ على أكمل الأحوال من العصمة (ﷺ).

وقد خُتم بخاتم النبوة بين كتفيه (ﷺ)، وكان ينم مسكًا وإنه مثل زِرّ الحجلة[5] ذكره البخاري. وعن ابن عباس وغيره، أن رسول

(5) قال النووي الحجلة واحدة الحجال وهى بيت كالقبة لها أزرار وعرى هذا هو الصواب وقال بعضهم المراد بالحجلة الطائر المعروف وزرها بيضها.

الله (ﷺ) لما بلغ ست سنين، خرجت به أمه إلى أخواله بني عدي بن النجار بالمدينة تزورهم، ومعه أم أيمن، فنزلت به دار التابعية، فأقامت به عندهم شهرًا. فكان ﷺ يذكر أمورًا كانت في مقامه ذلك، ونظر إلى الدار، وقال: «ها هنا نزلت بي أمي، وأحسنت العوم في بئر بني عدي بن النجار». وكان قوم من اليهود يختلفون ينظرون إليَّ، فقالت أم أيمن: «فسمعت أحدهم يقول: هو نبي هذه الأمة، وهذه دار هجرته»، فوعيت ذلك كله من كلامهم. ثم رجعت به أمه إلى مكة، فلما كانت بالأبواء تُوفيت.

وروى الزهري عن أسماء بنت رهم عن أمها، قالت: شهِدت آمنة أم النبي (ﷺ) في علتها التي ماتت بها، ومحمد (ﷺ) غلام يفِع له خمس سنين عند رأسها. فنَظَرَت إلى وجهِه، وقالت أبيات شعر، ثم قالت: «كل حي ميت، وكل جديد بالٍ، وكل كثير يفنى، وأنا ميتة، وذكري باقٍ، وقد تركت خيرًا، وولدت طهرًا، ثم ماتت، فكنا نسمع نوح الجن عليها.

وقد رُوي أن آمنة آمنت به (ﷺ) بعد موتها؛ روى الطبراني بسنده عن عائشة (رضي الله عنها) أن النبي (ﷺ) نزل الحجون كئيبًا حزينًا، فأقام به ما شاء الله، ثم رجع مسرورًا، قال: «سألت ربي عز وجل فأحيا لي أمي، فآمنت بي، ثم ردها». وكذلك روي من حديث عائشة أيضًا إحياء أبوي النبي (ﷺ) حتى آمنا به، أورده السهيلي والخطيب. وقال القرطبي في التذكرة: إن فضائله ﷺ وخصائصه لم تزل تتوالى وتتتابع إلى حين مماته، فيكون هذا مما فضله الله به وأكرمه. قال: وليس إحياؤهما وإيمانهما ممتنعًا عقلًا ولا شرعًا، فقد ورد في

الكتاب العزيز إحياء قتيل بني إسرائيل وأخبر بقاتله، وكان عيسى عليه السلام يُحيي الموتى، وكذلك نبينا (ﷺ) أحيا الله على يديه جماعة من الموتى، ثبت هذا، فما يمتنع إيمانهما بعد إحيائهما، ويكون ذلك زيادة في كرامته وفضيلته ﷺ.

وقال الإمام فخر الدين الرازي: إن جميع آباء محمد (ﷺ) كانوا مسلمين، ومما يدل على ذلك قوله ﷺ: «لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات»، وقد قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ**﴾[التوبة:28]، فوجب ألا يكون أحد من أجداده مشركًا. ولقد أحسن الحافظ شمس الدين بن ناصر الدين الدمشقي حيث قال: حبَّا الله النبي مزيد فضل على فضل وكان به رؤوفا فأحيا أمه وكذلك أباه لإيمانه فضلًا لطيفًا، فسلِم فالقديم بهذا قدير، وإن كان الحديث به ضعيفًا. وقد كانت أم أيمن دايته وحاضنته بعد موت أمه وكان ﷺ يقول لها أنت أمي، ومات جده عبد المطّلب كافله وله ثمان سنين عن عشر ومائة سنة وقيل عن مائة وأربعين سنة، وكفله أبو طالب واسمه عبد مناف وكان عبد المطّلب قد أوصاه بذلك لكونه شقيق عبد الله.

وأخرج ابن عساكر عن جهلمة بن عرفطة قال: قدِمت مكة وهم في قحط، فقالت قريش يا أبا طالب أقحط الوادي وأجدب العيال فهلُم فاستسقِ، فخرج أبو طالب ومعه غلام كأنه شمس تجلت عنها سحابة وحوله أغيلمة، فأخذه أبو طالب فألصق ظهره بالكعبة ولاذ الغلام بإصبعه وما في السماء فزعة، فأقبل السحاب من ها هنا وما هنا وأغدق واغدودق وانفجر له الوادي وأخصب النادي والبادي. وفي ذلك يقول أبو طالب: وأبيض يُستسقى الغمام بوجهه ثمال

اليتامى، عصمة للأرامل[6]. ولما بلغ رسول الله (ﷺ) عشر سنين خرج مع عمه أبي طالب إلى الشام حتى بلغ بصرى، فرآه بحيرا الراهب واسمه جرجيس فعرفه بصفته فقال وهو آخذ بيده: هذا سيد العالمين هذا يبعثه الله رحمة للعالمين، فقيل له وما علمك بذلك؟ فقال: إنكم حين أشرفتم به من العقبة لم يبق شجر ولا حجر إلا خر ساجدًا ولا يسجدان إلا لنبي، وإنّي أعرفه بخاتم النبوة في أسفل من غضروف كفه مثل التفاحة وإنّا نجده في كتبنا وسأل أبا طالب أن يرده خوفًا عليه من اليهود. وأقبل سبعة من الروم يقصدون قتله عليه الصلاة والسلام فاستقبلهم بحيرا فقال: ما جاء بكم؟ قالوا: إن هذا النبي خارج في هذا الشهر فلم يبق طريق إلا بعث إليها بأناس فقال: أفرأيتُم أمرًا أراد الله أن يقضيه هل يستطيع أحد من الناس رده؟ قالوا: لا، قال: فبايعوه فأقاموا معه وردّه أبو طالب.

ثم خرج ﷺ أيضًا ومعه ميسرة، غلام خديجة بنت خويلد بن أسد، في تجارة لها حتى بلغ سوق بصرى وله إذ ذاك خمس وعشرون سنة لأربع عشرة ليلة بقيت من ذي الحجة فنزل تحت ظل شجرة فقال نسطور الراهب: ما نزل تحت ظل هذه الشجرة بعد عيسى إلا نبي، وكان ميسرة يرى في الهجرة ملكين يظلانّه من الشمس، ولما رجعوا إلى مكة في وقت الظهيرة وخديجة في عليّة لها، فرأت رسول الله (ﷺ) وهو على بعيره وملكان يظلان عليه؛ وتزوجها ﷺ بعد ذلك بشهرين وخمسة وعشرين يومًا، وسِنه إحدى وعشرون سنة

(6) الثمال بالكسر الملجأ وعصمةً للأرامل يمنعهم من الصيع، والأرامل المسكينات من رجال ونساء واستعماله بالنساء أكثر.

وقيل ثلاثون، وكانت تُدعى في الجاهلية بالطاهرة وكانت تحت أبي هالة بن زرارة التميمي فولدت له هندا وهالة وهما ذكران، ثم تزوجها عتيق بن عائد المخزومي فولدت له هندًا، وكان لها حين تزوجها النبي (ﷺ) من العمر أربعون سنة وبعض أخرى. وكانت عرضت نفسها عليه، فذكر ذلك لأعمامه فخرج معه منهم حمزة حتى دخل على خويلد بن أسد فخطبها إليه، فتزوجها عليه الصلاة والسلام وحضر أبو طالب ورؤساء مضر فخطب أبو طالب فقال: الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل وضئضيء[7] معد وعنصر مضر وجعلنا حضنة بيته وسوّاس حرمه وجعل لنا بيتًا محجوجًا وحرمًا آمنًا وجعلنا الحكام على الناس، ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله لا يوزن برجل إلا رجح به فإن كان في المال قل فإن المال ظل زائل وأمر حائل ومحمد من قد عرفتم قرابته، وقد خطب خديجة بنت خويلد وبذل لها من الصداق ما أجلّه وعاجله من مالي كذا وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل، فزوجها إياه أبوها خويلد وكان الصداق ثنتي عشرة أوقية ذهبًا ونشًا[8].

ولما بلغ (ﷺ) خمسًا وثلاثين سنة، بَنَت قريش الكعبة وكان ﷺ ينقل معهم الحجارة وكانوا يضعون أزرهم على عواتقهم ويحملون الحجارة ففعل ذلك ﷺ فسقط من قيام، ونودي عورتك، فكان ذلك أول ما نودي فقال له أبو طالب أو العباس يا ابن أخي اجعل إزارك على رأسك، فقال ما أصابني ما أصابني إلا من التعري.

---

(7) الضئضئ الأصل وكذا العنصر.

(8) والأوقية أربعون درهما، والنش نصف أوقية.

ولما بلغ رسول الله ﷺ أربعين سنة، بعثه الله تعالى رحمة للعالمين ورسولًا إلى كافة الثقلين أجمعين وكان ذلك يوم الإثنين لسبع عشرة خلت من رمضان. روى البخاري في التعبير حديث عائشة أم المؤمنين (رضي الله تعالى عنها): أول ما بدأ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤية الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤية إلا جاءت مثل فلق الصبح وكان يأتي حراءً فيتحنث فيه وهو التعبد الليالي ذات العدد ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فتزوده لمثلها حتى فجأه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فيه فقال: اقرأ! فقلت: ما أنا بقارئ! فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ! فقلت: ما أنا بقارئ! فأخذني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ! فقلت: ما أنا بقارئ! فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ**﴾ حتى بلغ إلى قوله ﴿**مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾[العلق:1-5] فرجع بها ترجف بوادره[9] حتى دخل على خديجة فقال: زمّلوني زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الرعب فقال: يا خديجة ما لي وأخبرها الخبر وقال: قد خشيت على نفسي فقالت له: كلا أبشر. فوالله لا يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق. ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي وهو ابن عم خديجة، أخي أبيها وكان امرأ تنصر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العربي فيكتب بالعربية من الإنجيل

(9) عبارة «ترتجف بوادره» تعني أن هناك بداية لشعور أو حالة من الخوف، القلق، أو الارتباك تظهر بوضوح.

ما شاء الله أن يكتب وكان شيخًا كبيرًا قد عمي فقالت له خديجة: أي ابن عم اسمع من ابن أخيك. قال له ورقة: يا ابن أخي، ماذا ترى؟ فأخبره النبي ﷺ ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي أنزل على موسى، يا ليتني فيها جذعًا، ليتني أكون حيًا حين يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ: أو مخرجي هم؟ فقال ورقة: نعم، لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا.

وأخرج البيهقي أن رسول الله ﷺ حين أراد الله كرامته وابتدأه بالنبوة، كان لا يمر بحجر ولا شجر إلا سلم عليه، وسمع منه، فيلتفت رسول الله ﷺ خلفه وعن يمينه وعن شماله، فلا يرى إلا الشجر وما حوله من الحجارة، وهي تحييه بتحية النبوة، السلام عليك يا رسول الله. وعن جابر أن رسول الله ﷺ قال: جاورت بحراء شهرًا، فلما قضيت جواري هبطت فنوديت، فنظرت عن يميني فلم أر شيئًا، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئًا، ونظرت خلفي فلم أر شيئًا، فرفعت رأسي، فرأيت شيئًا فلم أثبت له، فأتت خديجة، فقلت: دثروني، دثروني، وصبوا علي ماءً باردًا، فنزلت: ﴿**يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ**﴾[المدثر:1-3] الآية، وذلك قبل أن تفرض الصلاة، رواه البخاري ومسلم.

وقد روِي أن جبريل تبدى له ﷺ في أحسن صورة وأطيب رائحة، فقال: يا محمد، إن الله يقرئك السلام، ويقول لك: أنت رسولي إلى الجن والإنس، فادعهم إلى قول: لا إله إلا الله. ثم ضرب برجلِه الأرض، فنبعت عين ماء، فتوضأ منها جبريل عليه السلام، ثم أمره أن يتوضأ، وقام جبريل يصلي، وأمره أن يصلي معه، فعلمه الوضوء

والصلاة، ثم عرج إلى السماء، ورجع رسول الله (ﷺ) لا يمر بحجر ولا مدر ولا شجر إلا وهو يقول: السلام عليك يا رسول الله، حتى أتى خديجة رضي الله عنها، فأخبرها، فغشي عليها من الفرح، ثم أمرها فتوضأت، وصلى بها كما صلى به جبريل، فكان ذلك أول فرضها ركعتين، ثم إن الله تعالى أقرها في السفر كذلك وأتمها في الحضر.

وكان أول رجل آمن بعدها أبو بكر الصديق (رضي الله عنه)، فآزره في الله، وأول صبي آمن علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) وسنّه عشر سنين. وأول من آمن من الموالي زيد بن حارثة، ومن العبيد بلال، ثم أسلم عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، بدعاء أبي بكر الصديق، فجاء بهم إلى رسول الله ﷺ حين استجابوا له، فأسلموا وصلوا، ثم أسلم أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح، وأبو سلمة بعد تسعة أنفس، والأرقم بن أبي الأرقم المخزومي، وعثمان بن مظعون الجمحي، وأخوه قدامة وعبد الله وعبيدة بن الحارث بن المطّلب وسعيد بن زيد، وامرأته فاطمة بنت الخطاب، وأول امرأة أسلمت بعد خديجة أم الفضل زوج العباس، وأسماء بنت أبي بكر، ودخل الناس في الإسلام أرسالًا من الرجال والنساء. ثم إن الله تعالى أمر رسوله ﷺ بأن يصدع بما جاء به، أي يواجه به المشركين. فما زال النبي ﷺ مستخفيًا حتى نزلت: ﴿**فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ**﴾[الحجر:94]، فجهَرَ هو وأصحابه. قالوا: وكان ذلك بعد ثلاث سنين من النبوة، وهي المدة التي أخفى رسول الله ﷺ أمره فيها إلى أن أمره الله تعالى بإظهاره، فنادى قومه بالإسلام وصدع به كما أمره الله تعالى.

ولم يبعد قومه ولم يردوا عليه حتى ذكر آلهتهم وعابها، فأجمعوا على خلافه وعداوته، إلا من عصم الله منهم بالإسلام. وحدب عليه عمه أبو طالب ومنعه منهم، وقام دونه، فاشتد الأمر وتضارَبَ القوم، وأظهر بعضهم لبعض العداوة. وتذامرت قريش على من أسلم منهم يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم. ومنع الله تعالى رسوله منهم بعمه أبي طالب وبني هاشم والمطلب غير أبي لهب. وكان ﷺ يطوف على الناس في منازلهم يقول: يا أيها الناس، إن الله يأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا. وأبو لهب وراءه يقول: يا أيها الناس، إن هذا يأمركم أن تتركوا دين آبائكم. ورماه الوليد بن المغيرة بالسحر، وتبعه قومه على ذلك، وآذوه قريش ورموه بالشِعر والكهانة والجنون. ومنهم من كان يحثو التراب على رأسه ويجعل الدم على بابه ﷺ، ووطئ عقبة بن أبي مَعِيط على رقبته الشريفة وهو ساجد عند الكعبة حتى كادت عينيه تبرزان. وخنقوه خنقًا شديدًا، فقام أبو بكر دونه، فجذَبُوا رأسه ولحيته حتى سقط أكثر شعره. فقال أبو بكر: أقتلون رجلًا أن يقول ربي الله؟ ودفع عنه عقبة بن أبي مَعِيط بعد أن أخذ بمنكب رسول الله ﷺ، فلَفَّ ثوبه في عنقه وخنقَه خنقًا شديدًا. وفي رواية البخاري: كان (ﷺ) يصلي عند الكعبة وجمع من قريش في مجالسهم، إذ قال قائل منهم: ألا تنظرون إلى هذا المرائي؟ أيكم يقوم إلى جَزور آل فلان فيعمد إلى فرثها ودمها وسلاها[10] فيجيء به ثم يمهله حتى إذا سجد وضعه بين كتفيه؟ فانبعث أشقاهم، فلما سجد عليه الصلاة والسلام وضعه بين كتفيه. وثبتَ النبي ﷺ ساجدًا، فضحكوا حتى

(10) سلا الجَزور: الجَزور هو الجمل الكبير، وسلام تعني أحشائها.

مال بعضهم على بعض من الضحك. فانطلق منطلق إلى فاطمة وهي جويرية، فأقبلت تسعى، وثبت النبي ﷺ ساجدًا حتى ألقتَه عنه، وأقبلت عليهم تسبّهم. فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة قال: اللهم عليك بقريش، ثم سمى، فقال: اللهم عليك بعمرو بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمُية بن خلف، وعقبة بن أبي مَعِيط، وعِمارة بن الوليد.

قال عبد الله بن مسعود: فوالله لقد رأيتهم صرعى يوم بدر، ثم سُحِبُوا إلى القليب، قليب بدر، ثم قال رسول الله ﷺ: وأتبع أصحاب القليب لعنة، وهو محمول على أكثرهم لأن عقبة بن أبي معيط لم يُصرع في بدر، وإنما قُتل صبرًا بعد أن رحلوا عن بدر مرحلة، وأمية بن خلف لم يُطرح في القليب، وعمارة بن الوليد هلك في أرض الحبشة.

ثم أسلم حمزة بن عبد المطّلب، وكان أعزّ فتى في قريش وأشدّه شكيمة، سنة ست؛ فعَرَف به رسول الله ﷺ، وكفّت عنه قريش قليلًا. وقالت قريش للنبي ﷺ: «إن كنت تطلب الشرف فينا فنحن نسودك علينا، وإن كنت تريد ملكًا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا أي جني قد غلب عليك، بدلنا أموالنا في طلب الطب لك حتى تبرئك منه أو نعذر فيك». فقال لهم عليه الصلاة والسلام: «ما بي ما تقولون، ولكن الله بعثني رسولًا، وأنزل عليَّ كتابًا، وأمرني أن أكون لكم بشيرًا ونذيرًا، فبلّغتكم رسالات ربي ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكُم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردّوه عليَّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم».

ولما كثُرَ المسلمون وظهر الإيمان، أقبل كفار قريش على من آمن يعذّبونهم ويؤذونهم ليردّوهم عن دينهم، حتى أن عدو الله أبا جهل مرّ بسُمَيَّة أم عمّار بن ياسر، وهي تُعذّب، فطعنها بحربة فقتلها. وكان الصِديق (رضي الله عنه) إذا مرّ بأحد من العبيد يُعذّب اشتراه وأعتقه منهم، بلالٌ وعامر بن فهيرة.

وعن أبي ذر (رضي الله عنه)، كان أول من أظهر الإسلام سبعةٌ: رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبو بكر، وعمّار، وأمه سُمَيَّة، وصهيب، وبلال، والمقداد. فأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فمنعه الله بعمه أبي طالب، وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون يعذّبونهم، فألبسوهم أدرع الحديد وصهروهم في الشمس. وإن بلالًا هانت عليه نفسه في الله عز وجل، وهان على قومه، فأخذوه فأعطوه الولدان، فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة، وهو يقول: أَحَدٌ أحدٌ.

ثم أذِن رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه في الهجرة إلى الحبشة، وذلك في رجب سنة خمس من النبوة، فهاجر إليها ناس ذو عدد، منهم من هاجر بأهله ومنهم من هاجر بنفسه، وكانوا أحد عشر رجلًا وأربع نسوة، وأميرهم عثمان بن مظعون. وكان أول من خرج عثمان بن عفّان مع امرأته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبطأ عليه خبرهما، فقدِمت امرأةٌ فقالت: «رأيتُهما وقد حمل عثمان امرأته على حمار»، فقال صلى الله عليه وسلم: «إن عثمان لأوّل من هاجر بأهله بعد لوط».

فلما رأت قريش استقرارهم في الحبشة وأمنهم، أرسلوا عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة بهدايا وتحف من بلادهم إلى النجاشي، واسمه أصحمة، وكان معهما عُمارة بن الوليد، ليردّوهما

إلى قومهم، فأبى ذلك وردّهما خائبين بهديّتيهما. وأسلم عمر بن الخطاب بعد حمزة رضي الله عنهما بثلاثة أيام، فيما قال أبو نعيم بدعوته ﷺ: «اللهم أعز الإسلام بأبي جهل أو بعمر بن الخطاب». وكان المسلمون إذ ذاك بضعة وأربعين رجلًا وإحدى عشرة امرأة. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لما أسلم عمر، قال جبريل للنبي ﷺ: يا محمد لقد استبشر أهل السماء بإسلام عمر». ولما رأت قريش عِزة النبي ﷺ بمن معه وإسلام عمر وعِزة أصحابه بالحبشة وفشو الإسلام في القبائل أجمعوا على أن يقتلوا النبي ﷺ؛ فبلغ ذلك أبا طالب فجمع بني هاشم وبني المطّلب فأدخلوا رسول الله ﷺ شعبهم ومنعوه ممن أراد قتله وأجابه لذلك حتى كفارهم فعلوا ذلك حمية. فلما رأت قريش ذلك اجتمعوا والتمسوا أن يكتبوا كتابًا يتعاقَدون فيه على بني هاشم وبني المطّلب أن لا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم ولا يبيعوا منهم شيئًا ولا يبتاعوا منهم ولا يقبلوا منهم صلحًا أبدًا حتى يسلموا رسول الله ﷺ للقتل. وكتبوه في صحيفة بخط بغيض بن عامر، فشُلت يده وعُلِّقت الصحيفة في جوف الكعبة هلال المحرم سنة سبع من النبوة. فانحاز بنو هاشم وبنو المطّلب إلى أبي طالب فدخلوا معه في شعبه إلا أبا لهب فكان مع قريش. فأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثًا حتى جهدوا وكان لا يصل إليهم شيء إلا سرًا.

روى البخاري في صحيحه أنه (ﷺ) قرأ سورة النجم وسجد معه المسلمون والمشركون والإنس والجن. ولما سمع بذلك من في الحبشة من أصحاب رسول الله ﷺ قدم نفر منهم لظنهم أن أهل مكة

قد أسلموا كلهم وصلوا معه ﷺ وقد أمن المسلمون بمكة فأقبلوا سرعان من الحبشة. ثم هاجر المسلمون الهجرة الثانية إلى أرض الحبشة وعدتهم ثلاثة وثمانون رجلًا وثمانية عشرة امرأةً وكان معهم عبيد الله بن جحش مع امرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان فتنصر هناك ثم توفي على دين النصرانية.

وتزوج رسول الله ﷺ أم حبيبة بنت أبي سفيان سنة سبع من الهجرة إلى المدينة وهي بالحبشة. ثم قام رجال في نقض الصحيفة فأطلع الله نبيه ﷺ على أن الأرضة أكلت جميع ما فيها من القطيعة والظلم، فلم تَدَع إلا أسماء الله تعالى فقط. فلما أنزلت لتمزق وجِدت كما قال ﷺ وذلك في السنة العاشرة، ولما أتى عليه ﷺ تسع وأربعون سنة وثمانية أشهر وأحد عشر يومًا مات عمه أبو طالب وله سبع وثمانون سنة في السنة العاشرة قبل هجرته عليه الصلاة والسلام بثلاث سنين. وحُكِي عن هشام بن السائب الكلبي عن أبيه أنه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة، جمع إليه وجوه قريش فأوصاهم فقال: يا معشر قريش أنتم صفوة الله من خلقه إلى أن قال: وإنّي أوصيكم بمحمد خيرًا فإنه الأمين في قريش والصديق في العرب وهو الجامع لكل ما أوصيكم به وقد جاء بأمر قبِله الجِنان وأنكره اللسان مخافة الشنآن. وأيم الله كأني أنظر إلى صعاليك العرب وأهل الوبر والأطراف والمستضعفين من الناس قد أجابوا دعوته وصدقوا كلمته وعظموا أمره، فخاض بهم غمرات الموت، فصارت رؤساء قريش وصناديدها أذنابًا ودورها خرابًا وضعفاؤها أربابًا وإذا أعظمهم عليه أحوجهم إليه وأبعدهم منه أحظاهم عنده. قد محضته العرب ودادها

وأصفَت له فؤادها وأعطَته قيادَها، يا معشر قريش كونوا له ولاةً ولحزبه حماةً، والله لا يسلك أحد سبيله إلا رشد ولا يأخذ بهديه إلا سعد، ولو كان لنفسي مدة ولأجلي تأخير لكففت عنه الهزاهز ولدفعت عنه الدواهي ثم هلك.

ثم بعد ذلك بثلاثة أيام، وقيل بخمسة في رمضان بعد البعث بعشر سنين على الصحيح، ماتت خديجة أم المؤمنين (رضي الله عنها)، وكان ﷺ يسمي ذلك العام عام الحزن، وكانت مدة إقامتها معه (ﷺ) خمسًا وعشرين سنة على الصحيح. ثم بعد أيام من موت خديجة، تزوج عليه الصلاة والسلام بسودة بنت زمعة (رضي الله عنها). ثم خرج ﷺ إلى الطائف لما ناله من قريش بعد موت أبي طالب، وكان معه زيد بن حارثة، فأقام به شهرًا يدعو أشراف ثقيف إلى الله تعالى فلم يجيبوه، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ورموا عراقيبه بالحجارة حتى اختضبت نعلاه بالدماء. وكان إذا أزلقته الحجارة، قعد إلى الأرض فيأخذون بعضديه ﷺ فيقيمونه، فإذا مشى رجموه وهم يضحكون، وزيد بن حارثة يقيه بنفسه حتى لقد شج في رأسه شجًا.

وفي البخاري ومسلم من حديث عائشة (رضي الله عنها) أنها قالت للنبي ﷺ: «هل أتى عليك يوم أشد من يوم أحد؟» قال: «لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجيبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب. فرفعت رأسي، فإذا بسحابة قد أظلتني، فنظرت، فإذا فيها جبريل عليه السلام، فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك وما ردوا به عليك، وقد بعث إليك

ملك الجبال لتأمره بما شئت. فناداني ملك الجبال، فسلم علي ثم قال: «يا محمد، إن الله قد سمع قول قومك وما ردوا عليك، وأنا ملك الجبال وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين وهما جبلان.» قال النبي ﷺ: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا.» وكانت مدة إقامته ﷺ بالطائف عشرة أيام. ولما انصرف ﷺ عن أهل الطائف مر في طريقه بعتبة وشيبة ابني ربيعة وهما في حائط لهما، فلما رأيا ما لقي تحركت له رحمُهما، فبعثا له مع عدّاس النصراني غلامهما قطف عنب. فلما وضع بين يديه، وضع ﷺ يده في القطف، وقال: «بسم الله» ثم أكل، فنظر عدّاس إلى وجهه ثم قال: «والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلدة.» فقال رسول الله ﷺ: «من أي البلاد أنت وما دينك؟» قال: «نصراني من نينوى.» فقال ﷺ: «من قرية الرجل الصالح يونس بن متى.» فقال: «وما يدريك؟» قال: «ذاك أخي وهو نبي مثلي.» فأكب عداس على يديه ورأسه ورجليه يقبّلها وأسلَم.

ولما نزل نخلة وهو موضع على ليلة من مكة، صرف إليه سبعة من جن نصيبين، وكان ﷺ قد قام في جوف الليل يصلي فاستمعوا له وهو يقرأ سورة الجن، والذي آذنه بهم شجرة. وفي طريقه هذه دعا ﷺ بالدعاء المشهور: «اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت أرحم الراحمين، وأنت رب المستضعفين، إلى من تكِلني؟ إلى عدو بعيد يتجهمني، أم إلى صديق قريب ملكتَه أمري؟ إن لم تكن غضبانًا عليّ

فلا أبالي، غير أن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أضاءت له السماوات وأشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن ينزل بي غضبك أو يحل سخطك، ولك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك.» ثم دخل ﷺ مكة في جوار المُطعم بن عدي. ولما كان في شهر ربيع الأول أُسري بروحه وجسده ﷺ يقظة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم عُرج به من المسجد الأقصى إلى فوق سبع سماوات ورأى ربه بعيني رأسه وأوحى إليه ما أوحى وفرض عليه الصلوات الخمس، ثم انصرف في ليلته إلى مكة فأخبر بذلك فصدقه الصديق وكل من آمن بالله وكذبه الكفار، واستوصوفوه بيت المقدس، فمثل الله له فجعل ينظر إليه ويصفه، وكان ذلك بعد البعث بخمس سنين، وقيل كان ليلة السابع والعشرين من رجب، واختاره الحافظ عبد الغني المقدسي، وقيل ليلة الجمعة، وقيل ليلة السبت.

فلما أراد الله تعالى إظهار دينه وإعزاز نبيه وإنجاز موعده له، خرج (ﷺ) في الموسم الذي لقي فيه الأنصار الأوس والخزرج. فعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يفعل في كل موسم. فبينما هو عند العقبة، لقي رهطًا من الخزرج، أراد الله بهم خيرًا. فقال لهم: «من أنتم؟» قالوا: «نفر من الخزرج.» قال: «أفلا تجلسون أكلمكم؟» قالوا: «بلى.» فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن. وكان ضعفاء اليهود معهم في بلادهم، وكانوا أهل كتاب، وكان الأوس والخزرج أكثر منهم. فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا: «إن نبيًّا سيبعث، فقد أظل زمانه نتبعه فنقتل معكم.» فلما

كلمهم النبي ﷺ عرفوا النعت، فقال بعضهم لبعض: «لا تسبقنا اليهود إليه.» فأجابوه إلى ما دعاهم إليه وصدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام. فأسلم منهم ستة نفر، وهم: أبو أمامة أسعد بن زرارة، وعوف بن الحارث بن رفاعة (وهو ابن عفراء)، ورافع بن مالك بن العجلان، وقطبة بن عامر بن حديدة، وعقبة بن عامر بن نابي، وجابر بن عبد الله بن رياب. فقال لهم النبي ﷺ: «تمنعون ظهري حتى أبلغ رسالة ربي؟» فقالوا: «يا رسول الله، إنما كانت بعثتنا عامًا أول يوم من أيامنا اقتلنا به. فإن تقدمت ونحن كذلك لا يكون لنا عليك أجتماع. فدعنا حتى نرجع إلى عشائرنا، لعل الله يصلح ذات بيننا وندعوهم إلى ما دعوتنا. فعسى الله أن يجمعهم عليك. فإن اجتمعت كلمتهم عليك واتبعوك فلا أحد أعز منك، وموعدك الموسم العام القابل.» وانصرفوا إلى المدينة، ولم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر رسول الله ﷺ. فلما كان العام المقبل، لقيه اثنا عشر رجلًا وهي العقبة الثانية، فأسلموا. فيهم خمسة من الستة المذكورين، ولم يكن فيهم جابر بن عبد الله بن رياب. والسابعة: تتمة الإثني عشر، هم: معاذ بن الحارث بن رفاعة (وهو ابن عفراء أخو عوف المذكر قبلًا)، وذكوان بن عبد قيس الزرقي، وعبادة بن الصامت، ويزيد بن ثعلبة البلوي، والعباس بن عباد بن نضلة. وهؤلاء من الخزرج، ومن الأوس رجلان: أبو الهيثم بن التيهان من بني عبد الأشهل، وعويم بن ساعدة. فأعلنوا إسلامهم وبايعوا على بيعة النساء، أي على بيعتهم التي أنزلت بعد ذلك عند فتح مكة، وهي أن لا نشرك بالله شيئًا، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا

وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف، والسماع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره، وأثرتهم علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله.

ثم أَذِن الله تعالى لنبيه في الهجرة إلى المدينة ليتشرف بها المكان كما تشرف بها الزمان. ولما هاجر ﷺ إليها شرفت به، حتى وقع الإجماع على أن أفضل البقاع الموضع الذي ضم أعضاءه الكريمة ﷺ، وخرج من مكة لهلال ربيع الأول وقدم المدينة لاثنتي عشرة خلت منه، وأمره جبريل أن يستصحب أبا بكر رضي الله عنه، وأخبر عليه السلام عليًا بمخرجه وأمره أن يتخلف بعده حتى يؤدي عنه الودائع التي كانت عنده للناس. وأتى دار أبي بكر مستخفيًا فاستصحبه وسأله أن يأخذ إحدى راحلتيه فأبى ﷺ إلا بالثمن ليستكمل فضل الهجرة. قالت عائشة: وجهزناهما أحب الجهاز. ثم لحق ﷺ وأبو بكر بغار ثور وهو جبل بأسفل مكة، ونظر ﷺ حين خروجه إلى البيت فقال: «والله إنك لأحب أرض الله إلي وإنك لأحب أرض الله إلى الله. ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت.» ولما فقدت قريش رسول الله ﷺ، طلبوه بمكة أعلاها وأسفلها وبعثوا القافلة أثره في كل وجهة، وجعلوا مائة ناقة لمن رده فلم يظفروا به. وأنبت الله على باب الغار شجرة أم غيلان، وأمر العنكبوت فنسجت على وجه الغار، وأرسل حمامتين وحشيتين فوقفتا على وجه الغار، وحمام الحرم من نسل تينك الحمامتين. وأقبل فتيان قريش من كل بطن حتى وصل بعضهم الغار، فصدهم وجود الحمامتين. وقال أحدهم: ادخلوا الغار. فقال أمية بن خلف: إن فيه لعنكبوتًا أقدم من ميلاد محمد. وقد رُوي أن الحمامتين باضتا في أسفل النقب، ونسج العنكبوت،

فقالوا: لو دخلا لتكسر البيض وتفسخ نسج العنكبوت، وهذا أبلغ في الإعجاز من مقاومة القوم بالجنود. وروي أنه ﷺ قال: اللهم أعم أبصارهم فعميت عن دخول الغار. وجعلوا يضربون حوله يمينًا وشمالًا، وفي الصحيح عن أنس: قال أبو بكر: يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لرآنا. فقال له رسول الله ﷺ: ما ظنك باثنين الله ثالثهما. وروي أن أبا بكر قال: نظرت إلى قدمي رسول الله ﷺ في الغار وقد تقاطرنا دمًا فاستبكيت، وعلمت أن رسول الله ﷺ لم يكن تعود الحفاء والجفوة. وروي أنه دخل الغار قبل رسول الله ﷺ ليقيه بنفسه، وأنه رأى جحرًا فيه فألقمه عقبه لئلا يخرج منه ما يؤذي رسول الله ﷺ. فدخل رسول الله ﷺ ووضع رأسه في حجر أبي بكر، ونام فلدغ أبو بكر في رجله من الجحر.

مكث (ﷺ) هو وأبو بكر في الغار ثلاث ليالٍ، وكان يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر وهو غلام، فيدلج من عندهما بسَحر فيصبح بمكة. فحين يختلط الظلام يأتيهما بخبر ذلك اليوم، ويروح عليهما بعد العشاء عامر بن فهيرة مولى أبي بكر بغنم فيكتفيان من لبنها.

واستأجرا عبد الله بن الأريقط دليلًا وهو كافر ولم يعرف له إسلام، فأتهما براحلتيهما بعد ثلاث ليالٍ وانطلق معهما هو وعامر بن فهيرة على طريق السواحل. فمروا بقُدَيْدٍ على أم معبد عاتكة بنت خالد الخزاعية، فطلبوا لبنًا أو لحمًا يشترونه منها فلم يجدوا عندها شيئًا. فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة في كسر الخيمة خلّفها الجهد عن الغنم، فسألها: هل بها من لبن؟ فقالت: هي أجهد من ذلك. فقال: أتأذنين لي أن أحلبها؟ فقالت: نعم بأبي أنت وأمي، إن رأيت

بها حلبًا فاحلبها. فدعا بالشاة فاعتقلها ومسح ضرعها فدرّت، ودعا بإناء يشبع الجماعة، فحلب فيه وسقى القوم حتى رَووا، ثم شرب آخرهم، ثم حلب فيه مرة أخرى عللًا بعد نهل، ثم غادرها عندها وذهبوا. فما لبث حتى جاء زوجها أبو معبد يسوق أعنزًا عِجافًا، فلما رأى اللبن عجب، وقال: ما هذا يا أم معبد؟ قالت: إنه مر بنا رجل مبارك من حاله كذا وكذا. فقال: صفيه، فوصفته بأحسن الأوصاف، فقال: هذا والله صاحب قريش، لو رأيته لاتبعته. وبقيت هذه الشاة إلى خلافة عمر بن الخطاب تُحلب صباحًا ومساءً.

ثم تعرّض لهما بقُدَيْدٍ سراقة بن مالك المدلجي، فبكى أبو بكر وقال: يا رسول الله، أُتينا. قال: كلا. ودعا رسول الله ﷺ بدعوات، فساخت قوائم فرسه، وطلب الأمان، فقال: أعلم أن قد دعوتما عليّ، فادعوا لي ولكما أن أرد الناس عنكما ولا أضركما. قال: فوقفا لي، فركبت فرسي حتى جئتُهما، فأخبرتهما خبر ما يريد بهما الناس، وعرضتُ عليهما الزاد والمتاع، فلم يرزآني. ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت أن سيظهر أمر رسول الله ﷺ. واجتاز ﷺ هو وأبو بكر بعبد يرعى غنمًا، فاستسقياه اللبن، فقال: ما عندي شاة تحلب غير أن ههنا عناقةً حملت عام أول وما بقي بها لبن. فقال: ادع بها. فأتى بها وحلبها ﷺ ثلاث مرات، فشربوا منها، وأسلم الراعي.

ولما بلغ المسلمين بالمدينة خروج رسول الله ﷺ من مكة، وكانوا يغدون كل غداة إلى الحرة ينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة، فانقلبوا يومًا بعدما أطالوا انتظارهم، فلما أووا إلى بيوتهم، أوفى رجلٌ من اليهود على أطُم من آطامهم لأمر ينظر إليه، فبصر برسول

الله ﷺ وأصحابه مبيدين يزول بهم السراب، فلم يملك اليهودي نفسه فنادى بأعلى صوته: يا بني قيلة، يعني الأوس والخزرج، هذا جدكم أي حظكم ومطلوبكم قد أقبل، فخرجوا إليه سراعا بسلاحهم فتلقوه، فنزل بقُباء على بني عمرو بن عوف وأقام عندهم اثنتين وعشرين ليلة، ثم خرج ﷺ من قُباء يوم الجمعة حين ارتفع النهار، فأدركته الجمعة في بني سَالِم بن عوف فصلاها بمن كان معه من المسلمين وهم مائة، وركب ﷺ على راحلته بعد الجمعة متوجهًا إلى المدينة.

وكان ﷺ كلما مرَّ على دار من دور الأنصار يدعونَهُ إلى المقام عندهم، قائلين: يا رسول الله، هلُمَّ إلى القوة والمنعة، فيقول: خلوا سبيلها، يعني ناقته، فإنها مأمورة، وقد أرخى زمامها وما يُحرِّكُها، وهي تنظر يمينًا وشمالًا حتى إذا أَتَتْ دارَ مالك بن النجار بركت على باب المسجد، وهو يومئذٍ مِرْبَدُ تَمْرٍ لسهل وسهيل ابني رافع بن عمرو وهما يتيمان في حجر أسعد بن زرارة، ثم سارَتْ وهو ﷺ عليها حتى بركت على باب أبي أيوب الأنصاري، ثم سارَتْ فيه وبركت في مبركها الأول وألقت جِرانها، أي باطن عنقها بالأرض، وأرزمَتْ، أي صوتت من غير أن تفتح فاهَا، ونزل عنها ﷺ وقال: هذا المنزل إن شاء الله، واحتمل أبو أيوب رحله وأدخله بيته، ومعه زيد بن حارثة، وكانت دار بني النجار أوسط دور الأنصار وأفضلها، وهم أخوال عبد المطّلب، جدّه عليه الصلاة والسلام.

قال أنس بن مالك رضي الله عنه: لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة، أضاء منها كل شيء، وصعدت ذوات الخدور على

الأجَاجِير[11] عند قدومه يقلن: طلع البدر علينا من ثنيات الوداع وجب الشكر علينا ما دعا لله داع. وعن أنس أيضًا لما بركت الناقة على باب أبي أيوب، خرج جوار من بني النجار بالدُّفُوف، يقلن: نحن جوار من بني النجار يا حبَّذا محمد من جار.

قال ﷺ: أتُحبّونني؟ قلنا: نعم يا رسول الله، فقال ﷺ: الله يعلم أن قلبي يحبكم. قال الطبري: وتفرق الغلمان والخدم في الطرق ينادون: جاء محمد، جاء رسول الله. وأقام ﷺ عند أبي أيوب سبعة أشهر. ولما أراد بناء المسجد قال: يا بني النجار، ثمنوني بحائطكم. قالوا: لا نطلب ثمنه إلا إلى الله. فأبى ذلك، وابتاعها بعشرة دنانير أداها من مال أبي بكر رضي الله عنه، وكان قد خرج من مكة بماله كله. وأمر ﷺ باتخاذ اللبِن فاتخذ، وبُني المسجد وسُقف بالجريد وجُعلت أعمدته خشب النخل، وعمل فيه المسلمون. وكان ﷺ ينقل معهم اللبِن في بنائه ويقول لهما لعبد الله بن رواحة:

هذا الحمال لا حمال خيبر	هذا أبر ربنا وأطهر

اللهم إن الأجر أجر الآخرة	فارحم الأنصار والمهاجرة

وجُعِلت قبلة المسجد للقدس، وجعل له ثلاثة أبواب: باب في مؤخِره، وباب يقال له: باب الرحمة، والباب الذي يدخل منه. وجعل طوله مما يلي القبلة إلى مؤخره مائة ذراع، وفي الجانبين مثل ذلك أو

(11) في هذا السياق، «الأجاجير» تشير إلى الأسطح؛ ويُقصد بها عادةً الأسطح العالية أو الأماكن المرتفعة. ويمكن أن تكون المقصودة هنا هي الأسطح المرتفعة للمنازل أو الأبنية التي كانت تستخدم النساء في ذلك الوقت للصعود إليها عند قدوم شخص عزيز أو مهم. النساء صعدن على الأسطح المرتفعة أو ليستقبلن النبي صلى الله عليه وسلم، قائلين الأبيات المعروفة في الترحيب.

دونه. وجعل أساسه قريبًا من ثلاثة أذرع، وبنى بيوتًا إلى جانبه باللبِن وسقفها بجذوع النخل والجريد. فلما فرغ من البناء، بنى لعائشة في البيت الذي يليه شارعًا إلى المسجد، وجعل سودة بنت زمعه في البيت الآخر الذي يليه. ثم تحول عليه الصلاة والسلام من دار أبي أيوب إلى مساكنه التي بناها، وكان قد أرسل زيد بن حارثة وأبا رافع مولاه فقدما بفاطمة وأم كلثوم وسودة بنت زمعه وأسامة بن زيد وأم أيمن، وخرج عبد الله بن أبي بكر معهم بعيال أبيه.

وكان ﷺ يخطب يوم الجمعة إلى جذع في المسجد قائمًا، فقال: إن القيام قد شق عليّ، فُصنع له المنبر. وستأتي قصة حنين الجذع إن شاء الله تعالى في مقصد المعجزات. ولما كان بعد قدومه ﷺ بخمسة أشهر، أخى بين المهاجرين والأنصار، وبنى بعائشة رضي الله تعالى عنها في شوّال على رأس ثمانية عشر شهرًا. قال ابن إسحاق وغيرُه: ونصبت أحبار اليهود العداوة للنبي ﷺ بغيًا وحسدًا، وانضمت إليهم جماعة من الأوس والخزرج منافقون على دين آبائهم من الشرك، منهم عبد الله بن أُبي بن سلول، رأس المنافقين، وقهرهم الله تعالى بظهور الإسلام.

وأذِن الله تعالى لرسوله ﷺ بالقتال. قال الزهري: أول آية نزلت في الإذِن بالقتال قوله تعالى: ﴿**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ**﴾[الحج:39]. فبعث ﷺ البعوث والسرايا، وغزا وقاتل هو وأصحابه حتى دخل الناس في دين الله أفْواجًا أفواجًا.

وسراياه التي بَعث فيها سبعًا وأربعين سرية؛ أولها (سرية عمّه حمزة رضي الله عنه) في ثلاثين رجلًا من المهاجرين، فخرجوا يعترضون عيرًا

لقريش، فلم يقع حرب. ثم (سرية عبيدة بن الحارث بن المطلب) إلى بطن رابغ في ستين رجلًا يلقى أبا سفيان بن حرب، وكان على المشركين في مئتين، فلم يكن بينهم قتال. ثم (سرية سعد بن أبي وقاص) إلى الخرار، وادٍ بالحجاز في عشرين رجلًا يعترض عيرًا لقريش، فوجدوه قد مرت بالأمس.

غزواته صلى الله عليه وآله وسلم

غزوة ودان: وهي الأبواء، وهي أولى مغازي النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، خرج من المدينة في صَفَر على رأس اثني عشر شهرًا من الهجرة، يريد قريشًا في ستين رجلًا. وحمل اللواء حمزة بن عبد المطلب، واستعمل على المدينة سعد بن عبادة. وكانت المودة أي المصالحة على أن بني ضمرة لا يغزونَه ولا يُكثرون عليه جمعًا ولا يُعينون عدوًا.

غزوة بواط

وهي الثانية التي غزاها صلى الله عليه وآله وسلم في شهر ربيع الأول، على رأس ثلاثة عشر شهرًا من الهجرة، في مئتي من أصحابه، يعترض عيرًا لقريش، وفيهم أمية بن خلف الجمحى. فرجع ولم يلق كيدًا أي حربًا.

غزوة العشيرة: وهي موضع لبني مدلج بينبع، خرج إليها صلى الله عليه وآله وسلم في جمادى الأولى، وقيل الآخرة، على رأس ستة عشر شهرًا من الهجرة في خمسين ومائة رجل، وقيل مائتين، ومعهم ثلاثون بعيرًا. وحمل اللواء وكان أبيض، حمزة، يريد عيرَ قريش التي صدرت من مكة إلى الشام بالتجارة. فخرج إليها ليغنمها، فوجَدها

قد مضت، ووادع بني مدلج من كنانة على أن ينصروه وينصرهم صلى الله عليه وآله وسلم.

غزوة بدر الأولى

أغار كرز بن جابر الفهري على سرح المدينة بعد غزوة العشيرة بعشرة أيام، فخرج صلى الله عليه وآله وسلم في طلبه حتى بلغ سفوان، موضع من ناحية بدر، ففاتَه كرز بن جابر، وتسمى بدرًا الأولى، وحمل اللواء علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

سرية أمير المؤمنين عبد الله بن جحش

وكان معه ثمانية من المهاجرين إلى نخلة على ليلة من مكة في رجب يتوصد عير قريش، فمرت به تحمل زبيبا وتمرا وأدما من الطائف، فيها عمرو ابن الحضرمي، فقتلوه وأسروا عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان وهرب من هرب واستاقوا العير فكانت أول غنيمة في الإسلام.

غزوة بدر الكبرى

وهو يوم الفرقان الذي أعزّ الله فيه الإسلام وأهله وأذل فيه الشرك وأهله مع قلة عدد المسلمين وكثرة المشركين مع ما كانوا فيه من سوابغ الحديد والعدة الكاملة والخيول المسومة والخيلاء الزائدة، ولذلك امتن الله على المؤمنين بقوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ**﴾[آل عمران:123]، وقد كانت هذه الغزوة أعظم غزوات الإسلام إذ منها كان ظهوره وبعد وقوعها أشرق على الأفاق نوره. وكان خروجهم يوم السبت لثنتي عشرة خلت من رمضان على رأس تسعة عشر شهرا، وخرج معه الأنصار ولم يخرجوا معه قبل ذلك.

وكان عدة من خرج معه ثلاثمائة وخمسة وثمانية، لم يحضروها وإنما ضرب لهم بسهمهم وأجرهم فكانوا كمن حضرها وكان معهم ثلاثة أفراس للمقداد والزبير ومرثد الغنوي، وكان معهم سبعون بعيرا؛ أما المشركون فكانوا ألفا ومعهم مائة فرس وسبعمائة بعير وكان قتالهم يوم الجمعة لسبع عشرة خلت من رمضان وكان خروجه ﷺ بقصد التعرض لعير قريش القادمة من الشام في قافلة عظيمة فيها أموال قريش وعليها أبو سفيان في ثلاثين راكبا.

فلما بلغ ﷺ بأصحابه الروحاء، أتاه الخبر بمسير قريش ليمنعوا عن عيرهم فاستشار النبي ﷺ أصحابه وقال: إن الله وعدكم إحدى الطائفتين إما العير وإما قريش. فقام أبو بكر فقال: فأحسن، ثم قام عمر فقال: فأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله امض لما أمرك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك العماد يعني مدينة الحبش لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه.

فقال ﷺ: خيرا ودعا له بخير، ثم قال عليه الصلاة والسلام: أيها الناس وإنما يريد الأنصار، فقال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله! قال: أجل. قال سعد: قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى عدونا وإنا لصبر عند الحرب صدق

عند اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسِر بنا على بركة الله تعالى.

فَسُرَ عليه الصلاة والسلام بقول سعد ونشطه ذلك، ثم قال سيروا على بركة الله تعالى وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر الآن إلى مصارع القوم وعين مصارعهم فما تعدوها. ثم ارتحل ﷺ قريبا من بدر وترك قريشا بالعدوة القصوى، وبني له ﷺ عريش (خيمة يحتمي داخلها)، فكان فيه.

ثم خرج عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة وابنه الوليد ودعوا إلى المبارزة فخرج إليهم فتية من الأنصار فقالوا: ما لنا بكم حاجة. ثم خرج إليهم بأمر رسول الله ﷺ عبيدة بن الحارث بن المطلب وحمزة وعلي فبارز حمزة شيبة فقتله وبارز عَلِي الوليد فقتله، واختلف بين عبيدة وعتبة ضربتان فأثخن كل منهما صاحبه، فمال حمزة وعلي على عتبة فقتلاه واحتملا عبيدة واستشهد بعد ذلك من تلك الجراحات رضي الله عنه.

ثم تزاحف الناس ودنا بعضهم من بعض ورسول الله ﷺ في العريش ومعه أبو بكر فقط، وهو يناشد ربه ما وعده من النصر. ويقول: اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإيمان اليوم فلا تُعبد في الأرض أبدا. ولما نظر ﷺ كثرة المشركين وقلة المسلمين قام فركع ركعتين وقال وهو في صلاته اللهم لا تخذلني، اللهم أنشدك ما وعدتني.

ولما كان في العريش ومعه الصديق، أخذته ﷺ سِنَة من النوم ثم استيقظ متبسما فقال: أبشر يا أبا بكر، هذا جبريل على ثناياه النقع أي الغبار، ثم خرج من باب العريش وهو يتلو ﴿**سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ**﴾[القمر: 45].

وأمد الله المسلمين بألف من الملائكة ثم صاروا ثلاثة آلاف ثم صاروا خمسة الآف، وكانت الملائكة لا تعرف كيف تقتل الآدميون فعلمهم الله تعالى بقوله: ﴿**فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ**﴾[الأنفال:12] أي كل مِفصل وكانوا يعرفون قتلى الملائكة من قتلاهم بآثار سود في الأعناق والبنان، وعن ابن عباس: لم تقاتل الملائكة إلا يوم بدر وفيما سواه كانت عددا ومددا وكانت سيماهم يوم بدر عمائم بيض ويوم حنين عمائم خضر. وعن سهيل بن حنيف عن أبيه قال: لقد رأيتنا يوم بدر وإن أحدنا يشير بسيفه إلى المشرك فتقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه السيف، ولما التقى الجمعان تناول رسول الله ﷺ كفا من الحصباء فرمى به في وجوههم وقال شاهت الوجوه فلم يبق مشرك إلا دخل في عينيه ومنخريه منها شيء فانهزموا، وقتل الله من قتل من صناديد قريش وأسر من أسر من أشرافهم. قال ابن إسحاق: وقاتل عكاشة بن محصن الأسدي يوم بدر بسيفه حتى انقطع في يده، فأتى رسول الله ﷺ فأعطاه جزلا من حطب فقال له قاتل به فهزه فعاد في يده سيفا طويل القامة شديد المتن أبيض الحديدة، فقاتل به حتى فتح الله على المسلمين وكان ذلك السيف يسمى العون، ثم لم يزل عنده يشهد به المشاهد مع رسول الله ﷺ حتى قُتل وهو عنده وجاءه عليه الصلاة والسلام يومئذ معاذ بن عمرو يحمل يده ضربه عكرمة عليها فتعلقت بجلده فبصق عليه الصلاة والسلام عليها فلصقت ثم عاش بعد ذلك إلى زمن عثمان رضي الله عنهما.

وأمر ﷺ بقتلى المشركين أن يطرحوا في القليب، فطرحوا فيه وناداهم ﷺ يا فلان بن فلان ويا فلان بن فلان هل وجدتم ما وعدكم

الله ورسوله حقا فإني وجدت ما وعدني الله حقا، وقال ﷺ يا أهل القليب بئس العشيرة كنتم كذبتموني وصدقني الناس. فقال عمر: يا رسول الله كيف تكلم أجسادا لا أرواح فيها؟ فقال: ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، غير أنهم لا يستطيعون أن يردوا شيئا. قال قتادة: أحياهم الله تعالى توبيخا وتصغيرا ونقمة وحسرة، وقال ابن مرزوق: ومن آيات بدر الباقية ما كنت أسمعه من غير واحد من الحجاج أنهم إذا اجتازوا بذلك الموضع يسمعون كهيئة طبل ملوك الوقت ويرون أن ذلك لنصر أهل الإيمان، وكنت ربما أنكر ذلك وربما أتأوله حتى منّ الله علي بالوصول إلى ذلك الموضع الشريف فسمعت صوت الطبل سماعا محققا المرة بعد المرة يومي أجمع.

وقد استشهد يوم بدر من المسلمين أربعة عشر رجلا؛ ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار وقتل من المشركين سبعون وأسر سبعون. ولما فرغ ﷺ من بدر في آخر رمضان وأول يوم من شوال، بعث زيد بن حارثة بشيرا، فوصل المدينة ضحى وقد نفضوا أيديهم من تراب رقية بنت النبي صلى الله عليه وعليها وسلم وكان عثمان رضي الله عنه قد تخلف عن بدر لتمريضها، فضرب له رسول الله ﷺ بسهمه وأجره، ثم (سرية عمير بن عدي الخطمي) إلى عصماء بنت مروان وكانت تعيب الإسلام وتؤذي رسول الله ﷺ فجاءها عمير ليلا فقتلها ثم صلى الصبح مع النبي ﷺ بالمدينة وأخبره بذلك فقال لا ينتطح فيها عنزان[12].

---

(12) العبارة «لا ينتطح فيها عنزان» هي مثل عربي يُستخدم للإشارة إلى أن الموضوع أو المسألة لا تحتاج إلى جدال أو خلاف، لأن الأمر واضح ولا يحتاج إلى مزيد من النقاش.

غزوة قرقرة الكدر

خرج عليه الصلاة والسلام بعد بدر بسبعة أيام يريد بني سليم، فبلغ ماء يقال له الكدر فأقام ثلاثا وقيل عشرا فلم يلق أحدا وكانت غيبته خمس عشرة ليلة، ثم (سرية سالم بن عمير) إلى أبي عفك اليهودي وكان يحرض على النبي ﷺ ويقول فيه الشعر فأقبل إليه سالم فقتله.

غزوة بني قيتقاع

بطن من يهود المدينة وكانت يوم السبت نصف شوال على رأس عشرين شهرا من الهجرة وقد كانت الكفار بعد الهجرة مع النبي ﷺ على ثلاثة أقسام: قسم وادعهم عليه الصلاة والسلام على أن لا يحاربوه ولا يألبوا عليه عدوه وهم طوائف اليهود الثلاثة قريظة والنضير وبنو فيتقاع؛ وقسم حاربوه ونصبوا له العداوة كقريش؛ وقسم تركوه وانتظروا ما يؤول إليه أمره كطوائف من العرب فمنهم من كان يحب ظهوره ومنهم من كان معه ظاهرا ومع عدوه باطنا وهم المنافقون. وكان أول من نقض العهد من اليهود بنو قينقاع، فحاربهم عليه الصلاة والسلام في شوال بعد وقعة بدر فحاصرهم أشد الحصار خمس عشرة ليلة وكان اللواء بيد حمزة بن عبد المطلب وكان أبيض فقذف الله في قلوبهم الرعب ونزلوا على حكم رسول الله ﷺ على أن له أموالهم وأن لهم النساء والذرية وأمر أن يجلوا من المدينة فلحقوا بأذرعات وأخذ من حصنهم سلاحا وآلة كثيرة.

غزوة السويق

في ذي الحجة يوم الأحد لخمس خلون منها على رأس اثنين وعشرين شهرا من الهجرة وسميت بذلك لأنه كان أكثر زاد المشركين

السويق وغنمه المسلمون... وكان سبب هذه الغزوة أن أبا سفيان حين رجع بالعير من بدر إلى مكة نذر لا يمس النساء والدهن حتى يغزو محمدا ﷺ فخرج في مائتي راكب من قريش ليبر يمينه، حتى أتوا العريض -ناحية من المدينة على ثلاثة أميال- فحرقوا نخلا وقتلوا رجلا من الأنصار، فرأى أبو سفيان أن قد انحلت يمينه، فانصرف بقومه راجعين. وخرج ﷺ في طلبهم، في مائتين من المهاجرين والأنصار، وجعل أبو سفيان وأصحابه يلقون جرب السويق -وهي عامة أزوادهم- يتخففون للهرب، فيأخذها المسلمون، ولم يلحقهم -عليه الصلاة والسلام-، فرجع إلى المدينة، وكانت غيبته خمسة أيام.

وفي هذه السنة تزوج علي بفاطمة (رضي الله عنهما) وخطبها قبله أبو بكر وعمر (رضي الله عنهما) فلم يجبهم ﷺ، ثم دعاهما وجماعة من المهاجرين والأنصار فلما اجتمعوا وكان علي غائبا خطب ﷺ خطبة بليغة ثم قال: إن الله عز وجل أمرني أن أزوج فاطمة من علي بن أبي طالب، فاشهدوا أني قد زوجته على أربعمائة مثقال فضة إن رضي بذلك علي؛ ثم دعا ﷺ بطبق من بسر وقال انتهبوا فانتهبوا ودخل علي فتبسم النبي ﷺ في وجهه ثم قال: إن الله عز وجل أمرني أن أزوجك فاطمة على أربعمائة مثقال فضة، أرضيت بذلك؟ فقال قد رضيت بذلك يا رسول الله. فقال عليه الصلاة والسلام: «جمع الله شملكما وأعز جدكما وبارك عليكما وأخرج منكما كثيرا طيبا»، قال أنس: فوالله لقد أخرج الله منهما الكثير الطيب.

سرية محمد بن مسلمة وأربعة معه إلى كعب بن الأشرف اليهودي

وكان شاعرا يهجو رسول الله ﷺ ويحرض عليه كفار قريش فتوجهوا إليه وقتلوه.

غزوة غطفان

بناحية نجد، على رأس خمسة وعشرين شهرا من الهجرة، وسببها أن جمعا من بني ثعلبة ومحارب تجمعوا يريدون الإغارة، جمعهم دعتور بن الحارث المحاربي وكان شجاعا فندب ﷺ المسلمين وخرج في أربعمائة وخمسين فارسا واستخلف على المدينة عثمان بن عفان، فلما سمعوا بمهبطه ﷺ هربوا في رؤوس الجبال فأصابوا رجلا منهم من بني ثعلبة يقال له حبان، فأدخل على رسول الله ﷺ فدعاه إلى الإسلام فأسلم وأصابه ﷺ مطر فنزع ثوبيه ونشرهما على شجرة ليجفا، واضطجع تحتها وهم ينظرونه فقالوا: لدعثور قد انفرد محمد، فعليك به فأقبل ومعه سيف حتى قام على رأسه عليه الصلاة والسلام فقال من يمنعك مني اليوم؟ فقال ﷺ: الله. فدفعه جبريل في صدره، فوقع السيف من يده فأخذه النبي ﷺ فقال: من يمنعك مني اليوم؟ فقال لا أحد، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله. ثم أتى قومه فدعاهم إلى الإسلام وأنزل الله (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ همّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم) الآية. ثم رجع ﷺ ولم يلق كيدا وكانت غيبته إحدى عشرة ليلة.

غزوة بحران

وتسمى غزوة بني سليم وسببها أنه بلغه عليه الصلاة والسلام أن بها جمعا كثيرا من بني سليم فخرج في ثلاثمائة من أصحابه،

فوجدهم قد تفرقوا في مياههم، فرجع ولم يلق كيدا واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم وكانت غيبته عشر ليال.

سرية زيد بن حارثة (رضي الله)عنه إلى القردة

اسم ماء من مياه نجد في مائة راكب يعترض عيرا لقريش فيها صفوان بن أمية ومعهم مال كثير فأصابوها وقدموا بها على رسول الله ﷺ.

غزوة أُحد

كانت في شوال سنة ثلاث بالاتفاق، يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت منه، اجتمعت قريش لحرب رسول الله ﷺ ليدركوا ثأرهم يوم بدر، وكتب العباس بن عبد المطلب كتابا يخبر رسول الله ﷺ بخبرهم وسار بهم أبو سفيان حتى نزلوا ببطن الوادي من قبل أحد مقابل المدينة؛ وكان رجال من المسلمين أسفوا على ما فاتهم من مشهد بدر وأري رسول الله ﷺ رؤيا أحب لأجلها المكث في المدينة، وقال لأصحابه امكثوا فإن دخل القوم الأزقة قاتلناهم ورموا من فوق البيوت. فقال أولئك القوم: يا رسول الله كنا تتمنى هذا اليوم، اخرج بنا إلى أعدائنا لا يرون أنا جبنًا عنهم، فصلى عليه الصلاة والسلام بالناس الجمعة ثم وعظهم وأمرهم بالجد والاجتهاد وأخبرهم أن لهم النصر ما صبروا وأمرهم بالتهيؤ لعدوهم، ففرح الناس بذلك ثم دخل عليه الصلاة والسلام بيته، ثم خرج وقد لبس لأمته وتقلد سيفه فندموا على ما صنعوا وقالوا: ما كان لنا أن نخالفك، فاصنع ما شئت. فقال: ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه. وعقد عليه الصلاة والسلام ثلاثة ألوية: لواء للمهاجرين

بيد علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) ولواء للخزرج بيد الحباب بن المنذر، ولواء للأوس بيد أسيد بن حضير (رضي الله عنهما) وفي المسلمين مائة دارع.

وخرج السعدان أمامه يعدوان، سعد بن معاذ وسعد بن عبادة (رضي الله عنهما) دارعين، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم وعلى الحرس تلك الليلة محمد بن مسلمة، وأدلج عليه الصلاة والسلام في السَحر وكان المسلمون ألف رجل والمشركون ثلاثة آلاف رجل فيهم سبعمائة دارع ومائتا فرس وثلاثة آلاف بعير وخمس عشرة امرأة. ونزل عليه الصلاة والسلام بأُحد، ورجع عنه عبد الله بن أبي في ثلاثمائة ممن تبعه من أهل النفاق. ويقال إن النبي ﷺ أمرهم بالانصراف لكفرهم ثم صف المسلمون بأصل أُحد، وصف المشركون بالسبخة وكان على ميمنة خيل المشركين خالد بن الوليد وعلى ميسرتها عكرمة بن أبي جهل، وجعل ﷺ على الرماة وهم خمسون رجلا عبد الله بن جبير وقال: لا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم واحموا ظهورنا فإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا، وإن رأيتمونا قد غنمنا فلا تشركونا.

ووقعت الحرب، وقُتل من المشركين جماعة وأنزل الله نصره على المسلمين، فحسوا الكفار بالسيوف حتى كشفوهم عن العسكر وكانت الهزيمة، فولى الكفار لا يلون على شيء ونساؤهم يدعون بالويل، وتبعهم المسلمون حتى أجهضوهم ووقعوا ينهبون العسكر ويأخذون ما فيه من الغنائم. فقال أصحاب عبد الله ابن جبير: أي قوم، الغنيمة ظهر أصحابكم فما تنتظرون؟ فقال عبد الله بن جبير:

أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ؟ قالوا والله لتأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة.

فلما أتوهم صرفت وجوههم، فأقبلوا منهزمين، ونظر خالد بن الوليد إلى خلاء الجبل وقلة أهله فكر بالخيل وتبعه عكرمة بن أبي جهل فحملوا على من بقي من النفر الرماة فقتلوهم وأميرهم عبد الله بن جبير، وفي البخاري أنهم لما اصطفوا للقتال خرج سباع، فقال: هل من مبارز؟ فخرج إليه حمزة بن عبد المطلب، فشد عليه فكان كأمس الذاهب وكان وحشي كامنا تحت صخرة، فلما دنا منه رماه بحربته حتى خرجت من بين وركيه، فكان آخر العهد به رضي الله عنه.

وكان مصعب بن عمير قاتل دون رسول الله ﷺ حتى قُتل، وكان الذي قتله ابن قمئة وهو يظنه رسول الله (ﷺ) فصاح إن محمدًا قد قُتل وقال قائل: أي عباد الله، أخراكم أي احترزوا من جهة أخراكم فعطف المسلمون يقتل بعضهم بعضا وهم لا يشعرون. وانهزمت طائفة منهم إلى جهة المدينة، وتفرق سائرهم ووقع فيهم القتل، وثبت رسول الله(ﷺ) حتى انكشفوا عنه، وثبت معه من أصحابه أربعة عشر رجلا سبعة من المهاجرين منهم أبو بكر الصديق وسبعة من الأنصار، وأصيب من المسلمين سبعون رجلا وكان (ﷺ) وأصحابه أصابوا من المشركين يوم بدر أربعين ومائة سبعين أسيرا وسبعين قتيلا، فقال أبو سفيان: أفي القوم محمد؟ ثلاث مرات، فنهاهم النبي (ﷺ) أن يجيبوه ثم قال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ ثلاث مرات، فنهاهم النبي (ﷺ) أن يجيبوه، ثم قال: أفي القوم ابن الخطاب؟ ثلاث مرات، ثم رجع إلى أصحابه فقال: أما هؤلاء فقد قتلوا. فما

ملك عمر نفسه فقال: كذِبت يا عدو الله، إن الذين عددت لأحياء كلهم وقد بقي لك ما يسوءك. قال: يوم بيوم بدر والحرب سجال.

ورُمِي رسول الله (ﷺ) يومئذ فكسرت رباعيته اليمنى السفلى وجرحت شفته السفلى وشج في جبهته، وجرحت وجنته وهشموا البيضة على رأسه، أي كسروا الخوذة ورموه بالحجارة حتى سقط لشقه في حفرة، فأخذ علي بيده واحتضنه طلحة ابن عبيد الله حتى استوى قائما، ونشبت حلقتان من المغفر بوجهه فانتزعهما أبو عبيدة بن الجراح، وعض عليهما حتى سقطت ثنيتاه من شدة غوصهما في وجهه الشريف، وامتص مالك ابن سنان والد أبي سعيد الخدري الدم من وجنته ثم ازدرده فقال (عليه الصلاة والسلام): من مسّ دمي دمه لم تصبه النار.

وعن أبي أمامة قال: رمى عبد الله ابن قمئة رسول الله (ﷺ) يوم أحد فشج وجهه وكسر رباعيته، فقال: خذها وأنا ابن قمئة، فقال رسول الله (ﷺ) وهو يمسح الدم عن وجهه: أقمأك الله. فسلط الله عليه تيس جبل فلم يزل ينطحه حتى قطّعه قطعةً قطعة.

وعن الإمام الأوزاعي قال: بلغنا أنه لما جُرح (ﷺ) يوم أُحد، أخذ شيئا فجعل ينشف دمه ويقول: لو وقع منه شيء على الأرض لنزل عليهم العذاب من السماء. ثم قال: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون. وعن الزهري قال: ضُرب وجه رسول الله (ﷺ) يومئذ بالسيف سبعين ضربة، وقاه الله شرها كلها، وأصيبت يومئذ عين قتادة بن النعمان حتى وقعت على وجنته، فأتى بها إلى رسول الله (ﷺ) فأخذها بيده وردها إلى موضعها، وقال: اللهم اكسه جمالا،

فكانت أحسن عينيه. وأحدهما رمى أبو رحم الغفاري كلثوم بن الحصين بسهم فوقع في نحره، فبصق عليه (ﷺ) فبرأ، وانقطع سيف عبد الله بن جحش فأعطاه (ﷺ) عرجونا، فعاد في يده سيفا، فقاتل به وكان ذلك السيف يسمى العرجون ولم يزل يتوارث حتى بيع من بغا التركي من أمراء المعتصم بالله في بغداد بمائتي دينار. واشتغل المشركون بقتلى المسلمين يمثلون بهم، يقطعون الأذان والأنوف والفروج ويبقرون البطون. وقُتل من الكفار ثلاثة وعشرون وقتل (ﷺ) بيده الشريفة أبي بن خلف، ولما أراد أبو سفيان الانصراف، أشرف على الجبل ثم صرخ بأعلى صوته: إن الحرب سجال، يوم بيوم بدر، أعل هُبل، فقال رسول الله (ﷺ) لعمر أجبه، فقال: الله أعلى وأجل. فقال أبو سفيان: أنعمت أي الأزلام، فقال عمر: لا سواء، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار. فقال: إن لنا العُزى ولا عزى لكم، فقال (عليه الصلاة والسلام) قولوا: الله مولانا، ولا مولى لكم. فلما انصرف نادى: موعدكم بدر العام القابل، فقال (عليه الصلاة والسلام) لرجل من أصحابه: قل نعم، هو بيننا وبينكم موعد، ونظر (ﷺ) إلى حمزة وقد بُقر بطنه عن كبده وجدع أنفه وأذناه فلم ينظر إلى شيء أوجع لقلبه منه فقال: رحمة الله عليك، فقد كنت فعولا للخير وصولا للرحم.

وممن مُثل به كما مثل بحمزة، ابن أخته عبد الله بن جحش ودفن معه في قبر واحد. ولما أشرف (عليه الصلاة والسلام) على قتلى المسلمين قال: أنا شهيد على هؤلاء، وما من جريح يجرح في الله إلا والله يبعثه يوم القيامة يدمى جرحه، اللون لون الدم والريح

ريح المسك. وعن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال رسول الله (ﷺ): لما أصيبت إخوانكم بأحد، جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر، ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم وحسن مقيلهم، قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا، لئلا يزهدوا في الجهاد وينكلوا عن الحرب. قال الله تعالى: أنا أبلغهم عنكم، فأنزل الله عز وجل على نبيه **﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾**[آل عمران: 169] الآيات.

غزوة حمراء الأسد

وهي على ثمانية أميال من المدينة، وكانت صبيحة يوم الأحد، خرج (ﷺ) بأصحابه لطلب عدوهم بالأمس، ونادى مؤذنه (ﷺ) أن لا يخرج معنا أحد إلا من حضر يومنا بالأمس، أي من شهد أحدا، وإنما خرج (عليه الصلاة والسلام) مرهبا للعدو وليبلغهم أنه خرج في طلبهم ليظنوا بهم قوة وأن الذي أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم وأقام (عليه الصلاة والسلام) بها ثلاثة أيام ثم رجع إلى المدينة وقد غاب خمسا وظفر ﷺ في مخرجه ذلك بمعاوية بن المغيرة بن أبي العاص فأمر بضرب عنقه صبرا.

سرية أبي سلمة عبد الله بن عبد الأسد إلى قطن جبل بناحية فيد:

ومعه مائة وخمسون رجلا من الأنصار والمهاجرين لطلب طليحة وسلمة ابني خويلد، فلم يجدهما ووجد إبلا وشاء، فأغار عليها ولم يلق كيدا، ثم سرية عبد الله بن أنيس وحده إلى سفيان ابن خالد الهذلي بعرنة لأنه بلغه (ﷺ) أنه جمع الجموع لحربه فقتله

عبد الله وأخذ رأسه حتى قدم المدينة. ثم (سرية عاصم بن ثابت) إلى الرجيع، اسم ماء لهذيل بين مكة وعسفان، قدم على رسول الله (ﷺ) بعد أحد، رهط من عضل والقارة فقالوا: يا رسول الله إن فينا إسلاما فابعث معنا نفرا من أصحابك يفقهوننا، فبعث معهم ستة من أصحابه وأمر عليهم عاصم بن ثابت فخرجوا مع القوم حتى أتوا على الرجيع، غدروا بهم فاستصرخوا عليهم هذيلا فنفروا بقريب من مائتي رجل، فلم يرع القوم وهم في رحالهم إلا الرجال بأيديهم السيوف وقد غشوهم فقاتلهم مرثد وخالد وعاصم حتى قتلوا ونزل إليهم على العهد والميثاق حبيب بن عدي وزيد بن الدينة وعبد الله بن طارق، ثم امتنع منهم عبد الله فقتلوه وانطلقوا بخبيب وزيد حتى باعوهما لأهل مكة فقتلوهما. وقال أبو سفيان لزيد: أنشدك بالله أتحب أن محمدا الآن عندنا مكانك نضرب عنقه وأنك في أهلك؟ فقال: والله ما أحب أن محمدا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه، وإني لجالس في أهلي. فقال أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمدا ثم قتلوه.

ثم (سرية المنذر بن عمرو) إلى بئر معونة، وهو موضع بين مكة وعسفان. بعثه (عليه الصلاة والسلام) مع سبعين من القراء ليدعوا أهل نجد إلى الإسلام، بناءً على طلب أبي براء ملاعب الأسنة وجواره. فساروا حتى نزلوا بئر معونة، فاستصرخ عليهم عامر بن الطفيل قبائل بني سليم: عصية، ورعل، وذكوان، فخرجوا حتى غشوا القوم، فأحاطوا بهم في رحالهم. فلما رأوهم، أخذوا سيوفهم وقاتلوهم حتى قتلوا جميعًا، إلا كعب بن زيد وعمرو بن أمية الضمري.

فلما بلغ النبي ﷺ خبرهم، قال: «هذا عمل أبي براء، قد كنت لهذا كارهًا متخوفًا». فبلغ ذلك أبا براء، فمات أسفًا. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «ما رأيت رسول الله ﷺ وجد -أي حزن- على أحد ما وجد على أهل بئر معونة، ودعا على من قتلهم ثلاثين صباحًا.»

غزوة بني النضير

قبيلة كبيرة من اليهود، وكان ذلك في ربيع الأول سنة أربع. خرج (ﷺ) في نفر من أصحابه، فيهم أبو بكر وعمر وعلي (رضي الله عنهم)، ليستعينهم في دية رجلين قتلهما عمرو بن أمية الضمري. فقالوا: «يا أبا القاسم، نعينك على ما أحببت.» ثم همّوا بإلقاء صخرة عليه ليقتلوه ﷺ، ونهاهم سلام بن مشكم، فلم ينتهوا. فقال لهم: «لا تفعلوا، والله ليخبرن بما هممتم، وإنه لنقض للعهد.»

فأتاه الخبر من السماء بما أراد القوم، فقام عليه الصلاة والسلام مظهرًا أنه يقضي حاجة، ورجع مسرعًا إلى المدينة، وتبعه أصحابه. فأخبرهم بما أرادت يهود من الغدر به، وأمر ﷺ بالتهيؤ لحربهم والمسير إليهم، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم. ثم سار بالناس حتى نزل بهم، فحاصرهم ست ليال، فتحصنوا منه في الحصون.

ثم قذف الله في قلوبهم الرعب، فسألوا رسول الله (ﷺ) أن يجليهم عن أرضهم ويكف عن دمائهم، فأجلاهم ﷺ وولّى إخراجهم محمد بن مسلمة. فكانوا يخربون بيوتهم بأيديهم، وحملوا النساء والصبيان، وتحملوا على ستمائة بعير، فلحقوا بخيبر. وقسّم ﷺ منازلهم بين المهاجرين، ليرفع بذلك مؤنتهم عن الأنصار.

غزوة ذات الرِقاع

سُمِّيت بذلك لأنهم رقّعوا فيها راياتهم. وكان من خبرها أنه (ﷺ) غزا نجدًا يريد بني محارب وبني ثعلبة، لأنه بلغه أنهم جمعوا الجموع، فخرج في أربعمائة من أصحابه، وقيل سبعمائة، واستعمل على المدينة عثمان بن عفان (رضي الله عنه). وخرج حتى نزل نخلًا، وهو موضع من نجد من أرض غطفان، فتقارب الناس ولم يكن بينهم حرب، وقد أخاف الناس بعضهم بعضًا، حتى صلى رسول الله ﷺ بالناس صلاة الخوف، ثم انصرفوا. وكانت غيبته ﷺ في هذه الغزوة خمس عشرة ليلة.

غزوة بدر الأخيرة (وهي الصغرى)

لما قدم رسول الله (ﷺ) المدينة من غزوة ذات الرِقاع، أقام بها من جمادى الأولى إلى آخر رجب، ثم خرج في شعبان إلى بدر لميعاد أبي سفيان. فخرج عليه الصلاة والسلام ومعه ألف وخمسمائة من أصحابه، وعشرة أفراس، واستخلف على المدينة عبد الله بن رواحة. فأقاموا على بدر ثمانية أيام ينتظرون أبا سفيان، وخرج أبو سفيان حتى نزل عسفان، ثم بدا له الرجوع فرجع بالناس.

غزوة دومة الجندل:

وهي مدينة بينها وبين دمشق خمس ليال، وتبعد عن المدينة خمس عشرة ليلة. وكانت في شهر ربيع الأول على رأس تسعة وأربعين شهرًا من الهجرة. وكان سببها أنه بلغه ﷺ أن بها جمعًا كثيرًا يظلمون من مرّ بهم، فخرج عليه الصلاة والسلام لخمس ليالٍ بقين من شهر ربيع في ألف من أصحابه، واستخلف على المدينة سباع بن

عرفطة. فلما دنا منهم، لم يجد إلا النعم والشاء، فهجم على ماشيتهم ورعاتهم، فأصاب من أصاب، وهرب من هرب في كل اتجاه. وجاء الخبر إلى أهل دومة، فتفرقوا. ونزل عليه الصلاة والسلام بساحتهم، فلم يلقَ أحدًا. فأقام بها أيامًا، وبث السرايا، ثم رجع ودخل المدينة في عشرين من ربيع الآخر.

غزوة المريسيع

وهو ماء لبني خزاعة، وتسمى أيضًا غزوة بني المصطلق. وكانت يوم الإثنين، لليلتين خلتا من شعبان سنة خمس.

وسببها أنه بلغه عليه الصلاة والسلام أن رئيسهم، الحارث بن أبي ضرار، سار في قومه ومن قدر عليه من العرب، فدعاهم إلى حرب رسول الله ﷺ، فأجابوه وتهيّؤوا للمسير معه. فبعث عليه الصلاة والسلام بريدة بن الخصيب الأسلمي ليعرف الخبر، فأتاهم ولقي الحارث وكلمه، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره.

فخرج عليه الصلاة والسلام مسرعًا، وبلغ الحارث ومن معه مسيره عليه الصلاة والسلام، فخافوا خوفًا شديدًا وتفرق عنهم من كان معهم من العرب.

وبلغ ﷺ المريسيع، وصفّ أصحابه، ودفع راية المهاجرين إلى أبي بكر، وراية الأنصار إلى سعد بن عبادة. فتراموا بالنبل ساعة، ثم أمر عليه الصلاة والسلام أصحابه فحملوا حملة رجل واحد، فقتلوا عشرة وأسروا سائرهم، وسبوا النساء والرجال والذرية، وغنموا النعم والشاء. ولم يُقتل من المسلمين إلا رجل واحد، وكانت غيبته ﷺ ثمانية وعشرين يومًا.

غزوة الخندق (وهي الأحزاب)

سميت بالخندق الذي حُفر حول المدينة بأمره ﷺ، والذي أشار به سلمان الفارسي رضي الله عنه، وعمل فيه ﷺ بنفسه ترغيبًا للمسلمين. أما تسميتها بالأحزاب فلاجتماع طوائف من المشركين على حرب المسلمين، وهم قريش وغطفان واليهود ومن معهم... وكان من حديث هذه الغزوة أن نفرًا من اليهود خرجوا حتى قدموا على قريش مكة، وقالوا: «إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله.» فاجتمعوا لذلك واتعدوا له، ثم خرج أولئك اليهود حتى جاؤوا غطفان، فدعوهم إلى حربه ﷺ وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه، وأن قريشًا بايعوهم على ذلك، فخرجت قريش وقائدها أبو سفيان بن حرب، وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصن في فزارة والحارث بن عوف في بني مرة، وكان عددهم عشرة آلاف، والمسلمون ثلاثة آلاف.

ولما سمع رسول الله ﷺ بالأحزاب وبما أجمعوا عليه من الأمر، ضرب الخندق على المسلمين. وقد وقع في حفر الخندق آيات من أعلام نبوته عليه الصلاة والسلام، منها: ما رواه أحمد والنسائي عن البراء، قال: «لما كان حين أمرنا رسول الله ﷺ بحفر الخندق، عرضت لنا صخرة لا تأخذ منها المعاول، فاشتكينا ذلك للنبي ﷺ، فجاء فأخذ المعول، فقال: ‹بسم الله›، ثم ضرب ضربة فنثر ثلثها، وقال: ‹الله أكبر، أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحمر الساعة›، ثم ضرب الثانية فقطع ثلثًا آخر، فقال: ‹الله أكبر، أعطيت مفاتيح فارس، وإني والله لأبصر قصر المدائن الأبيض الآن›، ثم ضرب الثالثة فقال: ‹بسم الله› فقطع بقية الحجر، فقال: ‹الله

أكبر، أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء في مكاني الساعة).» ومنها تكثير الطعام القليل، كما ثبت في الصحيح بحديث جابر، وسيأتي إن شاء الله تعالى مستوفى في مقصد المعجزات.

ولما فرغ ﷺ من الخندق، أقبلت قريش حتى نزلت بمجتمع السيول في عشرة آلاف من أحابيشهم ومن تبعهم من بني كنانة وأهل تهامة، ونزل عيينة بن حصن في غطفان ومن تبعهم من أهل نجد إلى جانب أحد. وخرج رسول الله ﷺ والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم إلى سَلْع، وكانوا ثلاثة آلاف رجل، فضرب هناك معسكره، والخندق بينه وبين القوم. وكان لواء المهاجرين بيد زيد بن حارثة، ولواء الأنصار بيد سعد بن عبادة.

وكان بنو قريظة على عهد وعقد مع رسول الله ﷺ، فلم يزل حيي بن أخطب برئيسهم كعب بن أسد حتى نقض هو وقومه العهد. فلما انتهى الخبر إلى رسول الله ﷺ، بعث بعض أصحابه إليهم فوجدهم على أخبث ما بلغه عنهم، فعظم عند ذلك البلاء واشتد الخوف، وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم حتى ظن المؤمنون كل ظن، وظهر النفاق في بعض المنافقين. وأنزل الله تعالى: ﴿**وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا**﴾[الأحزاب:12].

وأقام عليه الصلاة والسلام والمسلمون وعدوهم يحاصرهم، ولم يكن بينهم قتال إلا مراماة بالنبل. لكن كان عمرو بن ود العامري قد اقتحم هو ونفر معه خيولهم من ناحية ضيقة من الخندق، فبارزه علي فقتله. وبرز نوفل بن عبد الله بن المغيرة، فقتله الزبير، ورجعت

بقية الخيول منهزمة. ورُمي سعد بن معاذ بسهم فقطع منه الأكحل وهو عرق الحياة، فلم يزل الدم ينزف.

وفي البخاري، دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب، فقال: «اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم.» وفي «ينبوع الحياة» لابن ظفر، قيل إنه ﷺ دعا فقال: «يا صريخ المكروبين، يا مجيب المضطرين، اكشف همي وغمي وكربي، فإنك ترى ما نزل بي وبأصحابي.» فأتاه جبريل عليه السلام فبشّره بأن الله سبحانه يرسل عليهم ريحًا وجنودًا، فأعلم أصحابه ورفع يديه قائلا: «شُكرًا شكرًا.» وهبّت ريح الصبا ليلًا، فقلعت الأوتاد وألقت الأبنية، وكفات القدور، وسفت عليهم التراب، ورمتهم بالحصباء، وسمعوا في أرجاء معسكرهم التكبير وصوت السلاح، فارتحلوا هاربين في ليلتهم وتركوا ما استثقلوه من متاعهم. قال تعالى: ﴿**فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا**﴾[الأحزاب:9].

وانصرف ﷺ من غزوة الخندق يوم الأربعاء لسبع ليال بقين من ذي القعدة، وكان قد أقام بالخندق خمسة عشر يومًا. وقال عليه الصلاة والسلام: «لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا.» وفي ذلك علم من أعلام النبوة، فإنه ﷺ اعتمر في السنة فصدّته قريش عن البيت ووقعت الهدنة بينهم إلى أن نقضوها، فكان ذلك سبب فتح مكة، فوقع الأمر كما قال عليه الصلاة والسلام.

غزوة بني قريظة

لما رجع رسول الله ﷺ ووضع السلاح واغتسل، أتاه جبريل فقال: «قد وضعت السلاح، والله ما وضعناه، اخرج إليهم» وأشار

إلى بني قريظة، «فإني عامد إليهم فمزلزل بهم.» فأمر رسول الله ﷺ مؤذنًا فأذَّن في الناس: «من كان سامعًا مطيعًا فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة.» وبعث مناديًا ينادي: «يا خيل الله اركبي!» وبعث عليًّا رضي الله عنه على المقدمة، ثم سار في المسلمين وهم ثلاثة آلاف، والخيل ستة وثلاثون فرسًا، وحاصرهم عليه الصلاة والسلام خمسًا وعشرين ليلة حتى أجهدهم الحصار، وقذف الله في قلوبهم الرعب.

فعرض عليهم رئيسهم كعب بن أسد أن يؤمنوا، فقال لهم: «يا معشر يهود، قد نزل بكم من الأمر ما ترون، وإني أعرض عليكم خِلالًا ثلاثًا، فخذوا أيها شئتم.» قالوا: «وما هي؟» قال: «نبايع هذا الرجل ونصدقه، فوالله إنه لقد تبين أنه لنبي مرسل، وأنه الذي تجدونه في كتابكم، فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم.» فأبوا. فأشار عليهم بقتل أولادهم ونسائهم والخروج إلى قتال رسول الله ﷺ، فأبوا. فأشار عليهم بالهجوم ليلة السبت على رسول الله ﷺ وأصحابه، فأبوا.

ثم لما اشتد الحصار بهم، أذعنوا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ سيد الأنصار، فحكم فيهم بأن تُقتل الرجال، وتُقسم الأموال، وتُسبى الذراري والنساء. فقال عليه الصلاة والسلام: «لقد حكمت اليوم فيهم بحكم الله الذي حكم به من فوق سبع سموات.»

وانصرف ﷺ يوم الخميس لسبع ليالٍ خلون من ذي الحجة، وأمر عليه الصلاة والسلام ببني قريظة فأُدخلوا المدينة، وحُفر لهم أخدود في السوق، وجلس ﷺ ومعه أصحابه، وأُخرجوا إليه فضُربت أعناقهم، وكانوا ما بين ستمائة إلى سبعمائة. واصطفى ﷺ

لنفسه الكريمة ريحانة، فتزوجها، وأمر بالغنائم فجمعت، وأُخرج الخمس، وقُسّم الباقي بين المسلمين. وانفجر جرح سعد بن معاذ فمات شهيدًا، وحضر جنازته سبعون ألف ملك، واهتز لموته عرش الرحمن؛ واهتزازه تحرُّكه فرحًا بقدوم روح سعد ﵁. وعن أبي سعيد الخدري قال: «كنت ممن حفر لسعد قبره، فكان يفوح علينا المسك كلما حفرنا.» ثم (سرية محمد بن مسلمة) إلى القرطاء بطن من بني بكر بن كلاب وهم ينزلون بالبكرات وبينها وبين المدينة سبع ليال بعثه ﷺ في ثلاثين راكبا فلما أغار عليهم قتل نفرا منهم وهرب سائرهم واستاق نعما وشاء وقدم المدينة ومعه ثمامة بن أنال الحنفي أسيرا فربط بأمره عليه الصلاة والسلام بسارية من سواري المسجد ثم أطلق بأمره ﷺ فاغتسل وأسلم وقال يا محمد والله ما كان على الأرض وجه أبغض إلي من وجهك فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلي والله ما كان من دين أبغض إلي من دينك فأصبح دينك أحب الأديان كلها إلي والله ما كان من بلد أبغض إلي من بلدك فأصبح بلدك أحب البلاد إلي وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة فماذا ترى فبشره النبي ﷺ وأمره أن يعتمر فلما قدم مكة قال له قائل صبوت قال لا ولكن أسلمت مع رسول الله ﷺ ولا والله تأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها النبي ﷺ.

غزوة بني لحيان

في ربيع الأول سنة ست من الهجرة، قيل إن رسول الله ﷺ وجد على عاصم بن ثابت وأصحابه وجدًا شديدًا، فأظهر أنه يريد الشام، وعسكر في مائتي رجل ومعهم عشرون فرسًا، واستخلف

على المدينة عبد الله بن أم مكتوم. ثم أسرع السير حتى انتهى إلى حيث كان مصاب أصحابه أهل الرجيع، فترحم عليهم ودعا لهم. فسمعت به بنو لحيان، فهربوا إلى رؤوس الجبال فلم يقدر منهم على أحد. فأقام يومًا أو يومين يبعث السرايا في كل ناحية، ثم خرج حتى أتى عسفان، فبعث أبا بكر في عشرة فوارس لتسمع بهم قريش فيفزعون، فأتوا كراع الغميم ثم رجعوا ولم يلقوا أحدًا. وانصرف ﷺ إلى المدينة ولم يلقَ كيدًا، وهو يقول: «آيبون، تائبون، عابدون، لربنا حامدون.» وغاب عن المدينة أربع عشرة ليلة.

غزوة الغابة

وسببها أنه كان لرسول الله ﷺ عشرون لقحة، وهي ذوات اللبن القريبة العهد بالولادة، ترعى بالغابة. وكان أبو ذر فيها، فأغار عليهم عيينة بن حصن الفزاري ليلة الأربعاء في أربعين فارسًا، فاستاقوها وقتلوا ابن أبي ذر. فلما أتى النبي ﷺ الخبر، نادى: «يا خيل الله اركبي!» وركب ﷺ في خمسمائة رجل، وعقد لواء للمقداد بن عمرو في رمحه، وقال له: «امضِ حتى تلحقك الخيول، وأنا على أثرك.» فأدركوا أخريات العدو، فقتل أبو قتادة فارسًا، وعكاشة فارسًا آخر، وأدرك سلمة بن الأكوع القوم وهو على رجليه. ولحق رسول الله ﷺ عشاء، واستنقذوا عشر لقاح، وأفلت القوم بما بقي، وهي عشر، ورجع وقد غاب خمس ليالٍ.

ثم سرية عكاشة بن محصن الأسدي إلى غمر مرزوق، وهو ماء لبني أسد، في أربعين رجلًا. فخرج سريعًا، فنذر به القوم فهربوا، فاستاق مئتي بعير، وقدم على رسول الله ﷺ ولم يلقَ كيدًا.

ثم سرية محمد بن مسلمة إلى بني ثعلبة، ومعه عشرة رجال، فورد عليهم ليلًا، فأحدق بهم القوم وهم مائة رجل، فتراموا ساعة من الليل. ثم حملت الأعراب عليهم بالرماح، فقتلوهم إلا محمد بن مسلمة، فوقع جريحًا وحُمل إلى المدينة. فبعث رسول الله ﷺ أبا عبيدة بن الجراح في أربعين رجلًا إلى مصارعهم، فهربوا، فاستاقوا نعما من نعمهم وشيئًا من متاعهم، وقدم به المدينة، فخمسه رسول الله ﷺ وقسم ما بقي عليهم.

ثم سرية زيد بن حارثة إلى بني سليم، فأصابوا امرأة من مزينة يقال لها حليمة، فدلتهم على محلة من محال بني سليم، فأصابوا نعما وشاء وأسرى، وكان فيهم زوج حليمة المزنية. فلما قفل زيد بما أصاب، وهب رسول الله ﷺ للمزنية نفسها وزوجها.

ثم سرية زيد أيضًا في سبعين راكبًا، ليعترضوا عيرًا لقريش قد أقبلت من الشام، فأخذوها وما فيها. ثم سرية زيد أيضًا إلى بني ثعلبة في خمسة عشر رجلًا، فأصابوا نعما وشاء، وهربت الأعراب. ثم سرية زيد أيضًا في خمسمائة رجل إلى جذام، لأنهم قطعوا الطريق على دحية الكلبي، فأغاروا عليهم من الصبح، فقتلوا فيهم وأوجعوا، وأخذوا من النعم ألف شاة ومائة من النساء والصبيان. فجاء زيد بن رفاعة الجذامي إلى رسول الله ﷺ في نفر من قومه وأسلم، فبعث ﷺ عليًّا إلى زيد بن حارثة يأمره أن يخلي بينهم وبين حرمهم وأولادهم، ففعل.

ثم سَرِيَّةُ زيدٍ أيضًا إلى وادي القُرَى، فقُتِلَ من المسلمين قتلى، وحُمِلَ زيدٌ من المعركةِ جريحًا.

ثم سَرِيَّةُ عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل في شعبان سنة ستٍّ. قالوا: دعا رسولُ الله ﷺ عبدَ الرحمن بن عوف، فأقعده بين يديه وعمَّمه بيده، وقال: «اغزُ باسم الله وفي سبيل الله، فقاتل من كفر بالله، ولا تغدر، ولا تقتل وليدًا». وبعثه إلى كلب بدومة الجندل، وقال: «إن استجابوا لك فتزوج ابنةَ ملكهم». فسار عبد الرحمن حتى قدم دومة الجندل، فمكث ثلاثةَ أيام يدعوهم إلى الإسلام، فأسلم الأصبع بن عمرو الكلبي وكان نصرانيًّا وكان رئيسهم، وأسلم معه ناسٌ كثير من قومه، وأقام من أقام على إعطاء الجزية، وتزوج عبد الرحمن تماضر بنت الأصبع، وقدم بها المدينة فولدت له أبا سلمة.

ثم سَرِيَّةُ علي بن أبي طالب ومعه مئة رجل إلى بني سعد بن بكر، لما بلغه ﷺ أنهم يريدون أن يمدّوا يهود خيبر، فأغاروا عليهم، فأخذوا خمسمئة بعير وألفي شاة، وهربت بنو سعد.

ثم سَرِيَّةُ زيد بن حارثة إلى أم قرفة الفزارية. وسببها أن زيدًا خرج في تجارة إلى الشام، فلقيه ناس من فزارة فضربوه وضربوا أصحابه وأخذوا ما كان معهم. وقدم على رسول الله ﷺ فأخبره، فبعثه عليه الصلاة والسلام، فصبّحهم هو وأصحابه، فكبّروا وأحاطوا بالحاضر، وأخذوا أم قرفة، وكانت ملكةً رئيسة، وأخذوا ابنتها جاريةً بنت مالك بن حذيفة بن بدر.

ثم سَرِيَّةُ عبد الله بن عتيك إلى أبي رافع اليهودي، وكان يؤذي رسول الله ﷺ، فخرج إليه ومعه أربعة، فوضعهم خارج الحصن ودخل هو واحتال عليه وقتله. وفي انصرافه كُسِرَت ساقُه، فلما رجع

إلى النبي ﷺ قال: فحدثته، فقال: «ابسط رجلك»، فمسحها فكأنما لم أشتكِها قط، وعادت أحسن ما كانت.

ثم سَرِيَّةُ عبد الله بن رواحة إلى أسير بن رزام اليهودي بخيبر، الذي أمرته اليهود عليها بعد قتل أبي رافع، فسار في غطفان وغيرهم يجمعهم لحربه ﷺ، وبلغه ذلك، فوجه إليه عبد الله بن رواحة في ثلاثين رجلًا، فضربه عبد الله بن أنيس بالسيف، ومالوا على أصحابه وهم ثلاثون رجلًا من اليهود فقتلوهم غير رجل، ولم يُصَبْ من المسلمين أحد.

ثم سَرِيَّةُ كرز بن جابر الفهري إلى العُرَنِيِّين. في البخاري عن أنس أن ناسًا من عُكَل وعُرَيْنَة قدموا على رسول الله ﷺ وتكلموا بالإسلام، فقالوا: «يا نبي الله، إنا كنا أهل ضَرْع ولم نكن أهل ريف». واستوخموا المدينة، فأمر لهم رسول الله ﷺ بذَوْدٍ وراعٍ، وأمرهم أن يخرجوا فيه فيشربوا من ألبانها وأبوالها. فانطلقوا، حتى إذا كانوا ناحيةَ الحَرَّة كفروا بعد إسلامهم، وقتلوا راعي النبي ﷺ، واستاقوا الذود. فبلغ ذلك النبي ﷺ، فبعث الطلب في آثارهم، فأمر بهم فسُمِلَت أعينُهم، وقُطِعَت أيديهم، وتُرِكوا في ناحية الحَرَّة حتى ماتوا على حالهم. قال أنس: إنما سَمَلَ رسول الله ﷺ أعينهم لأنهم سمّلوا أعين الرعاء، فيكون ما فعل بهم قصاصًا. وعن سلمة بن الأكوع أن النبي ﷺ بعث في آثارهم خيلًا من المسلمين، أميرهم كرز بن جابر الفهري.

ثم سَرِيَّةُ عمرو بن أمية الضمري إلى أبي سفيان بن حرب بمكة، لأنه أرسل للنبي ﷺ من يقتله غدرًا. فأقبل الرجل ومعه خنجر ليغتاله،

فلما رآه النبي ﷺ قال: «إن هذا ليريد غدرًا». فجذبه أسيد بن حضير بداخلة إزاره، فإذا بالخنجر، فقال ﷺ: «اصدقني ما أنت»، قال: «وأنا آمن؟» قال: «نعم»، فأخبره بخبره فخلى عنه النبي ﷺ، وبعث عمرو بن أمية الضمري ومعه سلمة بن أسلم إلى أبي سفيان، وقال: «إن أصبتما منه غِرَّةً فاقتلاه». ومضى عمرو يطوف بالبيت ليلًا، فرآه معاوية بن أبي سفيان، فأخبر قريشًا بمكانه، فخافوه وطلبوه، وكان فاتكًا في الجاهلية، فحشد له أهل مكة وتجمعوا، فهرب عمرو وسلِم. فلقي عمرو عبيد الله بن مالك التيمي فقتله وقتل آخر، ولقي رسولين لقريش بعثتهما يتجسسان الخبر، فقتل أحدهما وأسر الآخر. فقدم به المدينة، فجعل عمرو يخبر رسول الله ﷺ خبره، وهو عليه الصلاة والسلام يضحك.

أمر الحديبية، وهي قرية على تسعة أميال من مكة، خرج ﷺ يوم الإثنين، هلال ذي القعدة، سنة ست من الهجرة، للعمرة، وخرج معه زوجته أم سلمة في ألف وأربعمائة بلا سلاح، إلا سلاح المسافر، السيوف في القرب، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم. فلما كان بذي الحُليفة قلد الهدي وأشعره وأحرم منها بعمرة، وبعث عينًا له من خزاعة وسار حتى كان بغدير الأشطاط، أتاه عينه فقال: «إن قريشًا جمعوا لك جموعًا وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت ومانعوك». فقال: «أشيروا عليَّ أيها الناس، أترون أن أميل إلى عيالهم وذراري هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت؟» فقال أبو بكر: «يا رسول الله، خرجت عامدًا لهذا البيت لا تريد قتل أحد ولا حرب أحد، فتوجه له، فمن صدنا عنه قاتلناه». قال: «امضوا على اسم الله».

قال أبو هريرة رضي الله عنه: «ما رأيت أحدًا قط كان أكثر مشاورة لأصحابه من رسول الله ﷺ». وسار النبي ﷺ حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها بركت راحلته، فقال الناس: «حل، حل»، فألّحت (أي تمادت على عدم القيام)، فقالوا: «خلأت القصواء» (أي حرنت)، فقال النبي ﷺ: «ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل». يعني حبسها الله عن دخول مكة كما حبس الفيل عن دخولها، لأن الصحابة لو دخلوها وصدتهم قريش لوقع بينهم القتال وسفك الدماء، ولكن سبق في علم الله أنه سيدخل في الإسلام منهم خلق كثير، ويستخرج من أصلابهم ناس يسلمون ويجاهدون. ثم قال ﷺ: «والذي نفسي بيده، لا يسألوني خطة يعلمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها». ثم زجرها فوثبت، فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد، أي قليل من الماء، فتزحوه، وشكي إلى رسول الله ﷺ العطش، فانتزع سهمًا من كنانته، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه. قال راوي الحديث: «فوالله ما زال يجيش بالري حتى صدروا عنه».

فبينما هم كذلك، إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه، وكانوا عيبة نصح لرسول الله ﷺ، فقال: «إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي نزلوا أعداد مياه الحديبية، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت». فقال رسول الله ﷺ: «إنا لم نجيء لقتال أحد، ولكنا جئنا معتمرين، وإن قريشًا قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم، فإن شاؤوا ما ددتهم مدة، ويخلوا بيني وبين الناس، فإن أظهر فإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جمّوا» (يعني استراحوا)، «وإن هم أبوا، فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري

هذا حتى تنفرد سالفتي، ولينفذن الله أمره». فقال بديل: «سأبلغهم ما تقول»، فانطلق حتى أتى قريشًا فحدثهم بما قال النبي ﷺ.

فقال عروة بن مسعود: «قد عرض عليكم خطة رشد، اقبلوها ودعوني آته». فأتاه فجعل يكلم النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ نحوًا من قوله لبديل، وجعل عروة يرمق أصحاب النبي ﷺ بعينه فقال: «والله ما تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم أمرًا ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون النظر إليه تعظيمًا له».

فرجع عروة إلى أصحابه، فقال: «أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على كسرى وقيصر والنجاشي، والله إني ما رأيت ملكًا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمدٍ محمدًا، والله ما تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يجدون النظر إليه تعظيمًا له، وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها».

ثم دعت قريش سهيل بن عمرو فقالوا: «اذهب إلى هذا الرجل فصالحه». فقال ﷺ: «قد أرادت قريش الصلح حين بعثت هذا». فلما انتهى إلى النبي ﷺ جرى بينهما القول حتى وقع بينهما الصلح على أن توضع الحرب بينهم عشر سنين، وأن يأمن بعضهم بعضًا، وأن يرجع عنهم عامهم هذا، وعلى أنه لا يأتيه منهم رجل وإن كان على دينه إلا رده إليهم، وكتب في ذلك كتابًا.

فإن قلت ما الحكمة في كونه عليه الصلاة والسلام وافق سهيلًا على أنه لا يأتيه رجل منهم وإن كان على دين الإسلام إلا ويرده إلى المشركين، فالجواب أن المصلحة المرتبة على إتمام هذا الصلح ما ظهر من ثمراته الباهرة وفوائده المتظاهرة، التي كانت عاقبتها فتح مكة وإسلام أهلها كلهم، ودخول الناس في دين الله أفواجًا. وذلك أنهم قبل الصلح لم يكونوا يختلطون بالمسلمين ولا تظهر عندهم أمور النبي ﷺ كما هي، ولا يخلون بمن يعلمهم بها مفصلة. فلما حصل صلح الحديبية اختلطوا بالمسلمين، وجاؤوا إلى المدينة، وذهب المسلمون إلى مكة، وخلوا بأهلهم وأصدقائهم وغيرهم، وسمعوا منهم أحوال النبي ﷺ ومعجزاته الظاهرة وأعلام نبوته المتظاهرة، وحسن سيرته وجميل طريقته، وعاينوا بأنفسهم كثيرًا من ذلك، فمالت نفوسهم إلى الإيمان، حتى بادر خلق منهم إلى الإسلام قبل فتح مكة، فأسلموا بين صلح الحديبية وفتح مكة، وازداد الآخرون ميلًا إلى الإسلام. فلما كان يوم الفتح أسلموا كلهم لما كان قد تمهد لهم من الميل. وكانت العرب من غير قريش تنتظرون بإسلامهم إسلام قريش، فلما أسلمت أسلموا. قال الله تعالى: ﴿**إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا**﴾[النصر:1-2]، فالله ورسوله أعلم.

وبعث ﷺ بالكتاب إليهم مع عثمان بن عفان رضي الله عنه، وأمسك سهيل بن عمرو عنده، فأمسك المشركون عثمان، فغضب المسلمون، وبلغ النبي ﷺ أن عثمان قد قُتل، فدعا الناس إلى بيعة الرضوان تحت الشجرة على الموت، وقيل على أن لا يفروا، ووضع ﷺ

شماله في يمينه وقال: «هذه عن عثمان». ولما سمع بهذه البيعة المشركون خافوا، وبعثوا عثمان وجماعة من المسلمين. وفي هذه البيعة نزل قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ**﴾[الفتح:10]، وقوله تعالى: ﴿**لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [الفتح:18].

وحلق الناس مع النبي ﷺ ونحروا هداياهم بالحديبية، وأقام عليه الصلاة والسلام بالحديبية بضعة عشر يومًا، وقيل عشرين، ثم قفل وفي نفوس بعضهم شيء، فأنزل الله تعالى سورة الفتح يسليهم بها ويذكرهم نعمه، فقال تعالى: ﴿**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا**﴾[الفتح:1]. قال ابن عباس وأنس والبراء بن عازب: الفتح هنا فتح الحديبية ووقوع الصلح. ثم رجع رسول الله ﷺ.

غزوة خيبر

وهي مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع على ثمانية برد من المدينة إلى جهة الشام. قال ابن إسحاق: خرج ﷺ في بقية المحرم سنة سبع، فأقام يحاصرها بضع عشرة ليلة حتى فتحها، وكان معه عليه الصلاة والسلام ألف وأربعمائة راجل ومائة فارس، ومعه أم سلمة زوجته. وفي البخاري من حديث أنس، أنه ﷺ أتى خيبر ليلًا، وكان إذا أتى قومًا بليل لم يغزهم حتى يصبح. فلما أصبح، خرجت اليهود بمساحيهم ومكاتلهم، فلما رأوه ﷺ قالوا: «محمد والله محمد والخميس» أي الجيش. فقال النبي ﷺ: «خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين». وفي رواية: فرفع يديه وقال: «الله أكبر خربت خيبر». وفرق عليه الصلاة والسلام الرايات.

وفي البخاري، كان علي بن أبي طالب ﵁ قد تخلف عن النبي ﷺ، وكان به رمد. فلما باتوا الليلة التي فتحت، قال: «لأعطين الراية غدًا رجلًا يحبه الله ورسوله، يفتح الله على يديه».

فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ، كلهم يرجون أن يعطاها. فقال: «أين علي بن أبي طالب؟» فقالوا: «هو يا رسول الله يشتكي عينيه». قال: «فأرسلوا إليه». فأُتي به، فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ودعا له، فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية. فقال علي: «يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟» فقال: «انفذ على رسلك أي على هيئتك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من أن تكون لك حمر النعم».

وفي رواية أن عليًا قلع باب خيبر، ولم يحركه سبعون رجلًا إلا بعد الجهد. وقاتل ﷺ أهل خيبر وقاتلوه أشد القتال، واستُشهد من المسلمين خمسة عشر، وقُتل من اليهود ثلاثة وتسعون. وفتحها الله تعالى عليه حصْنًا حصنًا، وأخذ كنز آل أبي الحقيق الذي كان في مسك الحمار أي جلده، وكانوا قد غيبوه في خربة، فدلّ الله تعالى رسوله عليه فاستخرجه.

وتزوج عليه الصلاة والسلام صفية بنت حيي بن أخطب، وكان قد قتل زوجها كنانة بن الربيع وكانت عروسًا، فذُكر له جمالها، فاصطفاها لنفسه الكريمة بعد أن أعتقها، فصارت من أمهات المؤمنين، وكانت قد رأت أن القمر سقط في حجرها فتؤول بذلك.

وعن يزيد بن أبي عبيد قال: رأيت أثر ضربة بساق سلمة، فقلت: «ما هذه الضربة؟» قال: «هذه ضربة أصابتها يوم خيبر، فأتيت النبي ﷺ فنفث فيها ثلاث نفثات، فما اشتكيتها حتى الساعة».

وفي هذه الغزوة، سمت اليهودية زينب بنت الحارث شاة مصلية أي مشوية، ثم أهدتها إلى رسول الله ﷺ، فأكل منها وأكل رهط من أصحابه معه. فقال رسول الله ﷺ: «ارفعوا أيديكم»، وأرسل إلى اليهودية، فقال: «سممت هذه الشاة؟» قالت: «نعم، قلت إن كان نبيًّا فلن يضره، وإن لم يكن نبي استرحنا منه». فعفا عنها ﷺ ولم يعاقبها. وتوفي أصحابه الذين أكلوا من الشاة، وفيهم بشر بن البراء.

فدفع ﷺ اليهودية إلى أوليائه فقتلوها به قصاصًا، واحتجم ﷺ على كاهله.

غزوة وادي القرى

في جمادى الآخرة، بعدما أقام بها ﷺ أربعًا يحاصرهم، وصالحه أهل تيماء على الجزية.

ثم سرية عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى تربة في شعبان سنة سبع، وكان معه ثلاثون رجلًا، وخرج معهم دليل من بني هلال، فكان يسير الليل ويكمن النهار. فبلغ الخبر إلى هوازن فهربوا، وجاء عمر بن الخطاب إلى محالهم فلم يلقَ منهم أحدًا، فانصرف راجعًا إلى المدينة.

ثم سرية أبي بكر الصديق رضي الله عنه إلى فزار ناحية ضرية في شعبان سنة سبع، فسبى منهم جماعة وقتل آخرين.

ثم سرية بشير بن سعد الأنصاري إلى بني مرة بفدك في شعبان سنة سبع، وكان معه ثلاثون رجلًا، فقاتلوا بشجاعة حتى أصيب بشير

بجروح شديدة، وقدم ابن زيد الحارثي بخبرهم إلى رسول الله ﷺ، ثم قدم بعده بشير بن سعد.

ثم سرية غالب بن عبد الله الليثي إلى الميفعة بناحية نجد، على مسافة ثمانية برد من المدينة، وذلك في شهر رمضان سنة سبع من الهجرة، وكان معه مائتان وثلاثون راجلًا، فهجموا على العدو في وسط محالهم، فقتلوا من وجدوه، واستاقوا نعمًا وشاء إلى المدينة. وقد ذُكر أن في هذه السرية قتل أسامة بن زيد نهيك بن مرداس بعدما قال «لا إله إلا الله»، فعاتبه النبي ﷺ قائلًا: «ألا شققت عن قلبه فتعلم أصادق هو أم كاذب؟» فقال أسامة: «لا أقاتل أحدًا يشهد أن لا إله إلا الله».

وفي البخاري عن أبي ظبيان قال: سمعت أسامة بن زيد يقول: بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحرقة، فهجمنا على القوم فهزمناهم، ولحقتُ أنا ورجلٌ من الأنصار رجلًا منهم، فلما اقتربنا منه قال: «لا إله إلا الله»، فكفّ الأنصاري عنه، أما أنا فطعنته برمحي حتى قتلته. فلما عدنا، بلغ ذلك النبي ﷺ، فقال: «يا أسامة، أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله؟» قلت: «كان متعوذًا». فما زال يكررها حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم.

ثم سرية بشير بن سعد الأنصاري إلى يمن وجبار، وهي أرض لعطفان، وذلك في شوال سنة سبع من الهجرة. بعث ﷺ معه ثلاثمائة رجل لمهاجمة جماعة تجمعت للإغارة على المدينة. فساروا الليل وكمنوا النهار، فلما علم الأعداء بمسير بشير هربوا، وأصاب المسلمون لهم نعمًا كثيرة فغنموها، وأسروا رجلين، وقدموا بهما إلى المدينة إلى رسول الله ﷺ فأسلما.

عمرة القضاء

قال الحاكم في «الإكليل»: «تواترت الأخبار أنه ﷺ لما هل ذو القعدة -يعني سنة سبع- أمر أصحابه أن يعتمروا قضاءً لعمرتهم التي صدهم المشركون عنها بالحديبية، وأن لا يتخلف أحد ممن شهد الحديبية. فلم يتخلف منهم إلا رجال استشهدوا بخيبر، ورجال ماتوا. وخرج معه ﷺ من المسلمين ألفان، واستخلف على المدينة أبا رهم الغفاري. وساق عليه الصلاة والسلام ستين بدنة، وحمل السلاح والبيض والدروع والرماح، وقاد مائة فرس.

فلما انتهى إلى ذي الحليفة، قدم الخيل أمامه عليها محمد بن مسلمة، وقدم السلاح واستعمل عليه بشير بن سعد، وأحرم ﷺ ولبى، والمسلمون يلبون معه. ومضى محمد بن مسلمة في الخيل إلى مر الظهران، فوجد نفرًا من قريش فسألوه. فقال: «هذا رسول الله ﷺ يصبح هذا المنزل غدًا إن شاء الله». فأتوا قريشًا فأخبروهم ففزعوا، ونزل رسول الله ﷺ بمر الظهران، وقدم السلاح إلى بطن يأجج، موضع بقرب مكة، وخلف عليه أوس بن خولي الأنصاري في مائتي رجل. وخرجت قريش من مكة إلى رؤوس الجبال.

وقدم رسول الله ﷺ الهدي أمامه فحبس ببطن طوى، وخرج رسول الله ﷺ على راحلته القصواء، والمسلمون متوشحون السيوف محدقون برسول الله ﷺ يلبون. فدخل من الثنية التي تطلعه على الحجون، وابن رواحة آخذ بزمام راحلته وهو يقول:

خلوا بني الكفار عن سبيله　　اليوم نضربكم على تنزيله

ضربًا يزيل الهام عن مقيله　　ويذهل الخليل عن خليله

فقال له عمر: «يا ابن رواحة، بين يدي رسول الله ﷺ تقول شعرًا؟» فقال ﷺ: «خلّ عنه يا عمر، فلَهي أسرع فيهم من نضح النبل». ولم يزل رسول الله ﷺ يلبي حتى استلم الركن بمحجنه، مضطبعًا بثوبه، وطاف على راحلته، والمسلمون يطوفون معه وقد اضطبعوا بثيابهم.

والاضطباع أن يدخل الرداء تحت إبطه الأيمن، ويرد طرفه على يساره، ويُبدي منكبه الأيمن ويغطي الأيسر. وفي البخاري قال المشركون: «إنه قدم عليكم وقد وهنتهم حمى يثرب»، فأمرهم النبي ﷺ أن يرملوا الأشواط الثلاثة، وأن يمشوا ما بين الركنين. وفي رواية قال: «ارملوا ليرى المشركون قوتهم». ثم طاف رسول الله ﷺ بين الصفا والمروة على راحلته، فلما كان الطواف السابع عند فراغه، وقد وقف الهدي عند المروة، قال: «هذا المنحر، وكل فجاج مكة منحر». فنحر عند المروة وحلق هناك، وكذلك فعل المسلمون.

وأمر ﷺ ناسًا منهم أن يذهبوا إلى أصحابه ببطن يأجج فيقيموا على السلاح، ويأتي الآخرون فيقضوا نسكهم، ففعلوا. وأقام رسول الله ﷺ بمكة ثلاثًا، فلما مضى الأجل أتى المشركون عليًا رضي الله عنه فقالوا: «قل لصاحبك اخرج عنا فقد مضى الأجل». فخرج النبي ﷺ.

ثم سرية ابن أبي العوجاء السلمي إلى بني سليم في ذي الحجة سنة سبع، في خمسين رجلًا، فأحدق بهم الكفار من كل ناحية، وقاتل القوم قتالًا شديدًا حتى قتل عامتهم، وأصيب ابن أبي العوجاء جريحًا مع القتلى، ثم تحامل حتى بلغ رسول الله ﷺ.

ثم سرية غالب بن عبد الله الليثي إلى بني الملوح بالكديد في صفر سنة ثمان، فغنم. وفي هذا الشهر قدم خالد بن الوليد وعثمان بن أبي

طلحة وعمرو بن العاص المدينة فأسلموا. ثم سرية غالب أيضًا إلى مصاب أصحاب بشير بن سعد بفدك في صفر سنة ثمان، ومعه مئتان رجل، فأغاروا عليهم مع الصبح، وقتلوا منهم قتلى، وأصابوا نعما.

ثم سرية شجاع بن وهب الأسدي إلى بني عامر في شهر ربيع الأول سنة ثمان، ومعه أربعة وعشرون رجلًا، إلى جمع من هوازن، وأمره أن يغير عليهم. فكان يسير الليل ويكمن النهار، حتى صبحهم، فأصابوا نعما وشاء، واستاقوا ذلك حتى قدموا المدينة.

ثم سرية كعب بن عمير الغفاري إلى ذات أطلاح في ربيع الأول سنة ثمان، في خمسة عشر رجلًا، فساروا حتى انتهوا إلى ذات أطلاح، فوجدوا جمعًا كثيرًا، فقاتلهم الصحابة أشد القتال حتى قتلوا، وأفلت منهم رجل جريح في القتلى، قيل هو الأمير، فلما برد الليل عليه تحامل حتى أتى رسول الله ﷺ، فأخبره الخبر، فشق ذلك عليه وهمَّ بالبعث إليهم، فبلغه أنهم ساروا إلى موضع آخر، فتركهم.

ثم سرية مؤتة، وهي من عمل البلقاء بالشام، كانت في جمادى الأولى سنة ثمان. وذلك أن رسول الله ﷺ كان قد أرسل الحارث بن عمير الأزدي بكتاب إلى ملك بصرى، فلما نزل مؤتة، عرض له شرحبيل بن عمرو الغساني فقتله، ولم يُقتل لرسول الله ﷺ رسول غيره. فأمر رسول الله ﷺ زيد بن حارثة على ثلاثة آلاف وقال: «إن قُتل، فأميركم جعفر بن أبي طالب، فإن قُتل، فأميركم عبد الله بن رواحة، فإن قُتل، فليرتضِ المسلمون برجل من بينهم يجعلونه عليهم». وعقد لهم ﷺ لواءً أبيض ودفعه إلى زيد بن حارثة، وأوصاهم أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير، وأن يدعوا من هناك إلى

الإسلام، فإن أجابوا وإلا استعينوا عليهم بالله وقاتلوهم. وخرج مشيعًا لهم حتى بلغ ثنية الوداع. فلما ساروا نادى المسلمون: «دفع الله عنكم وردكم صالحين غانمين». فلما فصلوا من المدينة سمع العدو بمسيرهم، فجمعوا لهم، وقام شرحبيل بن عمرو فجمع أكثر من مائة ألف، وقدم الطلائع أمامه.

وقد نزل المسلمون معان، موضع من أرض الشام، وبلغ الناس كثرة العدو وتجمعهم، وأن هرقل نزل بأرض البلقاء في مائة ألف من المشركين. فأقاموا ليلتين لينظروا في أمرهم، وقالوا: «نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره الخبر»، فشجعهم عبد الله بن رواحة على المضي، فمضوا إلى مؤتة، ووافاهم المشركون فجاء منهم ما لا قِبَل لأحد به من العدد والسلاح والكراع والديباج والحرير والذهب. والتقى المسلمون والمشركون، فقاتل الأمراء يومئذ على أرجلهم. فأخذ اللواء زيد بن حارثة، فقاتل وقاتل المسلمون معه على صفوفهم، حتى قُتل طعنًا بالرماح. ثم أخذ اللواء جعفر بن أبي طالب، فنزل عن فرس له شقراء فعقرها، ثم تقدم فقاتل حتى قُطعت يداه جميعًا، أخذ اللواء بيمينه فقطعت، ثم أخذه بشماله فقطعت، ثم احتضنه فقتل. قال رسول الله ﷺ: «إن الله أبدله بيديه جناحين يطير بهما في الجنة». ووجد في صدره اثنتان وسبعون ضربة بسيف وطعنة برمح.

ثم أخذ اللواء عبد الله بن رواحة فقاتل حتى قُتل، فأخذ اللواء ابن أقرم العجلاني، إلى أن اصطلح الناس على خالد بن الوليد، فأخذ اللواء وقاتلهم فقتل منهم مقتلة عظيمة وأصاب غنيمة، ثم انحازت

كل طائفة، وَرُفِعَتِ الأرضُ لرسول الله ﷺ حتى نظر إلى معترك القوم. وذكر موسى بن عقبة في المغازي أن يعلى بن أمية قدم بخبر أهل مؤتة، فقال له رسول الله ﷺ: «إن شئتَ فأخبرني وإن شئتَ أخبرتك». قال: «أخبرني». فأخبره خبرهم، فقال: «والذي بعثك بالحق ما تركتَ من حديثهم حرفًا لم تذكره».

ثم (سرية عمرو بن العاص) إلى ذات السلاسل، وهي من المدينة على عشرة أميال، وكانت في جمادى الآخرة سنة ثمان. وسببها أنه بلغه ﷺ أن جمعًا من قضاعة قد تجمعوا للإغارة، فبعث عمرًا وعقد له لواء أبيض وجعل معه راية سوداء، وبعثه في ثلاثمائة من سراة المهاجرين والأنصار ومعهم ثلاثون فرسًا. فسار الليل وكمن النهار، فلما قرب منهم بلغه أن لهم جمعًا كثيرًا، فبعث رافع بن مكيث الجهني إلى رسول الله ﷺ يستمده، فبعث إليه أبا عبيدة بن الجراح وعقد له لواء، وبعث معه مائتين من سراة المهاجرين والأنصار، فيهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، وأمره أن يلحق بعمرو وأن يكونا جميعًا ولا يختلفا. فأراد أبو عبيدة أن يؤم الناس، فقال عمرو: «إنما قدمت عليّ مددًا وأنا الأمير»، فأطاع له ذلك أبو عبيدة، فكان عمرو يصلي بالناس. وسار حتى وصل إلى العدو من بلي وعذرة، فحمل عليهم المسلمون فهربوا بالبلاد وتفرقوا.

ثم (سرية أبي عبيدة بن الجراح) وسماها البخاري «غزوة سيف البحر»، وتسمى بسرية الخبط، وكانت في رجب سنة ثمان إلى حي من جهينة بالقبلية مما يلي ساحل البحر، وبينها وبين المدينة خمس ليال. روى البخاري وغيره عن جابر قال: «خرجنا ونحن ثلاثمائة

نحمل زادنا على رقابنا، ففني زادنا حتى كان الرجل يأكل تمرة تمرة، وابتاع قيس بن سعد جزورًا ونحرها لهم، وأخرج الله لهم من البحر دابة تُسمى العنبر، فأكلوا منها وتزودوا، ورجعوا ولم يلقوا كيدًا».

زاد في رواية: «فلما قدمنا المدينة أتينا رسول الله ﷺ فذكرنا ذلك له، فقال: (هو رزق أخرجه الله لكم، فهل معكم شيء من لحمه فتطعمونا؟) قال: فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ منه فأكل».

ثم سرية أبي قتادة الأنصاري إلى خضرة، وهي أرض محارب بنجد، في شعبان سنة ثمان، وبعث معه ﷺ خمسة عشر رجلًا إلى غطفان، فقتل من أشرف منهم وسبى سبيًا كثيرًا واستاق النعم، فكانت الإبل مائتي بعير والغنم ألفي شاة، وكانت غيبته خمس عشرة ليلة.

ثم (سرية أبي قتادة أيضًا إلى بطن إضم على ثلاثة برد من المدينة في أول شهر رمضان سنة ثمان)، وذلك أنه ﷺ لما هم أن يغزو أهل مكة بعثه ليظن ظان أنه ﷺ توجه إلى تلك الناحية، ولأن تذهب بذلك الأخبار. فلقوا عامر بن الأضبط فسلم عليهم بتحية الإسلام، فقتله محلم بن جنامة، فأنزل الله تعالى: ﴿**وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا**﴾[النساء:94]. فجاء محلم بن جنامة في بردين فجلس بين يدي رسول الله ﷺ ليستغفر له، فقال رسول الله ﷺ: «لا غفر الله لك»، فقام وهو يتلقى دموعه ببرديه، فما مضت له سابعة حتى مات، فلفظته الأرض، ثم عادوا به فلفظته الأرض، فلما غلب قومه عمدوا إلى صدين -أي جبلين- فسطحوه ثم رضموا عليه الحجارة حتى واروه. فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: «إن الأرض تقبل من هو شر من صاحبكم، ولكن يريد الله أن يعظكم».

فَتْحُ مَكَّةَ الْمُشَرَّفَةِ زَادَهَا اللهُ شَرَفًا وَكَرَامَةً

وهو الفتحُ الأعظمُ الذي أعزَّ اللهُ به دينَه ورسولَه وجندَه وحرمَه الأمين، واستنقذَ به بلده وبيتَه الذي جعله هدىً للعالمين من أيدي الكفار والمشركين. خرج له ﷺ بكتائب الإسلام وجنود الرحمن لنقض قريشٍ العهدَ الذي وقعَ بالحديبية.

وقدم أبو سفيان بن حرب على رسول الله ﷺ يسأله أن يجدد العهد ويزيد في المدة، فأبى عليه، فانصرف إلى مكة. فتجهز رسول الله ﷺ من غير إعلام أحد، فكتب حاطب كتابًا وأرسله إلى مكة يخبرهم بذلك، فأطلع الله نبيَّه على ذلك، فقال عليه الصلاة والسلام لعلي والزبير والمقداد: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينةً معها كتابٌ، فخذوه منها.» قال: فانطلقنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة. قلنا: أخرجي الكتاب. قالت: ما معي كتاب. قلنا: لتخرجنَّ الكتابَ أو لنلقينَّ الثياب. قال: فأخرجته من عِقاصها، فأتينا به النبي ﷺ، فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس من المشركين بمكة، يخبرهم بأمور النبي ﷺ.

فقال: «يا حاطب، ما هذا؟» قال: «يا رسول الله، لا تعجل عليَّ. إني كنت امرأً مُلصقًا في قريش -أي حليفًا- ولم أكن من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم وأموالهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يدًا يحمون قرابتي، ولم أفعله ارتدادًا عن ديني ولا رضىً بالكفر بعد الإسلام.» فقال رسول الله ﷺ: «أما إنه قد صدقكم.» فقال عمر: «يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق.» فقال: «إنه قد شهد بدرًا، وما

يدريك؟ لعل الله اطلع على من شهد بدرًا، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم.» فأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ**﴾ إلى قوله: ﴿**فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ**﴾[الممتحنة:1]. رواه البخاري.

وحكى السهيلي أن لفظ الكتاب الذي كتبه حاطب: «أما بعد، يا معشر قريش، فإن رسول الله ﷺ جاءكم بجيش عظيم يسيل كالسيل، فوالله لو جاءكم وحده لنصره الله وأنجز له، فانظروا لأنفسكم، والسلام.»

وبعث رسول الله ﷺ إلى من حوله من العرب: أسلم، وغفار، ومزينة، وجهينة، وأشجع، وسليم، فجلبهم؛ فمنهم من وافاه بالمدينة، ومنهم من لحقه بالطريق. واستخلف ﷺ على المدينة ابن أم مكتوم، وخرج يوم الأربعاء، لليلتين خلتا من شهر رمضان، وقيل لعشر، وقيل لأكثر، بعد العصر سنة ثمان من الهجرة. وكان المسلمون عشرة آلاف، وقيل اثني عشر ألفًا.

وكان العباس قد خرج بأهله وعياله مسلمًا مهاجرًا، فلقي رسول الله ﷺ بالجحفة، وكان قبل ذلك مقيمًا بمكة على سقايته ورسول الله ﷺ عنه راضٍ. وكان ممن لقيه في الطريق أبو سفيان بن الحارث، ابن عمه عليه الصلاة والسلام وأخوه من الرضاعة، مع ولده جعفر. وكان أبو سفيان قد عاداه وهجاه بعدما بُعث عليه الصلاة والسلام، وكان لقاؤهما في الأبواء، وأسلما قبل دخول مكة.

ثم سار ﷺ، فلما كان بقديد، عقد الألوية والرايات، ودفعها إلى القبائل. ثم نزل مر الظهران عشاءً، فأمر أصحابه فأوقدوا عشرة آلاف

نار. ولم يبلغ قريشًا خبر مسيره، وهم مغتمّون خوفًا من غزوه إياهم، فبعثوا أبا سفيان بن حرب وقالوا: «إن لقيت محمدًا، فخذلنا منه أمانًا.» فخرج أبو سفيان، وحكيم بن حزام، وبديل بن ورقاء، حتى أتوا مر الظهران. فلما رأوا العسكر، أفزعهم ذلك، فرآهم ناس من حرس رسول الله ﷺ، فأدركوهم وأخذوهم وأتوا بهم إلى رسول الله ﷺ، فأسلم أبو سفيان.

فلما سار، قال للعباس: «احبس أبا سفيان عند خطم الجبل حتى ينظر إلى المسلمين.» فحبسه العباس، فجعلت القبائل تمر مع النبي ﷺ كتيبةً كتيبة على أبي سفيان. فمرت كتيبة، فقال: «يا عباس، من هذه؟» قال: «هذه غفار.» قال: «ما لي ولغفار؟» ثم مرت جهينة، فقال مثل ذلك، حتى أقبلت كتيبة لم يرَ مثلها. قال: «من هذه؟» قال: «هؤلاء الأنصار، عليهم سعد بن عبادة، ومعه الراية.» فقال سعد: «يا أبا سفيان، اليوم يوم الملحمة، اليوم تُستحل الكعبة.» وفي رواية: «تُستحل الحرمة.» فسمعها رجل من المهاجرين، فقال: «يا رسول الله، ما آمن أن يكون لسعد في قريش صولة.» فقال عليه الصلاة والسلام لعلي: «أدركه فخذ الراية منه، فكن أنت تدخل بها.»

ورُوي أن أبا سفيان قال للنبي ﷺ لما حاذاه: «أمَرْتَ بقتل قومك؟» قال: «لا.» فذكر له ما قال سعد بن عبادة، ثم ناشده الله والرحم، فقال النبي ﷺ: «يا أبا سفيان، اليوم يوم المرحمة، اليوم يعز الله قريشًا.» وأرسل إلى سعد، فأخذ الراية منه، ودفعها إلى ابنه قيس.

قال موسى بن عقبة: بعث رسول الله ﷺ الزبير بن العوام على المهاجرين وخيلهم، وأمره أن يدخل من كداء بأعلى مكة، وأمره أن

يغرز رايته بالحَجُون ولا يبرح حتى يأتيه. وبعث خالد بن الوليد في قبائل قضاعة وسليم وغيرهم، وأمره أن يدخل من أسفل مكة، وأن يغرز رايته عند أدنى البيوت. وبعث سعد بن عبادة في كتيبة الأنصار في مقدمة رسول الله ﷺ، وأمرهم أن يكفوا أيديهم ولا يقاتلوا إلا من قاتلهم.

واندفع خالد بن الوليد حتى دخل من أسفل مكة، وقد تجمع بها بنو بكر، وبنو الحارث بن عبد مناف، وناس من هذيل ومن الأحابيش الذين انتصرت بهم قريش، فقاتلوا خالدًا فقاتلهم، فانهزموا، وقتل من بني بكر نحو عشرين رجلًا، ومن هذيل ثلاثة أو أربعة، حتى انتهى بهم القتل إلى الحَزْوَرة إلى باب المسجد، حتى دخلوا الدور، فارتفعت طائفة منهم على الجبال، وصاح أبو سفيان: «من أغلق بابه وكف يده فهو آمن.»

ونظر رسول الله ﷺ إلى البارقة، فقال: «ما هذه وقد نهيت عن القتال؟» فقالوا: «إن خالدًا قوتل، وبدئ بالقتال، فلم يكن له بُد من أن يقاتلهم.» وقال رسول الله ﷺ بعد أن اطمأن لخالد: «لم قاتلت وقد نهيتك عن القتال؟» فقال خالد: «هم بدأونا بالقتال، وقد كففت يدي ما استطعت.» فقال النبي ﷺ: «قضاء الله خير.»

وقال العباس، بعد أن أسلم أبو سفيان وشهد شهادة الحق: «يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئًا.» قال: «نعم.» وأمر ﷺ فنادى مناديه: «من دخل المسجد فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، إلا المستثنين.» وهم -على ما جمعه الواقدي عن شيوخه- عشرة أنفس: ستة رجال، وأربع نسوة.

وروى مسلم والنسائي عن أبي هريرة ﷺ قال: لما أقبل رسول الله ﷺ، وقد بعث على إحدى المجنبتين خالد بن الوليد، وبعث الزبير على الأخرى، وبعث أبا عبيدة على الحَسَر -أي الذين بغير سلاح-، فقال لي: «يا أبا هريرة، اهتف لي بالأنصار.» فهتفت بهم، فجاؤوا فأطافوا به، فقال لهم: «أترون إلى أوباش قريش وأتباعهم؟» ثم قال بإحدى يديه على الأخرى: «احصدوهم حصدًا حتى توافوني بالصفا.» قال أبو هريرة: «فانطلقنا، فما نشاء أن نقتل أحدًا منهم إلا قتلناه.» فجاء أبو سفيان فقال: «يا رسول الله، أُبيحت خضراء قريش، لا قريش بعد اليوم!» فقال ﷺ: «من أغلق بابه فهو آمن.»

ورُوي أنه ﷺ وضع رأسه تواضعًا لله لما رأى ما أكرمه الله تعالى به من الفتح، حتى إن رأسه لتكاد تمس رحله شكرًا وخضوعًا لعظمته تعالى، أن أحل له بلده ولم يحله لأحد قبله ولا لأحد بعده.

وعن أنس أن النبي ﷺ دخل مكة يوم الفتح وعلى رأسه المغفر، وهو زرد ينسج على قدر الرأس مثل القلنسوة. وعن جابر أنه ﷺ كان على رأسه عمامة سوداء. ولما كان الغد من يوم الفتح، قام عليه الصلاة والسلام خطيبًا في الناس فحمد الله وأثنى عليه ومجده بما هو أهله، ثم قال: «أيها الناس، إن الله حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض، فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة. فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دمًا أو يعصد بها شجرة. فإن أحد ترخص فيها لقتال رسول الله ﷺ، فقولوا: إن الله قد أذن لرسوله ولم يأذن لكم. وإنما أحلت لي ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد الغائب.»

ثم قال: «يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل فيكم؟» قالوا: «خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم.» قال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء.» أي الذين أطلقوا فلم يُسترقوا ولم يُؤسروا.

ولما فتح الله سبحانه وتعالى مكة على رسوله ﷺ، قال الأنصار فيما بينهم: «أترون أن رسول الله ﷺ إذ فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم بها؟» وكان رسول الله ﷺ يدعو على الصفا رافعًا يديه، فلما فرغ من دعائه قال: «ماذا قلتم؟» قالوا: «لا شيء يا رسول الله.» فلم يزل بهم حتى أخبروه، فقال رسول الله ﷺ: «معاذ الله، المحيا محياكم والممات مماتكم.»

وكان فضالة بن عمير بن الملوح قد هم بقتل النبي ﷺ وهو يطوف بالبيت، فلما دنا منه قال له رسول الله ﷺ: «أفضالة؟» قال: «نعم يا رسول الله.» قال: «ماذا كنت تحدث به نفسك؟» قال: «لا شيء، كنت أذكر الله.» فضحك رسول الله ﷺ ثم قال: «استغفر الله.» ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه، فكان فضالة يقول: «والله ما رفع يده عن صدري حتى ما خلق الله شيئًا أحب إلي منه.»

وفي تفسير العلامة ابن النقيب المقدسي: «إن الله تعالى لما أعلم رسوله ﷺ بأنه قد أنجز له وعده بالنصر على أعدائه وفتح مكة وإعلاء كلمة دينه، أمره إذا دخل مكة أن يقول: ﴿**وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا**﴾[الإسراء:81].» فصار ﷺ يطعن الأصنام التي حول الكعبة بمحجنه ويقول: «جاء الحق وزهق الباطل»، فيخر الصنم ساقطًا مع أنها كلها كانت مثبتة بالحديد والرصاص، وكانت ثلاثمائة وستين صنمًا بعدد أيام السنة.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «أقبل رسول الله ﷺ عام الفتح على ناقته القصواء، وهو مردف أسامة حتى أناخ بفناء الكعبة. ثم دعا عثمان بن طلحة فقال: ائتني بالمفتاح. فذهب إلى أمه فأبت أن تعطيه، فقال: والله لتعطينه أو ليخرجن هذا السيف من صلبي. فأعطته إياه، فجاء به النبي ﷺ فدفعه إليه ففتح الباب.» رواه مسلم.

وفي الطبقات لابن سعد عن عثمان بن طلحة قال: «كنا نفتح الكعبة في الجاهلية يوم الإثنين والخميس. فأقبل النبي ﷺ يومًا يريد أن يدخل الكعبة مع الناس. فأغلظت له ونلت منه. فحلم عني ثم قال: ‹يا عثمان لعلك سترى هذا المفتاح يومًا بيدي أضعه حيث شئت.› فقلت: ‹لقد هلكت قريش يومئذ وذلت.› قال: ‹بل عُمِّرت وعزت يومئذ.›» ودخل الكعبة، فوقعت كلمته مني موقعًا، ظننت يومئذ أن الأمر سيصير إلى ما قال. فلما كان يوم الفتح، قال: «يا عثمان ائتني بالمفتاح.» فأتيته به، فأخذه مني، ثم دفعه إلي وقال: «خذوها خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم. يا عثمان إن الله استأمنكم على بيته، فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف.» قال: «فلما وليت، ناداني فرجعت إليه. فقال: ‹ألم يكن الذي قلت لك؟› قال: فذكرت قوله لي بمكة قبل الهجرة: ‹لعلك سترى هذا المفتاح يومًا بيدي أضعه حيث شئت.› قلت: بلى، أشهد أنك رسول الله.» وفي عثمان هذا نزلت آية: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا**﴾ [النساء:58].

وروى مسلم أنه ﷺ دخل هو وأسامه بن زيد وبلال وعثمان بن طلحة الكعبة فأغلقوا عليهم الباب. قال ابن عمر: «فلما فتحوا

كنت أول من ولج. فلقيت بلالًا فسألته: هل صلى النبي ﷺ؟ قال: نعم، بين العمودين اليمانيين.» وذهب عني أن أسأله كم صلى. وفي إحدى روايات البخاري: «جعل عمودًا على يساره وعمودًا على يمينه وثلاثة أعمدة وراءه.»

وفي كتاب مكة للأزرقي والفاكهي أن معاوية سأل ابن عمر: «أين صلى رسول الله ﷺ؟» فقال: «اجعل بينك وبين الجدار ذراعين أو ثلاثة أذرع.» فعلى هذا ينبغي لمن أراد الأتباع في ذلك أن يجعل بينه وبين الجدار ثلاثة أذرع. فإنه تقع قدماه في مكان قدميه ﷺ إن كانت ثلاثة سواء، أو تقع ركبتاه أو يداه أو وجهه إن كان أقل من ثلاثة أذرع. والله أعلم.

وعن أسامة بن زيد قال: «دخلت على رسول الله ﷺ في الكعبة، ورأى صورًا، فدعا بدلو من ماء فأتيته به، فجعل ﷺ يمحوها ويقول: ‹قاتل الله قومًا يصورون ما لا يخلقون.›» رواه أبو داود.

وأقام ﷺ خمس عشرة ليلة، وقيل أكثر، وكان فتح مكة لعشر ليال بقين من شهر رمضان. ثم سرية خالد بن الوليد رضي الله عنه عقب فتح مكة إلى العزى بنخلة، وكانت لقريش وجميع بني كنانة، وكانت أعظم أصنامهم، لخمس ليال بقين من رمضان سنة ثمان، ومعه ثلاثون فارسًا ليهدمها. فلما انتهوا إليها هدمها ثم رجع إلى رسول الله ﷺ بمكة فأخبره. فقال: «هل رأيت شيئًا؟» قال: «لا.» قال: «فإنك لم تهدمها، فارجع إليه فاهدمها.» فرجع، فجرد سيفه، فخرجت إليه امرأة عجوز عريانة سوداء ثائرة الرأس، فجعل السادن يصيح فيها. فضربها خالد، فجندلها باثنتين. فرجع إلى رسول الله ﷺ بمكة

فأخبره. فقال: «نعم، تلك العزى، وقد يئست أن تعبد بلادكم أبدًا.»

ثم (سرية عمرو بن العاص) إلى سواع صنم هذيل على ثلاثة أميال من مكة في شهر رمضان سنة ثمان حين فتح مكة. قال عمرو: «فانتهيت إليه وعنده السادن، فقال: ما تريد؟ فقلت: أمرني رسول الله ﷺ أن أهدمه. قال: لا تقدر على ذلك. قلت: لم؟ قال: تمنع. فقلت: ويحك، وهل يسمع أو يبصر؟» قال: فدنوت منه فكسرته، ثم قلت للسادن: كيف رأيت؟ قال: أسلمت لله.

ثم (سرية سعد بن زيد الأشهلي) إلى مناة صنم للأوس والخزرج بالمشلل في شهر رمضان حين فتح مكة. فخرج في عشرين فارسا حتى انتهى إليها. قال السادن: ما تريد؟ قال: هدم مناة. قال: أنت وذاك. فأقبل سعد يمشي فخرجت إليه امرأة عريانة سوداء ثائرة الرأس تدعو بالويل وتضرب صدرها. فضربها سعد بن زيد فقتلها، وأقبل إلى الصنم ومعه أصحابه فهدموه، وانصرف راجعا إلى رسول الله ﷺ. وكان ذلك لست بقين من رمضان.

ثم سرية خالد بن الوليد ﷺ إلى بني جذيمة، قبيلة من عبد القيس أسفل مكة على ليلة بناحية يلملم في شوال سنة ثمان وهو يوم الغميصاء. بعثه عليه الصلاة والسلام لما رجع من هدم العزى، وهو ﷺ مقيم بمكة، وبعث معه ثلاثمائة وخمسين رجلا داعيا إلى الإسلام لا مقاتلا. فلما انتهى إليهم قال: «ما أنتم؟» قالوا: «مسلمون قد صلينا وصدقنا بمحمد وبنينا المساجد في ساحاتنا.» وفي البخاري: «لم يحسنوا أن يقولوا ذلك.» فقالوا: «صبأنا.» فقال لهم: «استأسروا.» فاستأسروا. فأمر بعضهم فكتف بعضا، وفرقهم في أصحابه. فلما

كان السحر نادى منادي خالد: «من كان معه أسير فليقتله.» فقتلت بنو سليم من كان بأيديهم، وأما المهاجرون والأنصار فأرسلوا أسراهم. فبلغ النبي ﷺ فقال: «اللهم إني أبرأ إليك من فعل خالد.» وبعث عليا فودى لهم قتلاهم. قال الخطابي: «يحتمل أن يكون خالد نقم عليهم العدول عن لفظ الإسلام ولم ينقادوا للدين فقتلهم متأولا، وأنكر عليه الصلاة والسلام العجلة وترك التثبت في أمرهم قبل أن يعلم المراد من قولهم: صبأنا.»

غزوة حُنَين

وهو وادٍ قرب الطائف، بينه وبين مكة ثلاث ليالٍ، وتسمى غزوة هوازن، وذلك أن النبي ﷺ لما فرغ من فتح مكة وتمهيدها، وأسلم عامة أهلها، اجتمع أشراف هوازن وثقيف، بعضهم إلى بعض، وحشدوا وقصدوا محاربة المسلمين. وكان رئيسهم مالك بن عوف النصري. فخرج إليهم رسول الله ﷺ من مكة يوم السبت لست ليالٍ من شوال، في اثني عشر ألفًا من المسلمين، عشرة آلاف من أهل المدينة، وألفان ممن أسلم من أهل مكة. واستعمل ﷺ على مكة عتاب بن أسيد. فوصل إلى حنين ليلة الثلاثاء لعشر ليالٍ خلون من شوال. فجاء رجل فقال: «إنني انطلقت من بين أيديكم حتى طلعت جبل كذا وكذا، فإذا أنا بهوازن عن بكرة أبيهم، بظعنهم، ونعمهم، وشياههم، اجتمعوا إلى حنين.» فتبسم رسول الله ﷺ وقال: «تلك غنيمة المسلمين غدًا إن شاء الله تعالى.»

وقال رجل: «لن نغلب اليوم من قلة.» فشق ذلك على النبي ﷺ. ثم ركب رسول الله ﷺ بغلته البيضاء «دلدل»، ولبس درعين،

والمغفر، والبيضة، فاستقبلهم من هوازن ما لم يروا مثله قط من السواد والكثرة، وذلك في غبش الصبح، وخرجت الكتائب من مضيق الوادي فحملوا حملة واحدة، فانكشفت خيل بني سليم مولية، وتبعهم أهل مكة والناس. ولم يثبت معه ﷺ يومئذٍ إلا العباس بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب، والفصل بن العباس، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وأبو بكر، وعمر، وأسامة بن زيد، في ناس من أهل بيته وأصحابه رضي الله عنهم.

قال العباس: «وأنا آخذ بلجام بغلته أكفها مخافة أن تصل إلى العدو، لأنه ﷺ كان يتقدم في نحر العدو.» وأبو سفيان بن الحارث آخذ بركابه ﷺ. فجعل عليه الصلاة والسلام يقول للعباس: «نادِ يا معشر الأنصار، يا أصحاب السمرة»، يعني شجرة بيعة الرضوان التي بايعوه تحتها، «أن لا يفروا عنه.» فجعل تارة ينادي: «يا أصحاب السمرة»، وتارة: «يا أصحاب سورة البقرة.» وكان العباس رجلًا صيتًا، فلما سمع المسلمون نداء العباس، أقبلوا كأنهم الإبل إذا حنت إلى أولادها. وفي رواية مسلم قال العباس: «فوالله لكأن عطفهم حين سمعوا صوتي، عطفة البقر على أولادها، يقولون: يا لبيك، يا لبيك.» فتراجعوا إلى رسول الله ﷺ حتى إن الرجل منهم إذا لم يطاوعه بعيره على الرجوع الحدر عنه، وأرسله ورجع بنفسه إلى رسول الله ﷺ. فأمرهم عليه الصلاة والسلام أن يصدقوا الحملة، فاقتتلوا مع الكفار.

فأشرف رسول الله ﷺ فنظر إلى قتالهم، فقال: «الآن حمي الوطيس.» وهو التنور، ضربه مثلا لشدة الحرب، وهذا من فصيح

الكلام الذي لم يسمع من أحد قبل النبي ﷺ. وفي البخاري عن البراء، وسأله رجل: «أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين؟» فقال: «لكن رسول الله ﷺ لم يفر. كان هوازن رماة، وإنا لما حملنا عليهم انكشفوا، فأكببنا على المغانم، فاستقبلونا بالسهام. ولقد رأيت رسول الله ﷺ على بغليه البيضاء، وإن أبا سفيان بن الحارث أخذ بزمامها، وهو ﷺ يقول: ‹أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب›.»

وتناول ﷺ حصيات من الأرض ثم قال: «شاهت الوجوه»، أي قبحت، ورمى بها في وجوه المشركين، فما خلق الله منهم إنسانًا إلا ملأ عينيه من تلك القبضة. وفي رواية لمسلم: «قبضة من تراب الأرض.» وفي رواية أحمد وغيره، أن رسول الله ﷺ لما ولى المسلمون مدبرين قال: «أنا عبد الله ورسوله، أنا عبد الله ورسوله.» ثم أخذ كفًا من تراب، وضرب وجوههم، وقال: «شاهت الوجوه.» فهزمهم الله سبحانه وتعالى.

وقال ابن مسعود: «حادت به ﷺ بغلته، فمال السرج. فقلت: ارتفع، رفعك الله. فقال: ناولني كفًا من تراب.» فضرب وجوههم، وامتلأت أعينهم ترابًا. وجاء المهاجرون والأنصار سيوفهم بأيمانهم كأنها الشهب، فولى المشركون الأدبار. وعن عبد الرحمن الفهري قال: «حدثني أبناؤهم عن آبائهم أنهم قالوا: لم يبق منا واحد إلا امتلأت عيناه وفُمه ترابًا، وسمعنا صلصلة من السماء كإمرار الحديد على الطست الجديد.» قال الله تعالى: ﴿**ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا**﴾[التوبة:26]. وهم الملائكة. وفي سيرة الدمياطي كان سيما الملائكة يوم حنين عمائم

حمر أرخوها بين أكتافهم. وأمر ﷺ أن يُقتل من قدر عليه، وأفضى المسلمون في القتل إلى الذرية. فنهاهم ﷺ عن ذلك، وقال: «من قتل قتيلًا له عليه بينة فله سلبه.» واستلب أبو طلحة وحده ذلك اليوم عشرين رجلًا. وأمر ﷺ بطلب العدو، فانتهى بعضهم إلى الطائف، وبعضهم نحو نخلة، وقوم منهم إلى أوطاس. واستشهد من المسلمين أربعة، منهم أيمن الحبشي، وقتل من المشركين أكثر من سبعين قتيلًا.

ثم سرية أبي عامر الأشعري، وهو عم أبي موسى الأشعري، بعثه ﷺ حين فرغ من حنين في طلب الفارين من هوازن. وكان معه سلمة بن الأكوع، فانتهى إليهم، فإذا هم مجتمعون، فقتل منهم أبو عامر تسعة إخوة مبارزة بعد أن يدعو كل واحد منهم إلى الإسلام، ويقول: «اللهم اشهد عليه». فقال واحد منهم: «اللهم لا تشهد علي»، فكف عنه أبو عامر فأفلت، ثم أسلم بعد فحسن إسلامه. وكان رسول الله ﷺ إذا رآه قال: «هذا شريد أبي عامر». ورمى أبا عامر ابن الحارث العلاء وأوفى فقتلاه. فخلفه أبو موسى الأشعري فقاتلهم حتى فتح الله عليه وقتل قائل أبي عامر. فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اغفر لأبي عامر، واجعله من أعلى أمتي في الجنة». وكان في السبي الشيماء أخته عليه الصلاة والسلام من الرضاعة.

ثم سرية الطفيل بن عمرو الدوسي إلى ذي الكفين، صنم من خشب في شوال. لما أراد عليه الصلاة والسلام السير إلى الطائف ليهدمه، ويوافيه بالطائف، خرج سريعا فهدمه، وجعل يحش النار في وجهه، أي يلقيها عليه ويحرقه، ويقول: «يا ذا الكفين، لست

من عبادك، ميلادنا أقدم من ميلادك، إني حشوت النار في فؤادك». وانحدر معه من قومه أربعمائة رجل سراعا. فوافوا النبي ﷺ بالطائف بعد مقدمه بأربعة أيام.

غزوة الطائف

وهي بلد كبير على ثلاث مراحل من مكة؛ سار إليها النبي ﷺ في شوال سنة ثمان حين خرج من حنين، وحبس الغنائم بالجعرانة، وقدم خالد بن الوليد على مقدمته. وكانت ثقيف لما انهزموا من أوطاس دخلوا حصنهم بالطائف وأغلقوه عليهم بعد أن أدخلوا فيه ما يصلحهم سنة وتهيئوا للقتال. فسار ﷺ حتى نزل قريبا من الحصن، وعسكر هناك، فرموا المسلمين بالنبل رميا شديدا كأنه جراد، حتى أصيب ناس من المسلمين وقتل منهم اثنا عشر رجلا. فارتفع ﷺ إلى موضع مسجد الطائف اليوم، وكان معه من نسائه أم سلمة وزينب، فضرب لهما قبتين. وكان يصلي ﷺ بين القبتين حصار الطائف كله. فحاصرهم ثمانية عشر يوما، ونصب عليهم المنجنيق، وهو أول منجنيق رمي به في الإسلام. وأمر بقطع أعنابهم وتحريقها، فقطع المسلمون قطعًا ذريعا، ثم سألوه أن يدعها لله وللرحم. فقال ﷺ: «إني أدعها لله وللرحم». ثم نادى مناديه عليه الصلاة والسلام: «أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر». فخرج ثلاثة وعشرون عبدا منهم أبو بكرة.

ولم يؤذن له ﷺ في فتح الطائف، وأمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأذن بالناس في الرحيل. فضج الناس من ذلك، وقالوا: «نرحل ولم يفتح علينا الطائف». فقال عليه الصلاة والسلام: «فاغدوا على القتال».

فغدوا، فأصاب المسلمين جراحات، فقال ﷺ: «إنا قافلون إن شاء الله تعالى». فسروا بذلك وأذعنوا، وجعلوا يرحلون، ورسول الله ﷺ يضحك، وفقئت عين أبي سفيان صخر بن حرب يومئذ. فذكر ابن سعد أن النبي ﷺ قال له، وهي في يده: «أيما أحب إليك، عين في الجنة، أو أدعو الله أن يردها عليك؟» قال: «بل عين في الجنة». ورمى بها، وشهد اليرموك فقاتل، وفقئت عينه الأخرى يومئذ.

وقال ﷺ: «قولوا لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده». فلما ارتحلوا، قال: «قولوا آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون». ولما قيل له ﷺ: «يا رسول الله، ادع على ثقيف»، قال: «اللهم اهد ثقيفا وات بهم». وكان عليه الصلاة والسلام قد أمر أن يجمع السبي والغنائم مما أفاء الله على رسوله يوم حنين. فجمع ذلك كله إلى الجعرانة، فكان بها إلى أن انصرف عليه الصلاة والسلام من الطائف. وكان السبي ستة آلاف رأس، والإبل أربعة وعشرين ألف بعير، والغنم أكثر من أربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أوقية فضة.

وانتظر ﷺ بهوازن أن يقدموا عليه مسلمين بضع عشرة ليلة، ثم بدأ يقسم الأموال. وفي البخاري: «وطفق ﷺ يعطي رجالا المائة من الإبل». فقال ناس من الأنصار: «يغفر الله لرسول الله ﷺ يعطي قريشا ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم». قال أنس: «فحدث رسول الله ﷺ بمقالتهم، فأرسل إلى الأنصار فجمعهم في قبة من أدم، ثم قال لهم: أما ترضون أن يذهب الناس بالأموال وتذهبون بالنبي ﷺ إلى رحالكم؟ فوالله لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به». قالوا: «يا رسول الله، قد رضينا».

عن جبير بن مطعم قال: «بينما أنا مع النبي ﷺ ومعه الناس مقفلين من حنين، علقت برسول الله ﷺ الأعراب حتى اضطروه إلى سمرة، فخطفت رداءه. فوقف ﷺ وقال: أعطوني ردائي، فلو كان لي عدد هذه العضاة نعما لقسمته بينكم، ثم لا تجدوني بخيلا ولا كذوبا ولا جبانا». والعضاه شجر ذو شوك.

وأحرم ﷺ بعمرة ودخل مكة، ثم قدم المدينة وقد غاب عنها شهرين وستة عشر يوما. وبعث ﷺ قيس بن سعد بن عبادة إلى ناحية اليمن في أربعمائة فارس وأمره أن يقاتل قبيلة صداء حين مروره عليهم في الطريق. فقدم زياد بن الحارث الصدائي فسأل عن ذلك البعث فأخبر. فقال: «يا رسول الله، أنا وافدهم فأردد الجيش وأنا لك بقومي». فردهم النبي ﷺ، وقدم الصدائيون بعد خمسة عشر يوما فأسلموا.

وبعث ﷺ عيينة بن حصن الفزاري إلى بني تميم بالسقيا وهي أرض بني تميم في المحرم من تسع في خمسين فارسا من العرب ليس فيهم مهاجري ولا أنصاري. فكان يسير الليل ويكمن النهار، فهجم عليهم في صحراء قد حلوا وسرحوا مواشيهم. فلما رأوا الجمع ولوا، فأخذوا منهم أحد عشر رجلا وإحدى عشرة امرأة وثلاثين صبيا. فقدم عشرة من رؤسائهم إلى النبي ﷺ، فرد عليهم الأسارى والسبي.

ثم بعث ﷺ الوليد بن عقبة إلى بني المصطلق من خزاعة لصدقتهم. وكان بينهم وبينه عداوة في الجاهلية، وكانوا قد أسلموا وبنوا المساجد. فلما سمعوا بدنو الوليد، قدم منهم عشرون رجلا

يتلقونه بالجزر والغنم فرحا به وتعظيما لله ولرسوله ﷺ. فحدثه الشيطان أنهم يريدون قتله، فرجع من الطريق قبل أن يصلوا إليه، وأخبر النبي ﷺ أنهم لقوه بالسلاح يحولون بينه وبين الصدقة. فهم عليه الصلاة والسلام أن يبعث إليهم من يغزوهم. وبلغ ذلك القوم فقدم منهم الركب الذين لقوا الوليد، فأخبروا النبي ﷺ الخبر على وجهه. فنزلت هذه الآية: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا**﴾[الحجرات:6] إلى آخر الآية. فقرأ ﷺ الآية، وبعث معهم عباد بن بشر يأخذ صدقات أموالهم، ويعلمهم شرائع الإسلام، ويقرئهم القرآن.

وبعث ﷺ عبد الله بن عوسجة إلى بني عمرو بن حارثة في مستهل صفر يدعوهم إلى الإسلام، فأبوا أن يجيبوا واستخفوا بالصحيفة. فدعا عليهم ﷺ بذهاب العقل. قال راوي الحديث: «فهم إلى اليوم أهل رعدة وعجلة وكلام مختلط».

ثم سرية قطبة بن عامر رضي الله عنه إلى خثعم، قريبًا من تربة من أعمال مكة سنة تسع. وبعث معه عشرين رجلًا، وأمره أن يشن الغارة عليهم، فاقتتلوا قتالًا شديدًا حتى كثر الجرحى في الفريقين جميعًا. وقتل قطبة من قتل، وساقوا النعم والشاء والنساء إلى المدينة. ثم سرية الضحاك بن سفيان الكلابي إلى بني كلاب في ربيع الأول سنة تسع إلى القرطاء، فدعاهم إلى الإسلام فأبوا، فقاتلوهم فهزموهم وغنموا. ثم سرية علقمة بن مجزز المدلجي إلى ناس من الحبشة في ربيع الآخر سنة تسع في ثلاثمائة، فانتهى إلى جزيرة في البحر، فلما خاض إليهم هربوا. فلما رجع، تعلَّم بعض القوم إلى أهليهم،

فأمر عبد الله بن حذافة على من تعجل، وكانت فيه دعابة، فنزلوا ببعض الطريق وأوقدوا نارًا يصطلون عليها. فقال: «عزمت عليكم إلا تواثبتم في هذه النار». فلما همَّ بعضهم بذلك قال: «اجلسوا، إنما كنت أمزح». فذكروا ذلك للنبي ﷺ، فقال: «من أمركم بمعصية فلا تطيعوه»، وفي رواية: «قال: لو دخلوها ما خرجوا منها».

ثم سرية علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى الفلس، وهو صنم طي لهدمه في ربيع الآخر سنة تسع، وبعث معه مائة وخمسين رجلًا من الأنصار على مائة بعير وخمسين فرسًا. فهدمه وغنم سبيا ونعما وشاء، وكان في السبي سفانة بنت حاتم، فأطلقها النبي ﷺ، فكان ذلك سبب إسلام أخيها عدي بن حاتم. ثم سرية عكاشة بن محصن رضي الله عنه إلى الجباب، موضع بالحجاز وهو أرض عذرة وبلي، اسم قبيلتين وقيل أرض فزارة وكلب.

قصة كعب بن زهير مع النبي ﷺ

وكانت فيما بين رجوعه عليه الصلاة والسلام من الطائف وغزوة تبوك. وكان من خبره وأخيه بجير، أن بجيرًا قال لكعب: «اثبت حتى آتي هذا الرجل»، يعني النبي ﷺ، «فأسمع كلامه وأعرف ما عنده». فأقام كعب، ومضى بجير حتى أتى إلى النبي ﷺ فسمع كلامه، فأمن به. وذلك أن زهيرا كان يجالس أهل الكتاب، فسمع منهم أنه قد آن مبعثه ﷺ. ورأى زهير في منامه أنه قد مد سبب من السماء، وأنه قد مد يده ليتناوله ففاته، فتأوله بالنبي الذي يبعث في آخر الزمان، وأنه لا يدركه. وأخبر بنيه بذلك وأوصاهم إن أدركوه أن يسلموا، وكتب بجير إلى كعب أن رسول الله ﷺ قتل رجالًا بمكة ممن كان يهجوه،

وأن من بقي من شعراء قريش هربوا. فإن كانت لك في نفسك حاجة فطر إلى رسول الله ﷺ فإنه لا يقتل أحدًا جاءه تائبًا. وإن كنت لم تفعل فانج إلى نجائك. فكتب له أبياتًا لامه فيها على إسلامه، فأنشدها النبي ﷺ، فقال: «من لقي منكم كعب بن زهير فليقتله». فلما بلغ كعبًا ضاقت به الأرض وأشفق على نفسه، فخرج حتى قدم المدينة، فوضع يده في يد رسول الله ﷺ، وهو لا يعرفه. فقال: «يا رسول الله، إن كعب بن زهير جاء ليستأمنك تائبًا مسلمًا، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به؟» قال رسول الله ﷺ: «نعم». قال: «أنا يا رسول الله كعب بن زهير». فوثب عليه رجل من الأنصار فقال: «يا رسول الله دعني، وعدو الله، أضرب عنقه». فقال ﷺ: «دعه عنك، فقد جاء تائبًا».

ثم قال قصيدته «بانت سعاد»، قال أبو بكر بن الأنباري: «لما وصل إلى قوله:

إن الرسول لنور يستضاء به   مهند من سيوف الله مسلول

رماه ﷺ بردة كانت عليه، وإن معاوية بذل له فيها عشرة آلاف، فقال: «ما كنت لأوثر بثوب رسول الله ﷺ أحدًا». فلما مات كعب، بعث معاوية إلى ورثته بعشرين ألفًا، فأخذها منهم، وقال: «وهي البردة التي عند السلاطين إلى اليوم».

غزوة تبوك

مكان معروف وهو نصف طريق المدينة إلى دمشق، وهي غزوة العسرة، وكانت يوم الخميس في رجب سنة تسع من الهجرة. وكان حرًّا شديدًا وجدبًا كثيرًا، فلذلك لم يُذكر عنها كعادته ﷺ في سائر

الغزوات. خرجوا في قلة من الظهر وفي حر شديد حتى كانوا ينحرون البعير فيشربون ما في كرشه من الماء، فكان ذلك عسرة في الماء والظهر والنفقة، فسميت غزوة العسرة.

سببها أنه بلغه ﷺ من الأنباط الذين يقدمون بالزيت من الشام إلى المدينة أن الروم تجمعت بالشام مع هرقل، فندب ﷺ الناس إلى الخروج وأعلمهم بالمكان الذي يريد ليتأهبوا لذلك. وقال عثمان: «يا رسول الله، هذه مائتا بعير بأقتابها وأحلاسها ومائتا أوقية». فقال ﷺ: «لا يضر عثمان ما عمل بعدها». وروي عن قتادة أنه قال: «حمل عثمان في جيش العسرة على ألف بعير وسبعين فرسًا».

وعن عبد الرحمن بن سمرة قال: «جاء عثمان بن عفان رضي الله عنه بألف دينار في كيسه حين جهز جيش العسرة، فنثرها في حجره ﷺ، فرأيت رسول الله ﷺ يقلبها في حجره ويقول: ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم». رواه الترمذي. وروى الطبراني عن حذيفة أن عثمان بعث في جيش العسرة بعشرة آلاف دينار إلى رسول الله ﷺ، فصبت بين يديه، فجعل ﷺ يقول بيده ويقلبها ظهرًا لبطن، ويقول: «غفر الله لك يا عثمان ما أسررت وما أعلنت، وما هو كائن إلى يوم القيامة. ما يبالي ما عمل بعدها».

ولما تأهب ﷺ للخروج قال قوم من المنافقين: «لا تنفروا في الحر»، فنزل قوله تعالى: ﴿**وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ**﴾[التوبة: 81]. وأرسل عليه الصلاة والسلام إلى مكة وقبائل العرب يستنفرهم، وجاء البكاؤون يستحملونه، فقال عليه الصلاة والسلام: «لا أجد ما أحملكم عليه». وهم الذين قال

الله سبحانه وتعالى فيهم: ﴿**تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ**﴾[التوبة:92]. وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم في التخلف فأذن لهم، وهم اثنان وثمانون رجلًا. وقعد آخرون من المنافقين بغير عذر وإظهار علة جراءة على الله ورسوله، وهو قوله تعالى: ﴿**وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ**﴾[التوبة:90].

واستخلف على المدينة وعلى عباله علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقال له يومئذ: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي». وتخلف نفر من المسلمين من غير شك ولا ارتياب، منهم كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية. وفيهم نزل: ﴿**وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا**﴾[التوبة:118]. وأبو ذر وأبو خيثمة، ثم لحقاه بعد ذلك.

وأمر ﷺ لكل بطن من الأنصار والقبائل من العرب أن يتخذوا لواء وراية، وكان معه عليه الصلاة والسلام ثلاثون ألفًا، وكانت الخيل عشرة آلاف. فلما قدموا تبوك، قال رسول الله ﷺ: «سَتَهَبُّ عليكم الليلة ريح شديدة، فلا يقم أحد منكم، فمن كان له بعير فليشد عقاله». فقام رجل فحملته الريح حتى ألقته بجبل طيء. رواه مسلم.

ولما مر رسول الله ﷺ بالحجر، سَجَّى ثوبه على وجهه، واستحث راحلته، ثم قال: «لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا أنفسهم إلا وأنتم باكون، خوفًا أن يصيبكم ما أصابهم». رواه الشيخان. والحجر ديار ثمود الذين غضب الله عليهم.

ولما كان عليه الصلاة والسلام ببعض الطريق ضلت ناقته، فقال زيد بن اللصيت، وكان منافقًا: «أليس محمد يزعم أنه نبي ويخبركم بأخبار السماء وهو لا يدري أين ناقته؟». فقال رسول الله ﷺ: «إن

رجلًا يقول كذا»، وذكر مقالته، «وإني والله لا أعلم إلا ما علمني الله سبحانه وتعالى، وقد دلني الله تعالى عليها، وهي في الوادي في شعب كذا وكذا، وقد حبستها شجرة بزمامها، فانطلقوا حتى تأتوني بها». فانطلقوا فجاؤوا بها. رواه البيهقي وأبو نعيم.

وفي مسلم عن معاذ بن جبل أنهم وردوا عين تبوك، وهي تبض بشيء من ماء، وأنهم غرفوا منها قليلًا قليلًا حتى اجتمع في شن، ثم غسل ﷺ به وجهه ويديه، ثم أعاده فيها فجرت بماء كثير فاستقى الناس.

ولما انتهى ﷺ إلى تبوك، أتاه صاحب أيلة فصالحه وأعطاه الجزية، وأتاه أهل جرباء وأذرح، وهما بلدان بالشام، فأعطوه الجزية. وكتب لهم ﷺ كتابًا. ووجد هرقل بحمص، فأرسل خالد بن الوليد إلى أكيدر بن عبد الملك النصراني بدومة الجندل في أربعمائة وعشرين فارسًا في رجب سرية، وقال له عليه الصلاة والسلام: «إنك ستجده ليلًا يصيد البقر». فانتهى إليه خالد رضي الله عنه، وقد خرج من حصنه في ليلة مقمرة إلى بقر يطاردها هو وأخوه حسان. فشدت عليهم خيل خالد، فاستأسرا كيدر وقتل أخوه حسان، وهرب من كان معهما، فدخل الحصن، ثم أجار خالد أكيدرا من القتل حتى يأتي به إلى رسول الله ﷺ على أن يفتح له دومة الجندل، ففعل وصالحه على ألفي بعير وثمانمائة فرس وأربعمائة درع وأربعمائة رمح.

وفي هذه الغزوة كتب ﷺ كتابًا في تبوك إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام، فقارب الإجابة ولم يجب. رواه ابن حبان. وفي مسند أحمد أن هرقل كتب من تبوك إلى رسول الله ﷺ: «إني مسلم»، فقال النبي ﷺ: «كذب هو على نصرانيته».

ثم انصرف ﷺ من تبوك بعد أن أقام بها بضع عشرة ليلة، وقيل عشرين، ولم يلقَ كيدًا. وبنى في طريقه مساجد. وأقبل ﷺ حتى نزل بذي أوان بينها وبين المدينة ساعة، جاءه خير مسجد الضرار من السماء، فأرسل من هدمه وحرقه بعد أن أنزل الله فيه: ﴿**وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا**﴾[التوبة:107] الآية. وكان الذين اتخذوه اثني عشر رجلًا يضارون به مسجد قباء، وذلك أنهم قالوا في طائفة من المنافقين: «نبني مسجدًا فنقيل فيه فلا نحضر خلف محمد».

ولما دنا ﷺ من المدينة خرج الناس لتلقيه، وخرج النساء والصبيان والولائد يقلن: «طلع البدر علينا من ثنيات الوداع، وجب الشكر علينا ما دعا لله داع». وقال ﷺ: «إن في المدينة أقوامًا، ما سرتم سيرًا ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم، حبسهم العذر».

ولما أشرف ﷺ على المدينة، قال: «هذه طابة، وهذا أحد، جبل يحبنا ونحبه». ولما دخل ﷺ قال العباس: «يا رسول الله، أتأذن لي أمدحك؟». قال: «قل، لا يفضض الله فاك». فقال قصيدة منها: «وأنت لما ولدت أشرقت الأرض وضاءت بنورك الأفق، فنحن في ذلك الضياء وفي النور وسبل الرشاد نخترق».

وجاءه ﷺ من كان تخلف عنه، فخلفوا له فعذرهم واستغفر لهم، وأرجأ أمر كعب بن مالك وصاحبيه هلال بن أمية ومرارة بن ربيعة حتى نزلت توبتهم. وعن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿**وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا**﴾[التوبة:102] قال: «كانوا عشرة رهط تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك.

فلما رجع رسول الله ﷺ، أوثق سبعة منهم أنفسهم بسواري

المسجد، وكان ممر النبي ﷺ إذا رجع في المسجد عليهم، فقال: «من هؤلاء؟». قالوا: «هذا أبو لبابة وأصحاب له، تخلفوا عنك يا رسول الله حتى تطلقهم وتعذرهم». فقال: «أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى يكون الله هو الذي يطلقهم. رغبوا عني وتخلفوا عن الغزو، فأنزل الله تعالى: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ [التوبة:102]». فلما نزلت، أرسل إليهم النبي ﷺ، فأطلقهم وعذرهم.

ثم (حجة أبي بكر الصديق رضي الله عنه) بالناس سنة تسع في ذي القعدة، وكان معه ثلاثمائة رجل من المدينة وعشرون بدنة. بعثه ﷺ يؤذن في الناس يوم النحر أن لا يحج بعد العام شرك، ولا يطوف بالبيت عريان. ثم أردفه ﷺ بعلي رضي الله عنه، وأمره أن يؤذن ببراءة، فقرأها على الناس حتى ختمها. وأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ [التوبة:28]. فلم يحج في العام القابل، الذي حج فيه رسول الله ﷺ حجة الوداع، مشرك.

ثم بعث ﷺ أبا موسى ومعاذاً إلى اليمن قبل حجة الوداع، كل واحد منهما على مخلاف (أي إقليم)، واليمن مخلافان. ثم قال: «يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا». وقال لمعاذ: «إنك ستأتي قوما أهل كتاب، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله. فإن هم أطاعوا لك بذلك، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة. فإن هم أطاعوا لك بذلك، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم. فإن هم أطاعوا لك بذلك، فإياك وكرائم أموالهم،

واتق دعوة المظلوم فإنها ليس بينها وبين الله حجاب». وكانت جهة معاذ العليا إلى صوب عدن، وكانت جهة أبي موسى السفلى.

ثم أرسل ﷺ خالد بن الوليد قبل حجة الوداع في ربيع الأول سنة عشر إلى بني عبد المدان، قبيلة بنجران، فأسلموا. ثم أرسل علي بن أبي طالب إلى اليمن في رمضان سنة عشر، وعقد له لواء وعممه بيده. قال علي رضي الله عنه: «بعثني النبي ﷺ إلى اليمن، فقلت: يا رسول الله، تبعثني إلى قوم أسن مني وأنا حديث السن، لا أبصر القضاء». فوضع يده في صدري وقال: «اللهم ثبت لسانه واهد قلبه». وقال: «يا علي، إذا جلس إليك الخصمان فلا تقض بينهما حتى تسمع من الآخر». فخرج في ثلاثمائة فارس، ففرق أصحابه، فأتوا بنهب وغنائم ونساء وأطفال ونعم وشاء وغير ذلك. ثم لقي جمعهم، فدعاهم إلى الإسلام، فأبوا ورموا بالنبل. ثم حمل عليهم علي رضي الله عنه بأصحابه، فقتل منهم عشرين رجلا، فتفرقوا وانهزموا. فكف عن طلبهم، ثم دعاهم إلى الإسلام، فأسرعوا وأجابوا. ثم قفل فوافى النبي ﷺ بمكة، قد قدمها للحج سنة عشر.

حجة الوداع

ثم حج ﷺ حجة الوداع، وتسمى حجة الإسلام وحجة البلاغ. فخرج ﷺ من المدينة يوم السبت لخمس ليالٍ بقين من ذي القعدة، وخرج معه تسعون ألفًا، ويقال مائة ألف وأربعة عشر ألفًا، ويقال أكثر من ذلك. ويأتي الكلام على حجة الوداع في مقصد العبادات إن شاء الله تعالى.

ثم سرية أسامة بن زيد إلى أهل أبنى بالشراة، ناحية بالبلقاء، وكانت يوم الإثنين لأربع ليالٍ بقين من صفر سنة إحدى عشرة، وهي

آخر سرية جهزها النبي ﷺ. وأول شيء جهزه أبو بكر الصديق رضي الله عنه لغزو الروم مكان قتل أبيه زيد. فلما كان يوم الأربعاء بدأ برسول الله ﷺ وجعه، فحم وصداع. فلما أصبح يوم الخميس عقد لأسامة لواء بيده، فخرج بلوائه معقودًا، فدفعه إلى بريدة الأسلمي. فعسكر بالجرف، فلم يبق أحد من وجوه المهاجرين والأنصار إلا انتدب فيهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما أجمعين. وجاء المسلمون الذين يخرجون مع أسامة يودعون رسول الله ﷺ، ويخرجون إلى العسكر بالجرف.

فلما كان يوم الأحد اشتد برسول الله ﷺ وجعه، فدخل أسامة من معسكره والنبي ﷺ مغمور. فطأطأ أسامة فقبله، ورسول الله ﷺ لا يتكلم. فجعل يرفع يديه إلى السماء ثم يضعهما على أسامة. قال أسامة: «فعرفت أنه يدعو لي». فرجع أسامة إلى معسكره، ثم دخل يوم الإثنين، وأصبح رسول الله ﷺ مفيقًا. فودعه أسامة وخرج إلى معسكره، فأمر الناس بالرحيل.

فبينما هو يريد الركوب إذا رسول أمه، أم أيمن، قد جاءه يقول: «إن رسول الله ﷺ يموت». فأقبل هو وعمر وأبو عبيدة، فتوفي ﷺ يوم الإثنين حين زاغت الشمس، لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول، واعتمد الحافظ ابن حجر أنها في ثاني ربيع الأول.

ولما توفي ﷺ دخل المسلمون الذين عسكروا بالجرف إلى المدينة، ودخل بريدة بلواء أسامة معقودًا حتى أتى به باب رسول الله ﷺ، فغرزه عند بابه عليه الصلاة والسلام. فلما يريع أبو بكر الصديق

﵁ أمر بريدة أن يذهب باللواء إلى بيت أسامة ليمضي به إلى وجهته. فمضى إلى معسكرهم الأول، وخرج أسامة هلال ربيع الآخر سنة إحدى عشرة إلى أهل أبنى. فشن عليهم الغارة، فقتل من أشرف له، وسبى من قدر عليه، وحرق منازلهم ونخلهم، وقتل قاتل أبيه في الغارة. ثم رجع إلى المدينة ولم يصب أحد من المسلمين. وخرج أبو بكر في المهاجرين وأهل المدينة يتلقونه سرورًا. فجميع سراياه ﷺ نحو الستين، ومغازيه عليه الصلاة والسلام سبع وعشرون.

المقصد الثاني

في أسمائه الشريفة ﷺ وذكر أولاده الكرام الطاهرين، وأزواجه الطاهرات أمهات المؤمنين، وأعمامه وعماته، وإخوته من الرضاعة، وجداته، وخدمه ومواليه، وحرسه، وأمرائه، ورسله، وكتابه، وكتبه إلى الملوك وغيرهم، ومؤذنيه، وخطبائه، وحداته، وشعرائه، وآلات حروبه، ودوائه، والوافدين إليه ﷺ. وفيه عشرة فصول.

الفصل الأول: أسماؤُه الشريفة صلى الله عليه وسلم

اعلم أن كثرة الأسماء تدل على شرف المسمى، وقد سمى الله تعالى نبينا ﷺ بأسماء كثيرة في القرآن العظيم وغيره من الكتب السماوية، وعلى ألسنة أنبيائه عليهم الصلاة والسلام. وقد تعرض جماعة لتعدادها وبلغوا بها عددًا مخصوصًا، فمنهم من بلغ تسعة وتسعين كعدد أسماء الله الحسنى الواردة في الحديث. قال القاضي عياض: «وقد خصه الله تعالى بأن سماه من أسمائه الحسنى بنحو من ثلاثين اسمًا»، وقال ابن دحية: «إذا فحص عن جملتها من الكتب المتقدمة والقرآن والحديث لبلغت الثلاثمائة». وقال أبو بكر بن العربي: «قال بعض الصوفية لله تعالى ألف اسم، وللنبي ﷺ ألف اسم». وذكر منها صاحب «المواهب» التي هي أصل هذا الكتاب ما يزيد على الأربعمائة اسم، فمنها: اسمه محمد ﷺ وهو أشهر أسمائه عليه الصلاة والسلام. سماه الله سبحانه وتعالى به قبل الخلق بألفي عام كما ورد من حديث أنس، وبه سماه جده عبد المطلب، وقد قيل له: «ما سميت ولدك؟» قال: «محمدًا»، فقيل له: «كيف سميته باسم ليس لأحد من آبائك وقومك؟» فقال: «لأني أرجو أن يحمده أهل الأرض كلهم»، وذلك لرؤيا كان رآها عبد المطلب. فقد رأى في المنام كأن سلسلة من فضة خرجت من ظهره، لها طرف في السماء وطرف في المشرق وطرف في المغرب، ثم عادت كأنها شجرة على كل ورقة منها نور، وإذا أهل المشرق والمغرب يتعلقون بها، فقصها،

فعبرت له بمولود يكون من صلبه، يتبعه أهل المشرق والمغرب، ويحمده أهل السماء وأهل الأرض. فلذلك سماه «محمدًا»، مع ما حدثته به أمه آمنة حين قال لها الملك: «إنك قد حملت بسيد هذه الأمة، فإذا وضعتيه فسميه محمدًا».

ومن خصائص هذا الاسم كونه على أربعة أحرف ليوافق اسم الله تعالى، وأنه على شكل صورة الآدمي، فالميم الأول رأسه، والحاء جناحاه، والميم الثاني سرته، والدال رجلاه. ويظهر ذلك في الخط القديم الكوفي. قيل: «ولا يدخل النار من يستحق دخولها، أعاذنا الله منها، إلا ممسوخ الصورة إكرامًا لصورة لفظ محمد». وأنه مشتق من اسم الله تعالى «محمود» كما قال حسان:

«أغر عليه للنبوة خاتم، من الله من نور يلوح ويشهد».

وضم الإله اسم النبي إلى اسمه إذا قال في الخمس المؤذن: «أشهد».

وشق له من اسمه ليجله، فقال: «فذو العرش محمود، وهذا محمد».

وقال القاضي عياض أيضًا: «أحمد بمعنى أكبر من حمد وأجل من حمد».

ومنها اسمه «محمود» ﷺ، وهو شبيه باسمه تعالى «الحميد»، لأن معناه المحمود. وهذا الاسم الشريف وقع في زبور داود عليه السلام.

ومنها اسمه «الماحي» ﷺ، فسره في الحديث بمحو الكفر. ولم يُمح الكفر بأحد من الخلق مثل ما محي بالنبي ﷺ، فإنه بعث

وأهل الأرض كلهم كفار، ما بين عباد أوثان ويهود ونصارى وصابئة ودهريّة وعباد كواكب وعباد نار، فمحاها الله تعالى برسوله عليه الصلاة والسلام، حتى أظهر دينه على كل دين، وبلغ دينه ما بلغ الليل والنهار، وسارت دعوته مسير الشمس في الأقطار.

ومنها اسمه «الفاتح» ﷺ، لأن الله فتح به ﷺ باب الهدى إذ كان مرتجى، وفتح به أعينًا عميا، وآذانًا صمًا، وقلوبًا غلفًا، وفتح أمصار الكفار، وفتح به أبواب الجنة، وفتح به طرق العلم النافع والعمل الصالح في الدنيا والآخرة.

ومنها اسمه «الحاشر» ﷺ، فسر أيضًا في الحديث بأنه الذي يحشر الناس على قدمه، أي يقدمهم وهم خلفه، وهو أول من تنشق عنه الأرض فيحشر الناس على أثره، وإليه يلجؤون في محشرهم ﷺ.

ومنها اسمه «العاقب» ﷺ، وهو الذي جاء عقب الأنبياء، فليس بعده نبي، لأن العاقب هو الآخر.

ومنها اسمه «المقفي» ﷺ، ومعناه كالعاقب، أي فَقَاء آثار من سبقه من الرسل، وكان خاتمهم.

ومنها اسمه «الأول» ﷺ، لأنه أول النبيين خلقًا، وكما أنه أول في البدء، هو أول في العود. فهو أول من تنشق عنه الأرض، وأول من يدخل الجنة، وأول شافع، وأول مشفع، كما كان في أوليات البدء في عالم الذر أول مجيب، إذ هو أول من قال: «بلى» حين أخذ ربه الميثاق على الذرية الآدمية، فأشهدهم على أنفسهم: «ألست بربكم؟» فهو ﷺ الأول في ذلك كله على الإطلاق.

ومنها اسمه «الآخر» ﷺ، لأنه آخر الأنبياء في البعث.

ومنها اسمه «الخاتم» ﷺ، لأن الله تعالى ختم به النبيين، كما أنه أولهم، قال عليه الصلاة والسلام: «كنت أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث».

ومنها اسمه «الظاهر» ﷺ، لأنه ظهر على جميع الظاهرات ظهورًا، وظهر على الأديان دينه.

ومنها اسمه «الباطن» ﷺ، لأنه المطلع على بواطن الأمور بواسطة ما يوحيه الله سبحانه وتعالى إليه.

ومنها اسماه «الرؤوف الرحيم» ﷺ، قال الله تعالى: ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ**﴾[التوبة:128]، والرؤوف من الرأفة، وهي أرق من الرحمة، قاله أبو عبيدة، والرحيم من الرحمة. وقيل: «رؤوف بالمطيعين، رحيم بالمذنبين».

ومنها اسمه «الحق» ﷺ، ومعناه ضد الباطل، والمتحقق صدقه وأمره. قال تعالى: ﴿**حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ**﴾[الزخرف:29] وقال: ﴿**قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ**﴾[يونس:108]، قيل هو محمد ﷺ، وقيل القرآن.

ومنها اسمه «المبين» ﷺ، ومعناه البين أمره ورسالته، والمبين عن الله ما بعث به. كما قال تعالى: ﴿**لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ**﴾[النحل:44].

ومنها اسمه «الجبار» ﷺ، سمي به ﷺ في مزامير داود عليه السلام في قوله في المزمور الرابع والأربعين: «تقلد أيها الجبار سيفك، فإن ناموسك وشرائعك مقرونة بهيبة يمينك». فهو ﷺ الجبار الذي جبر الخلق بالسيف على الحق وصدهم عن الكفر جبرا. قال القاضي

عياض: «وقد نفى الله تعالى عنه في القرآن جبرية التكبر التي لا تليق به»، فقال: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾[ق:45].

ومنها «المزمل» ﷺ، ومعناه المتلفف في ثيابه. قال السدي: معناه: «يا أيها النائم»، وكان متلففًا في ثياب نومه.

ومنها «المدثر» وهو المتلفف بالدثار، وهو ما يلقيه عليه الإنسان من كساء أو غيره. روي أنه عليه الصلاة والسلام قال: «كنت بحراء فنوديت، فنظرت عن يميني وشمالي فلم أرَ أحدًا، ونظرت فوقي فإذا هو على عرش بين السماء والأرض، يعني الملك الذي ناداه، فرعبت، فرجعت إلى خديجة فقلت: دَثروني، دثروني». فنزل جبريل، فقال: «يا أيها المدثر».

ومنها اسمه «النقيب» ﷺ، ومعناه شاهد القوم، وناظرهم، وضمينهم.

ومنها اسمه «العظيم» ﷺ، ووقع في أول سفر من التوراة عن إسماعيل: «وسيلد عظيمًا لأمة عظيمة».

ومنها «طه»، قيل معناه: يا طاهر، يا هادي.

ومنها «يس»، عن جعفر الصادق معناه: «يا سيد»، وعن أبي بكر الوراق: «يا سيد البشر».

ومنها «النبي» والرسول، واختلف هل هما بمعنى أو بمعنيين، فقال الأولون: الأول، وقال آخرون: بالثاني. فعلى هذا، النبي كُلف بما يخصه، والرسول بذلك وبتبليغ غيره. فالرسول أخص مطلقًا.

ومنها «النبي الملاحم» وهي الحروب، وفيه إشارة إلى ما بعث به ﷺ من القتال. ولم يجاهد نبي وأمته قط ما جاهد ﷺ وأمته.

ومنها «مقيم السنة»، ففي كتاب «الشفاء» قال داود عليه السلام: «اللهم ابعث لنا محمدًا مقيم السنة بعد الفترة».

ومنها «عبد الله»، سماه الله تعالى به في أشرف مقاماته، كقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:1]، وغيرها من الآيات. ولما خير ﷺ بين أن يكون نبيًا ملكًا أو نبيًا عبدًا، اختار أن يكون نبيًا عبدًا. وكان ﷺ يقول: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى، ولكن قولوا: عبد الله ورسوله».

ومنها «ماذ ماذ»، نقل العلامة الحجازي في حاشيته على «الشفاء» عن السهيلي ضم الميم وإشمام الهمزة ضمة بين الواو والألف ممدودة. وقال: نقلته عن رجل أسلم من علماء بني إسرائيل، وقال معناه «طيب طيب». ولا ريب أنه ﷺ أطيب الطيبين.

ومنها «البار قليط» بالباء، ويقال الفار قليط، ووقع في إنجيل يوحنا. ومعناه «روح الحق». وقال ابن الأثير في «النهاية»: «معناه الذي يفرق بين الحق والباطل، والذي يفرق بين المؤمنين والكافرين بتصديقه وتكذيبه».

ومن أسمائه ﷺ أيضًا: السراج، النور، المنير، المصباح، النجم، القمر، الشمس، السيد، السعيد، المسعود، الرشيد، الخبير، المذكر، المبلغ، الميسر، المبشر، المنذر، العزيز، البصير، البر، البشير، النذير، الأمي، المكي، المدني، العربي، الحجازي، التهامي، النقي، التقي، الوفي، الصفي، الولي، المولى، الأمين، المأمون، المؤتمن، الحبيب، الحسيب، الطيب، الطاهر، المطهر، الشاكر، الشكور، الشارع، الشافع، الناصح، الصالح، المصلح، الضحاك، المبارك،

الحامد، الحماد، الجواد، الكريم، الحكيم، العليم، الحليم، المؤيد، المختار، المصطفى، المخلص، الهدى، المعصوم، الوجيه، الوسيلة، العفو، الصفوح، العطوف، الهادي، المقدس، البرهان، الحنيف، الخليل، الخليفة، المكين، الصفوة، الصادق، المصدوق، صاحب الحوض المورود، صاحب المقام المحمود، صاحب اللواء، صاحب المعجزات، مفتاح الجنة، رسول الرحمة، نبي التوبة، إمام الخير، إمام المتقين، إمام النبيين، أكرم الناس، خطيب الأنبياء، خير البرية، خيرة الله، دار الحكمة، دليل الخيرات، رحمة العالمين، روح القدس، علم اليقين، العروة الوثقى، مدينة العلم، هدية الله، عبد الكريم ﷺ.

وعن كعب الأحبار أنه قال: «اسم النبي ﷺ عند أهل الجنة عبد الكريم، وعند أهل النار عبد الجبار، وعند أهل العرش عبد الحميد، وعند سائر الملائكة عبد المجيد، وعند الأنبياء عبد الوهاب، وعند الشياطين عبد القهار، وعند الجن عبد الرحيم، وفي الجبال عبد الخالق، وفي البر عبد القادر، وفي البحر عبد المهيمن، وعند الحيتان عبد القدوس، وعند الهوام عبد الغياث، وعند الوحوش عبد الرزاق، وعند السباع عبد السلام، وعند البهائم عبد المؤمن، وعند الطيور عبد الغفار». وفي التوراة «موذ مود»، وفي الإنجيل «طاب طاب»، وفي الصحف «عاقب»، وفي الزبور «فاروق»، وعند الله «طه»، «يس»، وعند المؤمنين «محمد ﷺ».

وكنيته «أبو القاسم»، لأنه يقسم الجنة بين أهلها ﷺ.

الفصل الثاني: أولاده الكِرام عليه وعليهم الصلاة والسلام

أما بناته صلى الله عليه وعليهن وسلم فأربع: زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة. وأما أبناؤه عليه وعليهم الصلاة والسلام فثلاثة: القاسم، وإبراهيم، وعبد الله، وزاد بعضهم الطيب، والمطيب، والطاهر، والمطهر. أما القاسم ﵁ فهو أول ولد وُلِد له عليه الصلاة والسلام قبل النبوة، وبه كان يكنى، وعاش حتى مشى، وقيل: عاش سنتين.

أما زينب ﵂ فهي أكبر بناته وُلدت في سنة ثلاثين من مولد النبي ﷺ، وأدركت الإسلام وهاجرت، وماتت سنة ثمان من الهجرة عند زوجها وابن خالتها أبي العاص لقيط بن الربيع. وكانت هاجرت قبله وتركته على شركه ثم أسلم فردها النبي ﷺ بالنكاح الأول، وقيل: بنكاح جديد، وولدت له عليًّا، مات صغيرًا، وكان رديف رسول الله ﷺ على ناقته يوم الفتح. وولدت له أيضًا أمامة التي حملها ﷺ في صلاة الصبح على عائقه، وكان إذا ركع وضعها، وإذا رفع رأسه من السجود أعادها. وتزوجها علي ﵁ بعد موت فاطمة.

أما رقية ﵂ فولدت سنة ثلاث وثلاثين من مولد النبي ﷺ، وتزوجها عثمان بن عفان ﵁ وهاجر بها الهجرتين، وكانت ذات جمال رائع، وتوفيت والنبي ﷺ ببدر. ولما توفيت رقية، خطب عثمان ابنة عمر، حفصة، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فقال: «يا عمر، أدلك

على خير لك من عثمان، وأدل عثمان على خير له منك؟» قال: نعم يا نبي الله. قال: «تزوجني ابنتك وأزوج عثمان ابنتي»، فزوجه ﷺ أم كلثوم. وروي أنه عليه الصلاة والسلام قال لعثمان: «والذي نفسي بيده لو أن عندي مائة بنت يمتن واحدة بعد واحدة لزوجتك أخرى. هذا جبريل أخبرني أن الله يأمرني أن أزوجكها». وكان تزوج عثمان بأم كلثوم سنة ثلاث من الهجرة، وماتت سنة تسع، وجلس ﷺ على القبر وعيناه تدرفان.

أما فاطمة الزهراء البتول رضي الله تعالى عنها، فولدت سنة إحدى وأربعين من مولد النبي ﷺ، وقال ابن الجوزي: «ولدت قبل النبوة بخمس سنين»، وروي مرفوعًا: «إنما سميت فاطمة لأن الله تعالى قد فطمها وذريتها عن النار يوم القيامة»، وسميت بتولا لانقطاعها عن نساء زمانها فضلا ودينًا وحسنًا، وقيل: لانقطاعها عن الدنيا إلى الله. وتزوجت بعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه في السنة الثانية بأمر الله سبحانه وتعالى ووحيه، ولها خمس عشرة سنة وخمسة أشهر ونصف، ولعليٍّ إحدى وعشرون سنة وخمسة أشهر. قال أبو عمر: «وفاطمة وأم كلثوم أفضل بنات رسول الله ﷺ»، وكانت فاطمة رضي الله عنها أحب أهله ﷺ إليه. وكان يقبلها في فيها ويميها لسانه، وإذا أراد سفرًا كان آخر عهده بها، وإذا قدم أول ما يدخل عليها. وقال عليه الصلاة والسلام: «فاطمة بضعة مني، فمن أغضبها أغضبني» رواه البخاري. وقال لها: «أو ما ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين؟» رواه مسلم. وفي رواية أحمد: «أفضل نساء أهل الجنة». وتوفيت بعده عليه الصلاة والسلام بستة أشهر ليلة الثلاثاء لثلاث خلون من شهر

رمضان سنة إحدى عشرة، وولدت لعلي حسنا وحسينا ومحسنا، فمات محسن صغيرًا، وأم كلثوم وزينب. ولم يكن لرسول الله ﷺ عقب إلا من ابنته فاطمة، فانتشر نسله الشريف منها من جهة السبطين الحسن والحسين فقط.

أما عبد الله ابن النبي ﷺ، فقيل مات صغيرًا بمكة، واختلف هل وُلد قبل النبوة أو بعدها، وهل هو الطيب والطاهر؟ والصحيح أنهما لقبان له.

أما إبراهيم رضي الله عنه فمن مارية القبطية، وُلد في ذي الحجة سنة ثمان من الهجرة. وكانت سلمى زوج أبي رافع مولاة رسول الله ﷺ، قابلته فبشر أبو رافع به النبي ﷺ فوهب له عبدًا، وعن عنه يوم سابعه بكبشين، وحلق رأسه أبو هند، وسماه النبي ﷺ يومئذ، وتصدق بزنة شعره ورقا (أي فضة) على المساكين ودفنوا شعره في الأرض. وفي البخاري من حديث أنس بن مالك، أنه ﷺ قال: «وُلِد لي الليلة غلام سميته باسم أبي، إبراهيم». وتنافست الأنصار في من يرضع إبراهيم عليه السلام، فإنهم أحبوا أن يفرغوا مارية له ﷺ، فأعطاه لأم بردة بنت المنذر زوجة البراء بن أوس، فكانت ترضعه بلبن ابنها في بني مازن بن النجار، وترجع به إلى أمه، وأعطى ﷺ أم بردة قطعة نخل.

عن أنس قال: «ما رأيت أحدًا أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ». كان إبراهيم مسترضعًا في عوالي المدينة وكان ينطلق ونحن معه فيدخل البيت، وكان ظئره قينا فيقبله ثم يرجع، رواه أبو حاتم. زاد البخاري: «ويشمه». وتوفي وله سبعون يومًا، وقيل أكثر من ذلك، وصلى عليه النبي ﷺ بالبقيع، وقال: «ندفنه عند فرطنا عثمان بن

مظعون»، وجلس النبي ﷺ على شفير قبره، ورض وعلم بعلامة، وهو أول قبر رش.

وفي حديث جابر، أخذ ﷺ بيد عبد الرحمن بن عوف، فأتى به النخل، فإذا ابنه إبراهيم يجود بنفسه. فأخذه رسول الله ﷺ فوضعه في حجره، ثم ذرفت عيناه، ثم قال: «إنا بك يا إبراهيم لمحزونون، تبكي العين، ويحزن القلب، ولا نقول ما يسخط الرب». وانكسفت الشمس يوم موته، فقال الناس: «إنما كسفت لموت إبراهيم»، فقال عليه الصلاة والسلام: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد». رواه الشيخان.

عن ابن عباس رضي الله عنهما، لما مات إبراهيم ابن النبي ﷺ، قال: «إن له مرضعًا في الجنة، ولو عاش لكان صديقًا نبيًا، ولو عاش لأعتقت أخواله من القبط وما استرق قبطي».

الفصل الثالث: أزواجه الطاهرات وسراريه المطهرات صلى الله عليه وسلم

قال الله ﷻ: ﴿**النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ**﴾[الأحزاب:6]. وذلك في تحريم نكاحهن ووجوب احترامهن، لا في نظر وخلوة، وفضلن على النساء، وثوابهن وعقابهن مضاعفان. ولا يحل سؤالهن إلا من وراء حجاب، وأفضلهن خديجة وعائشة رضي الله عنهما، وفي أفضلهما خلاف. واختلف في عدة زوجاته ﷺ، والمتفق عليه أنهن إحدى عشرة امرأة: ستة من قريش: خديجة بنت خويلد، وعائشة بنت أبي بكر، وحفصة بنت عمر، وأم حبيبة بنت أبي سفيان، وأم سلمة بنت أبي أمية، وسودة بنت زمعة. وأربع عربيات: زينب بنت جحش من بني أسد بن خزيمة، وميمونة بنت الحارث الهلالية، وزينب بنت خزيمة الهلالية (أم المساكين)، وجويرية بنت الحارث المصطلقية. وواحدة غير عربية، من بني إسرائيل وهي صفية بنت حيي من بني النصير. ومات عنده ﷺ منهن اثنتان: خديجة وزينب أم المساكين، ومات ﷺ عن تسع.

أما أم المؤمنين خديجة بنت خويلد ﵂، فقد تزوجها رسول الله ﷺ وهي ثيب ولها من العمر أربعون سنة، وكان منه عليه الصلاة والسلام خمسًا وعشرين سنة. وأصدقها عشرين بكرة، وقيل: اثنتي عشرة أوقية ذهبًا. وهي أول من آمن من النساء. وقال جبريل للنبي ﷺ: «اقرأ عليها السلام من ربها ومني، وبشرها ببيت في الجنة

من قصب لا صخب فيه ولا نصب»، والقصب اللؤلؤ المجوف، والصخب المنازعة برفع الصوت، والنصب التعب. وكان ﷺ لا يسمع شيئًا من رد عليه وتكذيب له عليه الصلاة والسلام فيحزنه ذلك، إلا فرج الله عنه بخديجة إذا رجع إليها تثبته وتخفف عنه وتصدقه وتهون عليه أمر الناس حتى ماتت.

قال شيخ الإسلام في شرح البهجة: «وأفضلهن خديجة وعائشة، وفي أفضلهما خلاف.» صحح ابن العماد تفضيل خديجة لما ثبت أنه ﷺ قال لعائشة حين قالت: «قد رزقك الله خيرًا منها»، قال: «لا والله ما رزقني خيرًا منها، آمنت بي حين كفر بي الناس، وصدقتني حين كذبني الناس، وأعطتني ما لها حين حرمني الناس.» وسئل ابن داود فأجاب بأفضلية خديجة على عائشة، وبأن ابنتها فاطمة أفضل منها. وقال: «إن رسول الله ﷺ قال: فاطمة بضعة مني، فلا أعدل ببضعة رسول الله ﷺ أحدًا.» ويشهد له قوله ﷺ: «أما ترضين أن تكوني سيدة نساء أهل الجنة إلا مريم.» وسئل السبكي عن ذلك، فقال: «الذي نختاره وندين الله به أن فاطمة بنت محمد ﷺ أفضل، ثم أمها خديجة، ثم عائشة رضي الله عنهن.»

قال أبو أمامة بن النقاش: «إن سبق خديجة وتأثيرها في أول الإسلام، وموازرتها ونصرتها، وقيامها في الدين لله بمالها ونفسها، لم يشركها فيه أحد لا عائشة ولا غيرها من أمهات المؤمنين، وتأثير عائشة في حمل الدين وتبليغه إلى الأمة ما لم نشركها فيه خديجة ولا غيرها مما تميزت به عن غيرها.» وماتت خديجة بمكة قبل الهجرة بثلاث سنين ودفنت في الحجون وهي ابنة خمس وستين سنة. ولم

يكن يومئذ يصلى على الجنازة، وكانت مدة مقامها مع النبي ﷺ خمسا وعشرين سنة.

وأما أم المؤمنين سودة بنت زمعة رضي الله عنها، فأسلمت قديمًا وبايعت، وكانت تحت ابن عمها السكران بن عمرو. أسلم معها قديمًا وهاجرا جميعًا إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية. فلما قدما مكة مات زوجها وتزوجها ﷺ بمكة بعد موت خديجة قبل أن يعقد على عائشة، وقيل بعد أن عقد عليها ودخل بها قبل عائشة. ولما كبرت سودة، أراد ﷺ طلاقها، فسألته أن لا يفعل، وجعلت يومها لعائشة. فأمسكها وتوفيت بالمدينة في شوال سنة أربع وخمسين.

وأما أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنهما، فخطبها النبي ﷺ وأصدقها فيما قاله ابن إسحاق أربعمائة درهم، وتزوجها بمكة في شوال سنة عشر من النبوة وقبل الهجرة بثلاث سنين، ولها ست سنين، وأعرس بها بالمدينة في شوال سنة اثنتين من الهجرة ولها تسع سنين. قال أبو عمرو: «كان نكاحه عليها الصلاة والسلام لها في شوال، وابتنى بها في شوال، وكانت تحب أن تدخل النساء من أهلها وأحبتها في شوال.» وكانت أحب نساء رسول الله ﷺ إليه، وكانت إذا هويت شيئًا تابعها عليه، وقال لها: «رأيتك في المنام ثلاث ليال، جاءني بك الملك في سرقة من حرير، يقول: هذه امرأتك، فأكشف عن وجهك، فأقول: إن يك من عند الله يمضه.» والسرقة بوزن قصبة شقة حرير بيضاء. وكانت مدة مقامها معه عليه الصلاة والسلام تسع سنين، ومات عنها ﷺ ولها ثماني عشرة سنة. ولم يتزوج بكرًا غيرها، وكانت فقيهة عالمة فصيحة كثيرة الحديث عن رسول الله ﷺ،

عارفة بأيام العرب وأشعارها. روى عنها جماعة كثيرة من الصحابة والتابعين، وماتت بالمدينة ليلة الثلاثاء لسبع عشرة خلت من رمضان سنة ثمان وخمسين، وهي ابنة ست وستين سنة، وكانت تكنى أم عبد الله بابن أختها عبد الله بن الزبير وما ولدت قط.

وأما أم المؤمنين حفصة بنت عمر رضي الله عنهما، فقد أسلمت وهاجرت، وكانت قبل رسول الله ﷺ تحت خنيس بن حذافة السهمي. هاجرت معه، ومات عنها بعد غزوة بدر، ثم تزوجها رسول الله ﷺ في سنة ثلاث من الهجرة وطلقها تطليقة واحدة ثم راجعها. نزل عليه الوحي: «راجع حفصة فإنها صوامة قوامة، وإنها زوجتك في الجنة.» روى عنها جماعة من الصحابة والتابعين، وماتت في شعبان سنة خمس وأربعين في خلافة معاوية، وهي ابنة ستين سنة.

وأما أم المؤمنين أم سلمة بنت أبي أمية رضي الله عنها واسمها هند، فكانت قبل رسول الله ﷺ تحت أبي سلمة بن عبد الأسد، وكانت هي وزوجها أول من هاجر إلى أرض الحبشة. وهي أول ظعينة دخلت المدينة مهاجرة، ومات أبو سلمة سنة أربع من الهجرة. فخطبها أبو بكر فأبت، وخطبها عمر فأبت، فأرسل إليها رسول الله ﷺ، فقالت: مرحبًا برسول الله ﷺ، وقالت لأبنها: «زوج رسول الله ﷺ، فزوجه.» وكانت من أجمل النساء، وماتت عن أربع وثمانين سنة سنة خمسين ودفنت بالبقيع.

وأما أم المؤمنين أم حبيبة بنت أبي سفيان رضي الله عنهما واسمها رملة، فكانت تحت عبيد الله بن جحش وهاجر بها إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية، ثم تنصر وارتد عن الإسلام، ومات

هناك. وثبتت أم حبيبة على الإسلام، فبعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي ليخطبها عليه فزوجها إياه وأصدقها عنه أربعمائة دينار، وبعثها إليه. وقد أمر النجاشي جعفر بن أبي طالب ومن هناك من المسلمين فحضروا فخطب النجاشي فقال: «الحمد لله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون. أما بعد، فقد أجبت إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ وزوجته أم حبيبة بنت أبي سفيان، فبارك الله لرسول الله ﷺ.» ودفع الدنانير إلى خالد بن سعيد بن العاص فقبضها، ثم أرادوا أن يقوموا فقال: «اجلسوا، فإن سنة الأنبياء إذا تزوجوا أن يؤكل طعام على التزويج.» فدعا بطعام فأكلوا، ثم تفرقوا، وماتت بالمدينة سنة أربع وأربعين.

وأما أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها، وأمها أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم، فقد كان رسول الله ﷺ زوجها لزيد بن حارثة. فمكثت عنده مدة، ثم طلقها. فلما انقضت عدتها منه، قال ﷺ لزيد: «اذهب فاذكرني لها.» قال: فذهبت إليها، فجعلت ظهري إلى الباب، فقلت: «يا زينب، بعث رسول الله ﷺ يذكرك.» فقالت: «ما كنت لأحدث شيئًا حتى آمر ربي عز وجل.» فقامت إلى مسجد لها، فأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿**فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا**﴾ [الأحزاب:37]. فجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن، أخرجه مسلم. وكانت تفتخر على أزواج النبي ﷺ، تقول: «زوجكن آباؤكن، وزوجني الله من فوق سبع سموات.» وكان تزويجها له ﷺ في سنة

خمس من الهجرة. وقالت عائشة في شأنها: «لم تكن امرأة خيرًا منها في الدين، وأتقى لله، وأصدق حديثًا، وأوصل للرحم، وأعظم صدقة، وأشد ابتذالًا لنفسها في العمل الذي تتصدق به ويقرب إلى الله.» رواه مسلم. وهي أول من مات من أزواجه بعده ﷺ، ماتت بالمدينة سنة عشرين ولها ثلاث وخمسون سنة، وصلى عليها عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وأما أم المؤمنين زينب بنت خزيمة الهلالية رضي الله عنها، فقد كانت تحت عبد الله بن جحش، قتل عنها يوم أحد، فتزوجها رسول الله ﷺ سنة ثلاث. ولم تلبث عنده إلا شهرين أو ثلاثًا، وتوفيت في حياته ﷺ ودفنت بالبقيع. وهي أخت ميمونة لأمها.

وأما أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث الهلالية رضي الله عنها، فقد كانت قبل ذلك عند أبي رهم بن عبد العزى. تزوجها رسول الله ﷺ لما كان معتمرًا سنة سبع بعد غزوة خيبر، جعلت أمرها إلى العباس فأنكحها النبي ﷺ وهو محرم. فلما رجع، بنى بها بسرف حلالًا. وسرف اسم مكان على عشرة أميال من مكة. قال ابن إسحاق: «ويقال إنها وهبت نفسها للنبي ﷺ، وذلك أن خطبته عليه الصلاة والسلام انتهت إليها وهي على بعيرها، فقالت: البعير ومن عليه لله ولرسوله.» وتوفيت بسرف في الموضع الذي بنى بها فيه رسول الله ﷺ سنة إحدى وخمسين، وصلى عليها ابن عباس ودخل قبرها رضي الله عنهما.

وأما أم المؤمنين جويرية بنت الحارث رضي الله عنها، فكانت تحت مسافع بن صفوان المضيقي. وكانت قد وقعت في سهم ثابت بن قيس الأنصاري في غزوة المريسيع (غزوة بني المصطلق) في سنة

خمس، وقيل ست. فكاتبت نفسها، ثم جاءت إلى رسول الله ﷺ، فقالت: «يا رسول الله، أنا جويرية بنت الحارث. وكان من أمري ما لا يخفى عليك، ووقعت في سهم ثابت بن قيس بن شماس، وإني كاتبت نفسي، فجئت أسألك في كتابتي.» فقال رسول الله ﷺ: «فهل لك إلى ما هو خير؟» قالت: «وما هو يا رسول الله؟» قال: «أؤدي عنك كتابتك وأتزوجك.» قالت: «قد فعلت.» فتسامع الناس أن رسول الله ﷺ قد تزوج جويرية، فأرسلوا ما في أيديهم من السبي، فأعتقوهم وقالوا: «أصهار رسول الله ﷺ.» قالت عائشة: «فما رأينا امرأة أعظم بركة على قومها منها، أعتق في سببها مائة أهل بيت من بني المصطلق.» وكانت ابنة عشرين سنة، وتوفيت وعمرها خمس وستون سنة، سنة خمس وخمسين.

وأما أم المؤمنين صفية بنت حيي رضي الله عنها، فهي من سبط هارون بن عمران عليه السلام. كانت تحت كنانة بن أبي الحقيق، قتل يوم خيبر. قال أنس: «لما افتتح ﷺ خيبر وجمع السبي، جاءه دحية، فقال: يا رسول الله، أعطني جارية. قال: اذهب فخذ جارية. فأخذ صفية بنت حيي، فجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أعطيت دحية صفية بنت حيي سيدة قريظة والنضير، ما تصلح إلا لك.» قال: «ادعوه بها.» فجاء بها، فلما نظر إليها النبي ﷺ قال: «خذ جارية من السبي غيرها.» وأعتقها وتزوجها، حتى إذا كان بالطريق، جهزتها له أم سليم فأهدتها له من الليل. فأصبح عليه الصلاة والسلام عروسًا، فقال: «من كان عنده شيء فليجيء به.» وبسط نطعا، فجعل الرجل يجيء بالأقط، وجعل الرجل يجيء بالتمر، وجعل الرجل يجيء

بالسمن، فحاسوا حيسًا. فكانت وليمة رسول الله ﷺ. وماتت في رمضان سنة خمسين في زمن معاوية، ودفنت بالبقيع. فهؤلاء أزواجه اللاتي دخل بهن، لا خلاف في ذلك بين أهل السير والعلم بالأثر.

الفصل الرابع: أعمامه وعماته وإخوته من الرضاعة وجداته صلى الله عليه وسلم

قال صاحب ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى: وكان له ﷺ اثنا عشر عما من بني عبد المطلب. أبوه عبد الله ثالث عشرهم الحارث، وأبو طالب واسمه عبد مناف، والزبير ويكنى أبا الحارث، وحمزة، وأبو لهب واسمه عبد العزى، والغيداق والمقوم، وضرار، والعباس، وقثم، وعبد الكعبة، وحجل ويُسمى المغيرة.

أما حمزة رضي الله عنه ويكنى أبا عمارة وأبا يعلى، فكان إسلامه في السنة الثانية من المبعث، وقيل في السادسة. وقال ﷺ: «والذي نفسي بيده إنه لمكتوب عند الله في السماء السابعة: حمزة أسد الله وأسد رسوله.» وقال عليه الصلاة والسلام: «خير أعمامي حمزة». وأول راية عقدها عليه الصلاة والسلام لأحد من المسلمين كانت لحمزة، وأول سرية بعثها كانت له. وشهد بدرًا واستشهد في وقعة أحد، قتله وحشي. ولما رآه ﷺ قتيلًا بكى، فلما رأى ما مثل به شهق وقال: «لن أصاب بمثلك أبدًا. ما وقفت موقفًا قط أغيظ لي من هذا.»

وقال ابن مسعود: «ما رأينا رسول الله ﷺ باكيًا قط أشد من بكائه على حمزة.» وضعه في القبلة، ثم وقف على جنازته وانتحب حتى نشغ من البكاء، يقول: «يا حمزة يا عم رسول الله، وأسد الله وأسد رسوله، يا حمزة يا فاعل الخيرات، يا حمزة يا كاشف الكربات، يا حمزة يا ذابًا عن وجه رسول الله.» والنشغ هو الشهيق.

وكان ﷺ إذا صلى على جنازة كبر أربعا، وكبر على حمزة سبعين تكبيرة، رواه البغوي. وكان من حمزة يوم قتل تسعًا وخمسين سنة، ودفن هو وابن أخته عبد الله بن جحش في قبر واحد.

وعن سعيد بن المسيب كان يقول: «كنت أعجب لقاتل حمزة كيف ينجو، حتى أنه مات غريقًا في الخمر.» وقال ابن هشام: «بلغني أن وحشيا لم يزل يحد في الخمر حتى خلع من الديوان، فكان عمر يقول: ‹لقد علمت أن الله لم يكن ليدع قاتل حمزة.›»

وأما العباس رضي الله عنه وكنيته أبو الفضل، فقد كان أسن من النبي ﷺ بسنتين أو ثلاث، وكان رئيسًا في قريش وإليه عمارة المسجد الحرام. أسلم قبل فتح خيبر وكان يكتم إسلامه، وأظهره يوم فتح مكة. وكان ﷺ يكرمه بعد إسلامه ويعظمه. وقال العباس: «عمي وصنو أبي، من آذاه آذاني.» وقال عليه الصلاة والسلام: «يا عم، لا ترم منزلك أنت وبنوك غدًا حتى آتيكم، فإن لي فيكم حاجة.» فلما أتاهم، اشتمل عليهم بملاءة، ثم قال: «يا رب هذا عمي وصنو أبي، وهؤلاء أهل بيتي، فاسترهم من النار كستري إياهم بملاءتي هذه.» فأمنت أسكفة الباب وحوائط البيت، فقالت: «آمين، آمين، آمين.» رواه ابن غيلان وغيره. ورواه الترمذي عن ابن عباس بلفظ: «فألبسنا كساء، ثم قال: اللهم اغفر للعباس وولده مغفرة ظاهرة وباطنة لا تغادر ذنبًا، اللهم احفظه في ولده.»

وروى الترمذي أيضًا أن رسول الله ﷺ قال للعباس: «والذي نفسي بيده لا يدخل قلب رجل الإيمان حتى يحبكم لله ولرسوله.» ثم قال: «يا أيها الناس، من آذى عني فقد آذاني، فإنما عم الرجل صنو أبيه.»

وتكرر دعاؤه ﷺ له ولبنيه ومحبينه. وتوفي في خلافة عثمان رضي الله عنهما سنة ثلاث وثلاثين، وهو ابن ثمان وثمانين سنة، ودفن بالبقيع. وكان أصغر أعمامه ﷺ ولم يسلم منهم إلا هو وحمزة، وأسنهم الحارث.

وأما عماته ﷺ بنات عبد المطلب، فجملتهن ست: عاتكة، وأميمة، والبيضاء وهي أم حكيم، وبرة، وصفية، وأروى. فأما صفية أم الزبير رضي الله عنهما، فقد أسلمت باتفاق، وشهدت الخندق وقتلت رجلًا من اليهود. وضرب لها عليه الصلاة والسلام بسهم، وتوفيت بالمدينة في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه سنة عشرين، ولها ثلاث وسبعون سنة، ودفنت بالبقيع. وأما عاتكة وأروى فقد اختلف في إسلامهما.

وأما إخوته عليه الصلاة والسلام من الرضاعة، فحمزة، وأبو سلمة بن عبد الأسد. أرضعتهما معه ﷺ ثويبة جارية أبي لهب بلبن ابنها مسروح بن ثويبة، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب أرضعته، ورسول الله ﷺ حليمة السعدية، وعبد الله وآسية وحذافة وتعرف بالشيماء. الثلاثة أولاد حليمة. وقد روي أن خيلًا له ﷺ أغارت على هوازن فأخذوها في جملة السبي، فقالت: «أنا أخت صاحبكم.» فلما قدموا على رسول الله ﷺ قالت له: «يا محمد، أنا أختك.» فرحب بها وبسط لها رداءه وأجلسها عليه ودمعت عيناه. وقال عليه الصلاة والسلام: «إن أحببت فأقيمي عندي مكرمة محببة، وإن أحببت أن ترجعي إلى قومك وصلك.» قالت: «بل أرجع إلى قومي.» فأسلمت وأعطاها ﷺ ثلاثة عبيد وجارية ونعما وشاء.

وأما أمه من الرضاعة فحليمة بنت أبي ذؤيب من هوازن، وهي التي أرضعته حتى أكملت رضاعه. وجاءت إليه عليه الصلاة والسلام يوم حنين فقام إليها وبسط رداءه لها فجلست عليه. وكذا ثويبة جارية أبي لهب أيضًا، واختلف في إسلامها كما اختلف في إسلام حليمة وزوجها. وكانت ثويبة تدخل عليه ﷺ بعد أن تزوج خديجة، فكانت تكرمها وأعتقها أبو لهب. وكان عليه الصلاة والسلام يبعث إليها من المدينة بكسوة وصلة حتى ماتت بعد فتح خيبر.

وكانت حاضنته عليه الصلاة والسلام أم أيمن بركة بنت ثعلبة أم أسامة بن زيد مولاة رسول الله ﷺ. هاجرت الهجرتين إلى أرض الحبشة وإلى المدينة، وكانت لأبيه، وقيل لأمه، فورثها ﷺ. وكان عليه الصلاة والسلام يقول: «أم أيمن أمي بعد أمي.» وكانت الشيماء بنت حليمة السعدية تحضنه مع أمها.

المقصد الثالث

فيما فضله الله تعالى به من كمال خلقته وجمال صورته وأخلاقه الزكية وأوصافه المرضية وما تدعو ضرورة حياته إليه وهو يشتمل على شمائله الشريفة ﷺ وفيه أربعة فصول

الفصل الأول: كمال خلقته وجمال صورته صلى الله عليه وسلم

اعلم أن من تمام الإيمان به ﷺ الإيمان بأن الله تعالى قد جعل خلق بدنه الشريف على وجه لم يظهر قبله ولا بعده خلق آدمي مثله. قال الأبوصيري: «فهو الذي ثم معناه وصورته، ثم اصطفاه حبيبا باري النسم، منزه عن شريك في محاسنه، فجوهر الحسن فيه غير منقسم». قال القرطبي: «لم يظهر لنا تمام حسنه ﷺ؛ لأنه لو ظهر لنا تمام حسنه لما أطاقت أعيننا رؤيته ﷺ».

(وجهه الشريف)

فأما وجهه الشريف ﷺ فقد روى الشيخان عن البراء قال: «كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجها وأحسنهم خلقا». وقال أبو هريرة رضي الله عنه: «ما رأيت أحسن من رسول الله ﷺ، كأن الشمس تجري في وجهه»، رواه الترمذي وغيره. وسئل البراء: «أكان وجه رسول الله ﷺ مثل السيف؟» فقال: «لا، بل مثل القمر»، رواه البخاري. وفي رواية مسلم من حديث جابر بن سمرة قال: «وقال له رجل: أكان وجه رسول الله ﷺ مثل السيف؟ فقال: لا، بل مثل الشمس والقمر وكان مستديرا».

وعن جابر بن سمرة قال: «رأيت رسول الله ﷺ في ليلة إضحيان، أي مقمرة، وعليه حلة حمراء، فجعلت أنظر إليه وإلى القمر، فلهو في عيني أحسن من القمر».

روى الترمذي وغيره عن علي ﵁ أنه نعته ﷺ فقال: «لم يكن بالمطهم، ولا المكلثم، وكان في وجهه تدوير». والمطهم: الكثير السمن. والمكلثم: المدور الوجه. أي لم يكن شديد تدوير الوجه، بل في وجهه تدوير قليل.

وقال أبو هريرة: «كان رسول الله ﷺ أسيل الخدين». والخد الأسيل هو ما فيه استطالة غير مرتفع الوجنة. وأخرج البخاري عن كعب بن مالك قال: «كان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه كأنه قطعة قمر وكنا نعرف ذلك منه». وقالت عائشة: «كان ﷺ إذا سر تبرق أسارير وجهه كأنه قطعة قمر».

وفي حديث جبير بن مطعم عند الطبراني قال: «التفت إلينا رسول الله ﷺ بوجه مثل شفة القمر»، فهذا محمول على صفته عند الالتفات.

وعن أبي بكر الصديق وكعب بن مالك قالا: «كان وجه رسول الله ﷺ كأنه دارة قمر».

روى البيهقي عن أبي إسحق الهمداني عن امرأة من همدان قالت: «حججت مع النبي ﷺ، فقلت لها: شبهيه، قالت: كالقمر ليلة البدر، لم أر قبله ولا بعده مثله».

روى الدارمي وغيره عن أبي عبيدة قال: «قلت للربيع بنت معوذ: صفي لي رسول الله ﷺ، قالت: لو رأيته لقلت الشمس طالعة».

روى مسلم عن أبي الطفيل أنه قيل له: «صف لنا رسول الله ﷺ»، فقال: «كان أبيض مليح الوجه». وكان عليه الصلاة والسلام إذا سر فكأن وجهه المرآة وكأن الجدر ترى في وجهه. وفي حديث ابن أبي هالة: «يتلالأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر».

(بصره الشريف)

وأما بصره الشريف ﷺ فقد وصفه الله تعالى في كتابه العزيز بقوله: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾[النجم: 17]. وروى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما، والبيهقي عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يرى بالليل في الظلمة كما يرى بالنهار في الضوء. وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «هل ترون قبلتي ههنا؟ فوالله ما يخفى عليَّ ركوعكم ولا سجودكم، إني لأراكم من وراء ظهري»، رواه البخاري ومسلم. وعند مسلم من رواية أنس أنه ﷺ قال: «يا أيها الناس، إني إمامكم فلا تسبقوني بالركوع والسجود، فإني أراكم من أَمامي ومن خلفي».

وعن مجاهد في قوله تعالى: ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾[الشعراء: 218-219] قال: كان رسول الله ﷺ يرى من خلفه من الصفوف كما يرى من بين يديه.

وذكر القاضي عياض في الشفاء أنه ﷺ كان يرى في الثريا أحد عشر نجمًا، وعند السهيلي اثني عشر.

وفي حديث ابن أبي هالة: «وإذا التفت التفت جميعًا»، خافض الطرف نظره ﷺ إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء. جلّ نظره الملاحظة، وهي مفاعلة من اللحظ، وهو النظر بشق العين الذي يلي الصدع.

وعن علي رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ عظيم العينين، أهدب الأشفار، مشرب العين بحمرة»، رواه البيهقي. وعن جابر بن سمرة قال: «كان رسول الله ﷺ ضليع الفم، أشكل العينين، منهوس القدمين»، رواه مسلم.

والشكلة الحمرة تكون في بياض العين، وهو محمود محبوب. وأما الشهلة فإنها حمرة في سواد العين.

وعند الترمذي في حديث عن علي ﷺ أنه نعت رسول الله ﷺ قال: «كان في وجهه تدوير، أبيض مشرب، أدعج العينين، أهدب الأشفار»، وهي شعر العين. وعنده أيضًا عن علي قال: «كان رسول الله ﷺ أسود الحدقة، أهدب الأشفار».

وعن علي ﷺ قال: «بعثني النبي ﷺ إلى اليمن، فرآني حبر من أحبار اليهود، فقال لي: صف أبا القاسم، فقلت: ليس بالطويل البائن، ولا بالقصير». وفيه قال علي: «ثم سكت، فقال الحبر: وماذا قلت؟»، قال: «هذا ما يحضرني». فقال الحبر: «في عينيه حمرة، حسن اللحية»، ثم قال علي: «هذه والله صفته»، قال الحبر: «فإني أجد هذه الصفة في سفر آبائي، وأنا أشهد أنه نبي، وأنه رسول الله إلى الناس كافة».

(سمعه الشريف)

وأما سمعه الشريف فقد قال ﷺ: «إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أطت السماء وحق لها أن تبط، ليس فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجد لله تعالى»، رواه الترمذي عن أبي ذر. وروى أبو نعيم عن حكيم بن حزام: بينما رسول الله ﷺ في أصحابه إذ قال لهم: «تسمعون ما أسمع؟»، قالوا: «ما نسمع من شيء». قال: «إني لأسمع أطيط السماء وما تلام أن تقط، ما فيها موضع شبر إلا وعليه ملك ساجد أو قائم».

والأطيط هو الصوت.

(جبينه الشريف)

وأما جبينه الكريم فقد كان ﷺ واضح الجبين، مقرون الحاجبين. بهذا وصفه علي رضي الله عنه فقال: «مقرون الحاجبين، صلت الجبين»، أي: واضح الجبين. وعند البيهقي عن رجل من الصحابة قال: «رأيت رسول الله ﷺ فإذا رجل حسن الجسم، عظيم الجبهة، دقيق الحاجبين». وقال ابن أبي هالة: «أزج الحواجب» وفسر بالمقوس، الطويل الوافر الشعر، ثم قال: «سوابغ من غير قرن بينهما عرق يدره الغضب».

وعن مقاتل بن حيان قال: «أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام: اسمع وأطع، يا ابن الطاهرة البكر البتول. إني خلقتك من غير فحل، فجعلتك آية للعالمين. فإياي فاعبد، وعلي فتوكل. فسر لأهل سوران: إني أنا الله الحي القيوم لا أزول». صدقوا النبي الأمي صاحب الجمل والمدرعة والعمامة والنعلين والهراوة الجعد الرأس، الصلت الجبين، المقرون الحاجبين، الأهدب الأشفار، الأدعج العينين، الأنجل العينين، الأقنى الأنف، الواضح الخدين، الكن اللحية، عرقه في وجهه كاللؤلؤ، وريح المسك ينفح منه، كأن عنقه إبريق فضة». الحديث.

والأنجل: واسع شق العين، والقرن بالتحريك: التقاء الحاجبين. قال ابن الأثير: «والصحيح في صفته ﷺ أن حواجبه سوابغ من غير قرن كما وصفه ﷺ به ابن أبي هالة». والقنى في الأنف: طوله ورقة أرنبته مع حدب قليل في وسطه. وقد وصفه ﷺ ابن أبي هالة وغيره بأنه كان عظيم الهامة أي الرأس. وقال علي كرم الله وجهه: «ضخم

الرأس». وقال أنس: «كان عليه الصلاة والسلام ضخم الكراديس»، وهي رؤوس العظام. وقال في رواية الترمذي: «جليل المشاش والكتد»، وفسر برؤوس العظام كالركبتين والمرفقين والمنكبين، أي عظيمها. والكتد: مجتمع الكتفين.

وكان عليه الصلاة والسلام دقيق العرنين، أي أعلى الأنف، كما وصفه به علي ﵁. ووصفه أيضا بأقنى الأنف، وفسر بالسائل المرتفع الوسط. وقال ابن أبي هالة: «أقنى العرنين، له نور يعلوه، يحسبه من لم يتأمله أشم». والأشم: الطويل قصبة الأنف.

(فمه الشريف)

وأما فمه الشريف ﷺ، فعن جابر أنه ﷺ كان ضليع الفم. وقال ابن أبي هالة: «يفتتح الكلام ويختتمه بأشداقه»، يعني: لسعة فمه. والعرب تمدح به وتذم بصغر الفم. ووصفه ابن أبي هالة فقال: «أشنب مفلج الأسنان»، والشنب: رونق الأسنان وماؤها. ومفلج الأسنان: أي متفرقها. وقال علي ﵁: «مبلج الثنايا»، وفي رواية عنه: «براق الثنايا».

وعن ابن عباس قال: «كان رسول الله ﷺ أفلج الثنيتين، إذا تكلم، رُبي كالنور يخرج من بين ثناياه»، رواه الترمذي. وروى الطبراني وغيره: «كان رسول الله ﷺ أحسن عباد الله شفتين وألطفهم ختم فم». وعن أبي قرصافة قال: «بايعنا رسول الله ﷺ أنا وأمي وخالتي، فلما رجعنا قالت لي أمي وخالتي: يا بني، ما رأينا مثل هذا الرجل، أحسن وجها ولا أنقى ثوبا، ولا ألين كلاما، ورأينا كالنور يخرج من فيه».

(ريقه الشريف)

وأما ريقه الشريف ﷺ، ففي الصحيح عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: «لأعطين الراية غدا رجلا يفتح الله على يديه، يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله». فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ، كلهم يرجو أن يعطاها، قال: «أين علي بن أبي طالب؟» قالوا: «هو يا رسول الله يشتكي عينيه». قال: «فأرسلوا إليه، فأتي به، فبصق رسول الله ﷺ في عينيه فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع». ومج ﷺ في بئر ففاح منها رائحة المسك. وبصق في بئر في دار أنس فلم يكن بالمدينة بئر أعذب منها. وكان ﷺ يوم عاشوراء يدعو برضعائه ورضعاء ابنته فاطمة رضي الله عنها، فينفل في أفواههم ويقول للأمهات: «لا ترضعنهم إلى الليل»، فكان ريقه ﷺ يجزيهم، رواه البيهقي. ودخلت عليه عميرة بنت مسعود هي وأخواتها يبايعنه وهن خمس، فوجدنه يأكل قديدا، فمضغ لهن قديدة فمضغنها، كل واحدة قطعة، فلقين الله وما وجد لأفواههن خلوف، رواه الطبراني. والخلوف: تغير رائحة الفم. ومسح ﷺ بيده الشريفة بعد أن نفث فيها من ريقه على ظهر عتبة وبطنه، وكان به شرى، فما كان يشم أطيب منه رائحة. وأعطى الحسن لسانه وكان قد اشتد ظمؤه فمصه حتى روي.

(فصاحته صلى الله عليه وآله وسلم)

وأما فصاحته ﷺ، فكان أفصح خلق الله وأعذبهم كلاما، حتى كأن كلامه يأخذ بالقلوب. قالت عائشة رضي الله عنها: «ما كان ﷺ يسرد سردكم هذا، كان يحدث حديثا لو عده العاد لأحصاه، وكأن يعيد الكلمة ثلاثا لتفهم عنه». وكان يقول: «أنا أفصح العرب، وإن أهل الجنة يتكلمون

بلغة محمد ﷺ». وقال عمر بن الخطاب: «يا رسول الله، مالك أفصحنا ولم تخرج من بين أظهرنا؟». قال: «كانت لغة إسماعيل قد درست، فجاءني بها جبريل فحفظنيها»، رواه أبو نعيم. وعن علي رضي الله عنه قال: «قلنا يا نبي الله، نحن بنو أب واحد، ونشأنا في بلد واحد، وإنك تكلم العرب بلسان ما نفهم أكثره». فقال: «إن الله عز وجل أدبني فأحسن تأديبي، ونشأت في بني سعد بن بكر». وقال أبو بكر رضي الله عنه: «يا رسول الله، لقد طفت في العرب وسمعت فصحاءهم، فما سمعت أفصح منك». قال: «أدبني ربي، ونشأت في بني سعد».

وأما ما يروى: «أنا أفصح من نطق بالضاد»، فقال ابن كثير: «لا أصل له، لكن معناه صحيح». وقد جمع الناس من كلامه ﷺ المفرد الموجز البديع، الذين لم يسبق إليه دواوين. وفي كتاب الشفاء للقاضي عياض من ذلك ما يشفي الغليل، كقوله ﷺ: «المرء مع من أحب»، وقوله عليه الصلاة والسلام: «أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، السعيد من وعظ بغيره».

ومما عدَّ من وجوه بلاغته ﷺ أنه جمع متفرقات الشرائع وقواعد الإسلام في أربعة أحاديث، وهي: حديث «إنما الأعمال بالنيات»، رواه الشيخان، وحديث «الحلال بين والحرام بين»، رواه مسلم، وحديث «البينة على المدعي واليمين على من أنكر»، وحديث «لا يكمل إيمان المرء حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»، رواه الشيخان. فالحديث الأول يشتمل على ربع العبادات، والحديث الثاني يشتمل على ربع المعاملات، والحديث الثالث يشتمل على ربع الحكومات وفصل الخصومات، والحديث الرابع يشتمل على ربع الآداب

والمناصفات، ويدخل تحته التحذير من الجنايات، قاله ابن الأثير.
وقد كان من خصائصه ﷺ أن يكلم كل ذي لغة بليغة بلغته على اختلاف لغات العرب وتركيب ألفاظها وأساليب كلماتها، وكان أحدهم لا يتجاوز لغته وإن سمع لغة غيره، فكالعجمية يسمعها العربي، وما ذلك منه ﷺ إلا بقوة إلهية وموهبة ربانية، لأنه بعث إلى الكافة طرا وإلى الخليقة سودا وحمرا. ولا يوجد غالبا متكلم بغير لغته إلا قاصرا نازلا عن صاحب الأصالة بتلك اللغة، إلا نبينا ﷺ، فإنه يتكلم في لغة العرب أفصح منها بلغة نفسها، وجدير به ذلك، فقد أوتي في سائر القوى البشرية المحمودة زيادة على سائر الناس ما لا يضبطه قياس.

(صوته الشريف)

وأما صوته الشريف ﷺ، فعن أنس رضي الله عنه قال: «ما بعث الله نبيا قط إلا بعثه حسن الوجه حسن الصوت حتى بعث الله نبيكم ﷺ، فبعثه حسن الوجه حسن الصوت». وعن علي رضي الله عنه أنه ﷺ كان إذا تكلم رُبِّي كالنور يخرج من بين ثناياه. وقد كان صوته عليه الصلاة والسلام يبلغ حيث لا يبلغه صوت غيره، فعن البراء قال: «خطبنا رسول الله ﷺ حتى أسمع العوائق في خدورهن». قالت عائشة رضي الله عنها: «جلس رسول الله ﷺ يوم الجمعة على المنبر فقال للناس: اجلسوا، فسمعه عبد الله بن رواحة وهو في بني غنم، فجلس في مكانه». وقال عبد الرحمن بن معاذ التيمي: «خطبنا رسول الله ﷺ بمنى، ففتح الله أسماعنا حتى إن كنا لتسمع ما يقول ونحن في منازلنا». وعن أم هاني رضي الله عنها قالت: «كنا نسمع قراءة النبي ﷺ في جوف الليل عند الكعبة وأنا على عريشي».

(ضحكه صلى الله عليه وآله وسلم)

وأما ضحكه ﷺ، ففي البخاري عن عائشة رضي الله عنها: «ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعًا قط ضاحكًا حتى أرى منه لهواته، إنما كان يتبسم». واللهوات جمع لهاة، وهي اللحمة التي بأعلى الحنجرة من أقصى الفم. وعن أبي هريرة رضي الله عنه في قصة مواقع أهله في رمضان، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه، رواه البخاري. والنواجذ الأضراس.

وقال ابن أبي هالة: «جل ضحكه ﷺ التبسم، ويفتر عن مثل حب الغمام». قال الحافظ ابن حجر: «والذي يظهر من مجموع الأحاديث أنه ﷺ كان في معظم أحواله لا يزيد على التبسم، وربما زاد على ذلك فضحك». قال ابن بطال: «والذي ينبغي أن يقتدى به من أفعاله ما واظب عليه من ذلك». وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «وإذا ضحك ﷺ، يتلألأ في الجدر»، أي يشرق نوره عليه إشراقًا كإشراق الشمس عليها.

وكان ﷺ إذا كان حديث عهد بجبريل لم يتبسم ضاحكًا حتى يرتفع عنه، بل كان إذا خطب أو ذكر الساعة اشتد غضبه، وعلا صوته كأنه منذر جيش يقول: «صبحكم ومساكم»، رواه مسلم. وكان بكاؤه عليه الصلاة والسلام من جنس ضحكه، لم يكن بشهيق ورفع صوت، كما لم يكن ضحكه بقهقهة، ولكن تدمع عيناه حتى تهملان، ويسمع لصدره أزيز، يبكي رحمة لميت، وخوفًا على أمته، وشفقة، ومن خشية الله عند سماع القرآن، وأحيانًا في صلاة الليل.

وقد حفظه الله تعالى من التناوب، وما تثاءب نبي قط.

(يده الشريفة صلى الله عليه وآله وسلم)

وأما يده الشريفة ﷺ فقد وصفه غير واحد بأنه كان شأن الكفين، أي غليظ أصابعهما، وبأنه عبل الدراعين، رحب الكفين. وقد مسح ﷺ خد جابر بن سمرة، قال: «فوجدت ليده بردًا وريحًا كأنما أخرجها من جونة عطار»، رواه مسلم.

وقال وائل بن حجر: «لقد كنت أصافح رسول الله ﷺ، فتمس جلدي جلده، فأتعرفه بعد في يدي، وإنه لأطيب رائحة من المسك». وقال يزيد بن الأسود: «ناولني رسول الله ﷺ يده، فإذا هي أبرد من الثلج وأطيب ريحًا من المسك». وفي البخاري عن أنس رضي الله عنه: «ما مسست حريرًا ولا ديباجًا ألين من كف رسول الله ﷺ». قال ابن بطال: «كانت كفه ﷺ ممتلئة لحما، غير أنها مع ضخامتها كانت لينة».

وعن معاذ قال: «ردفني رسول الله ﷺ خلفه في سفر، فما مسست شيئًا قط ألين من جلده ﷺ». وأصيب عائذ بن عمرو في وجهه يوم حنين، فسال الدم على وجهه وصدره، فسلت النبي ﷺ الدم بيده عن وجهه وصدره، ثم دعا له، فكان أثر يده عليه الصلاة والسلام إلى منتهى ما مسح من صدره غرة سائلة كغرة مرت عليه يده أسود وشاب ما سوى ذلك، رواه البخاري في تاريخه. وعن أبي زيد الأنصاري قال: «مسح عليه الصلاة والسلام بيده على رأسي ولحيتي، ثم قال: اللهم جمّله». قال الراوي عنه: «فبلغ بضعًا ومائة سنة، وما في لحيته بياض». ولقد كان منبسط الوجه ولم ينقبض الفرس، رواه الحاكم وغيره.

ومسح ﷺ رأس مدلوك أبي سفيان فكان ما وجهه حتى مات، رواه البيهقي وغيره. ومسح عليه الصلاة والسلام رأس حنظلة بن حذيم بيده، وقال له: «بورك فيك». فكان يؤتى بالشاة الوارم ضرعها، والبعير، والإنسان به الورم، فينفخ في يده، ويمسح بصلعته، ثم يقول: «بسم الله على أثر يد رسول الله ﷺ»، فيمسحه، ثم يمسح موضع الورم فيذهب الورم، رواه أحمد وغيره.

وقد جاء في عدة أحاديث عن جماعة من الصحابة بياض إبطيه، فعن أنس قال: «رأيت رسول الله ﷺ يرفع يديه في الدعاء حتى رأيت بياض إبطيه». قال الطبري: «ومن خصائصه ﷺ أن الإبط من جميع الناس متغير اللون غيره». وعن رجل من بني حريش قال: «ضمني رسول الله ﷺ، فسَال علي من عرق إبطه مثل ريح المسك»، رواه البزار.

ووصفه علي رضي الله عنه فقال: «ذو مسربة»، وفسر بخيط الشعر بين الصدر والسرة. وعند البيهقي: «له شعرات من لبته إلى سرته تجري كالقضيب، ليس على صدره ولا على بطنه غيرها».

ووصفت بطنه أم هاني فقالت: «ما رأيت بطن رسول الله ﷺ إلا ذكرت القراطيس المثنى بعضها على بعض». وقال أبو هريرة: «كان ﷺ أبيض كأنما صيغ من فضة، رجل الشعر، مفاض البطن، عظيم مشاش المنكبين، ومفاض البطن واسع، والمشاش رؤوس العظام».
وأخرج الإمام أحمد عن محرش الكعبي قال: «اعتمر النبي ﷺ من الجعرانة ليلا، فنظرت إلى ظهره كأنه سبيكة فضة».

وروى البخاري: «كان ﷺ بعيد ما بين المنكبين». وعن أبي هريرة: «رحب الصدر».

(قلبه الشريف صلى الله عليه وآله وسلم)

وأما قلبه الشريف ﷺ فقد صح أن جبريل عليه السلام شقه واستخرج منه علقة، فقال له: «هذا حظ الشيطان منك»، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه فأعاده في مكانه. قال أنس: «فلقد كنت أرى أثر المخيط في صدره»، رواه مسلم. وهذا الشق روي أنه وقع له عليه الصلاة والسلام مرات. وقد حفظه الله تعالى من الاحتلام، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «ما احتلم نبي قط، وإنما الاحتلام من الشيطان»، رواه الطبراني.

(قدمه الشريف صلى الله عليه وآله وسلم) وأما قدمه الشريف ﷺ فقد وصفه غير واحد بأنه كان شثن القدمين، أي غليظ أصابعهما. وعن ميمونة بنت كردم قالت: «رأيت رسول الله ﷺ، فما نسيت طول إصبع قدميه السبابة على سائر أصابعه»، رواه الإمام أحمد وغيره. وقال ابن أبي هالة: «خمصان الأخمصين، مسيح القدمين». والأخمص من القدم الموضع الذي لا يلصق بالأرض منها عند الوطء، والخمصان البالغ منه، ومسيح القدمين أي ملساوتان لينتان ليس فيهما تكسر ولا شقاق.

وعن عبد الله بن بريدة قال: «كان رسول الله ﷺ أحسن البشر قدما».

(طوله الشريف صلى الله عليه وآله وسلم)

وأما طوله الشريف ﷺ فقد قال علي رضي الله عنه: «كان رسول الله ﷺ لا قصير ولا طويل، وهو إلى الطول أقرب»، رواه البيهقي. ووصفه غيره بأنه ليس بالطويل البائن ولا بالقصير، والمراد بالطويل البائن

المفرط في الطول مع اضطراب القامة. وقال ابن أبي هالة: «أطول من المربوع وأقصر من المشذب»، والمشذب البائن الطول في نحافة، وهو مثل قوله في الحديث الآخر: «لم يكن بالطويل الممغط»، أي المتناهي الطول.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «لم يكن رسول الله ﷺ بالطويل البائن، ولا بالقصير المتردد، وكان ينسب إلى الربعة إذا مشى وحده، ولم يكن على حال يماشيه أحد من الناس ينسب إلى الطول إلا طاله ﷺ، ولربما اكتنفه الرجلان الطويلان فيطولهما، فإذا فارقاه نسب ﷺ إلى الربعة»، رواه البيهقي وغيره، وزادا ابن سبع في الخصائص أنه كان إذا جلس يكون كتفه أعلى من جميع الجالسين ﷺ. ووصفه ابن أبي هالة بأنه بادن متماسك، أي معتدل الخلق، كأن أعضاءه يمسك بعضها بعضا.

(شعره الشريف صلى الله عليه وآله وسلم)

وأما شعره الشريف ﷺ فقد قال قتادة: «سألت أنسًا عن شعر رسول الله ﷺ، فقال: شعر بين شعرين، لا رجل ولا سبط ولا جعد ولا قطط، كان بين أذنيه وعاتقه». وفي رواية: «كان رجلا ليس بالسبط ولا الجعد بين أذنيه وعاتقه». وفي أخرى: «إلى أنصاف أذنيه»، رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: «كان له ﷺ شعر فوق الجمة ودون الوفرة»، رواه الترمذي. وفي حديث أنس، كان إلى أذنيه، وفي حديث البراء، يضرب إلى منكبيه، وفي حديث أبي رمثة، يبلغ إلى كتفيه. وفي رواية: «ما رأيت من ذي لمة أحسن منه». والجمة هي الشعر الذي نزل إلى المنكبين، والوفرة ما نزل إلى شحمة الأذنين،

واللمة التي ألمت بالمنكبين. قال القاضي عياض: «والجمع بين هذه الروايات أن ما يلي الأذن هو الذي يبلغ شحمة أذنيه، وما خلفه هو الذي يضرب منكبيه». قال: «وقيل: بل ذلك لاختلاف الأوقات، فإذا غفل عن تقصيرها بلغت المنكب، وإذا قصرها كانت إلى أنصاف الأذنين، فكانت تطول وتقصر بحسب ذلك».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «كان رسول الله ﷺ يسدل شعره، وكان المشركون يفرقون رؤوسهم، وكان أهل الكتاب يسدلون رؤوسهم، وكان يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه بشيء، ثم فرق ﷺ رأسه»، رواه الترمذي. وفي صحيح مسلم نحوه. وسدل الشعر: إرساله، والمراد دهنًا إرساله على الجبين واتخاذه كالقصة. وأما الفرق، فهو فرق الشعر بعضه عن بعض. قال العلماء: «والفرق سنة لأنه هو الذي رجع إليه ﷺ، والصحيح جواز الفرق والسدل، لكن الفرق أفضل». والقصة: شعر الناصية يُقص حول الجبهة.

وعن أم هاني رضي الله عنها، قالت: «قدِم رسول الله ﷺ مكة وله أربع غدائر»، رواه الترمذي. والغدائر هي الذوائب، واحدة منها غديرة. وفي مسلم عن أنس: «كان في لحيته ﷺ شعرات بيض»، وفي رواية عنده: «لم ير من الشيب إلا قليلًا». وفي أخرى له: «لو شئت أن أعد شمطات كن في رأسه ولم يخضب». وعنده أيضًا: «لم يخضب عليه الصلاة والسلام، إنما كان البياض في عنفقته وفي الصدغين وفي الرأس نبذًا»، أي شعرات متفرقة. وعن أنس: «ما كان في رأسه ولحيته إلا سبع عشرة أو ثماني عشرة شعرة بيضاء». وعن ابن عمر:

«نحو عشرين». وفي الصحيحين أن ابن عمر رأى النبي ﷺ يصبغ بالصفرة. قال النووي: «المختار أنه صبغ في وقت وتركه في معظم الأوقات، فأخبر كل بما رأى وهو صادق».

وعن أنس، قال: «كان ﷺ يكثر دهن رأسه وتسريح لحيته»، رواه البغوي. وعن أنس قال: «رأيت رسول الله ﷺ والحلاق يحلقه وأطاف به أصحابه فما يريدون أن تقع شعرة إلا في يد رجل»، رواه مسلم. ولم يرو أنه عليه الصلاة والسلام حلق رأسه الشريف في غير نسك حج أو عمرة، فتكون تبقية الشعر في الرأس سنة، ومنكرها مع علمه يجب تأديبه. ومن لم يستطع التبقية، يباح له إزالته.

وعن محمد بن سيرين، قال: «قلت لعبيدة: عندنا من شعر النبي ﷺ أصبناه من قبل أنس، قال: لأن تكون عندي شعرة منه أحب إلي من الدنيا وما فيها». وكان ﷺ يأخذ من لحيته من عرضها وطولها، رواه الترمذي. وروى عن ابن عباس: «كان النبي ﷺ يقص شاربه». وأما العانة، ففي حديث أنس: «أن النبي ﷺ كان لا يتنور، وكان إذا كثر شعره حلقه».

وفي حديث أم سلمة، أن النبي ﷺ كان إذا طلى بدأ بعانته وطلاها بالنورة وسائر جسده أهله. وحديث دخوله الحمام موضوع. وأخرج البيهقي من مرسل أبي جعفر الباقر، قال: «كان رسول الله ﷺ يستحب أن يأخذ من أظفاره وشاربه يوم الجمعة». وعن عائشة رضي الله عنها، كانت تقول: «كان رسول الله ﷺ لا يفارق سواكه ومشطه، وكان ينظر في المرآة إذا سرح لحيته». وعن ابن عباس رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ كانت له مكحلة يكتحل منها كل ليلة قبل أن ينام ثلاثة

في هذه وثلاثة في هذه، رواه الترمذي وغيره، وزاد أحمد: «يكتحل بالإثمد»، والإثمد حجر الكحل أسود يضرب إلى حمرة.

وعن محمد بن علي، قال: «سألت عائشة: أكان النبي ﷺ يتطيب؟ قالت: نعم، بذكارة الطيب، المسك والعنبر»، والدكارة جمع ذكر، ما يصلح للرجال وهو ما لا لون له.

(مشيته صلى الله عليه وآله وسلم)

وأما مشيه الشريف ﷺ، فعن علي رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ إذا مشى تكفا تكفوا، كأنما ينحط من صبب»، رواه الترمذي وغيره. والتكفؤ: الميل إلى سنن المشي، والصبب: المكان المنحدر. وعن أبي هريرة: «إذا وطئ بقدمه، وطئ بكلها». وعنه: «ما رأيت أحدًا أسرع في مشيه من رسول الله ﷺ، كأنما الأرض تطوى له، إنا لتجهد أنفسنا وهو غير مكترث»، رواه الترمذي. وروي أنه كان ﷺ إذا مشى، مشى مجتمعا، أي قوي الأعضاء غير مسترخ في المشي. وقال علي رضي الله عنه: «كان رسول الله ﷺ إذا مشى تقطع». وقال ابن أبي مالة: «إذا زال، زال تقلعا، يخطو تكفيا، ويمشي هونا، ذريع المشية»، أي: إذا مشى كأنما ينحط من صبب. قال ابن القيم: «التقلع: الارتفاع من الأرض بجملته، كحال المنحط في الصبب، وهي مشية أولي العزم والهمة والشجاعة، وهي أعدل المشيات وأروحها للأعضاء».

وأما مشيه ﷺ مع أصحابه، فكانوا يمشون بين يديه، وهو خلفهم، ويقول: «خلوا ظهري للملائكة». ومشى عليه الصلاة والسلام في بعض غزواته مرة، فجرحت إصبعه وسال منها الدم، فقال: «هل أنت إلا إصبع دمي، وفي سبيل الله ما لقيت»، رواه أبو داود. ولم يكن له

ﷺ ظل في شمس ولا قمر، رواه الترمذي الحكيم. قال ابن سبع: «كان ﷺ نورًا، فكان إذا مشى بالشمس أو القمر لا يظهر له ظل».

(لونه صلى الله عليه وآله وسلم)

وأما لونه الشريف ﷺ، فقد وصفه عليه الصلاة والسلام جمهور أصحابه بالبياض. فمن عباراتهم: «كان أبيض مليحا، كان أبيض مليح الوجه، ما أنسى شدة بياض وجهه مع شدة سواد شعره»، روى هذا الطبراني عن أبي الطفيل. وفي شعر أبي طالب:

«وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل»

وقال علي كرم الله وجهه: «أبيض مشرب بحمرة». وفي صحيح مسلم: «أزهر اللون»، وفي رواية البخاري من حديث أنس: «ليس بأبيض أمهى». وعن أنس: «كان رسول الله ﷺ أبيض، بياضه إلى السمرة»، قال البيهقي: «يقال إن المشرب منه بحمرة، وإلى السمرة ما ضحى للشمس والريح»، أي: كالوجه والعنق. وأما ما تحت الثياب، فهو الأزهر الأبيض.

(طيب عرقه وريحه صلى الله عليه وآله وسلم)

وأما طيب ريحه وعرقه وفضلاته ﷺ، فقد كانت الرائحة الطيبة صفته ﷺ، وإن لم يمس طيبا. قال أنس: «ما شممت ريحا قط، ولا مسكا، ولا عنبرا، أطيب من ريح رسول الله ﷺ»، رواه الإمام أحمد.

عن أم عاصم، امرأة عتبة بن فرقد السلمي، قالت: «كنا عند عتبة أربع نسوة، فما منا امرأة إلا وهي تجتهد في الطيب لتكون أطيب من صاحبتها، ولا يمس عتبة الطيب إلا أن يمس دهنًا يمسح به لحيته، ولهو أطيب ريحًا منا. وكان إذا خرج إلى الناس قالوا: ما شممنا ريحًا

أطيب من ريح عتبة. فقلت له يومًا: إنا لتجتهد في الطيب ولأنت أطيب ريحًا منا. فهم ذلك، فقال: ‹أخذني الشرى على عهد رسول الله ﷺ، فأتيته، فشكوت إليه ذلك، فأمرني أن أتجرد، فتجردت، وقعدت بين يديه، وألقيت ثوبي على فرجي، فنفث في يده، ثم مسح ظهري وبطني بيده، فعبق بي هذا الطيب من يومئذ›»، رواه الطبراني. وروى أيضًا قصة الذي استعان به ﷺ على تجهيز ابنته فلم يكن عنده شيء، فاستدعى بقارورة فسلت له فيها من عرقه، وقال: «مرها فلتطيب به»، فكانت إذا تطيبت به، شم أهل المدينة ذلك الطيب، فسموا بيت المطيبين.

عن أنس، قال: «كان رسول الله ﷺ إذا مر في طريق من طرق المدينة، وجدوا منه رائحة الطيب، وقالوا: من رسول الله ﷺ من هذا الطريق»، رواه أبو يعلى وغيره. وروي نحوه عن جابر بن عبد الله.

عن عائشة رضي الله عنها، قالت: «كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهًا، وأنورهم لونًا، لم يصفه واصف قط إلا شبه وجهه بالقمر ليلة البدر، وكان عرقه في وجهه مثل اللؤلؤ، أطيب من المسك الأذفر»، رواه أبو نعيم.

عن أنس، قال: «دخل علينا رسول الله ﷺ فقال عندنا فعرق، وجاءت أمي بقارورة، فجعلت تسلت العرق فيها، فاستيقظ ﷺ، فقال: ‹يا أم سليم، ما هذا الذي تصنعين؟›، قالت: ‹هذا عرقك، نجعله في طيبنا، وهو أطيب الطيب›»، رواه مسلم. قال القاضي عياض: «كانت محرمًا له من قبل الرضاع».

عن جابر بن سمرة أنه ﷺ مسح خده، قال: «فوجدت ليده بردًا وريحًا كأنما أخرجها من جونة عطار»، قال غيره: «مسها بطيب أم

لم يمسها، يصافح المصافح فيظل يومه يجد ريحها، ويضع يده على رأس الصبي فيعرف من بين الصبيان بريحها».

وقد ورد مما عزاه القاضي عياض للأخباريين ومن ألف في الشمائل الكريمة أنه ﷺ كان إذا أراد أن يتغوط انشقت الأرض وابتلعت بوله وغائطه، وفاحت لذلك رائحة طيبة.

عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «حجم النبي ﷺ غلامًا لبعض قريش، فلما فرغ من حجامته، أخذ الدم فذهب به من وراء الحائط، فنظر يمينًا وشمالًا فلم ير أحدًا، فحسى دمه حتى فرغ، ثم أقبل فنظر في وجهه، فقال: (ويحك، ما صنعت بالدم؟)، قال: (قلت: غيبته من وراء الحائط).

قال: (أين غيبته؟)، قلت: (يا رسول الله، نفست على دمك، أن أمريقه في الأرض، فهو في بطني). فقال: (اذهب فقد أحرزت نفسك من النار)».

ولما جرح النبي ﷺ، مص جرحه مالك والد أبي سعيد الخدري حتى أنقاه، ولاح أبيض، فقال: «مجه»، فقال: «لا والله، لا أمجه أبدًا»، ثم ازدرده. فقال النبي ﷺ: «من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة، فلينظر إلى هذا»، فاستشهده.

عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما، قال: «احتجم رسول الله ﷺ، فأعطاني الدم، فقال: (اذهب فغيبه). فذهبت فشربته، فأتيته ﷺ، فقال: (ما صنعت؟)، قلت: (غيبتُه). قال: (لعلك شربته؟)، قلت: (شربته). فقال: (ويل لك من الناس، وويل للناس منك). وفي رواية زيادة: (ولا تمسك النار)».

عن أم أيمن قالت: «قام رسول الله ﷺ من الليل إلى فخارة في جانب البيت فبال فيها، فقمت من الليل وأنا عطشانة فشربت ما فيها وأنا لا أشعر. فلما أصبح النبي ﷺ قال: 'يا أم أيمن، قومي فأهريقي ما في تلك الفخارة'. فقلت: 'قد والله شربت ما فيها'. قالت: 'فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه، ثم قال: 'أما والله لا يبجعن بطنك أبدًا''».

وفي هذه الأحاديث دلالة على طهارة بوله ودمه ﷺ. قال شيخ الإسلام ابن حجر: «قد تكاثرت الأدلة على طهارة فضلاته ﷺ، وعد الأئمة ذلك في خصائصه ﷺ، ونقل النووي عن القاضي حسين أن الأصح القطع بطهارة الجميع، وبهذا قال أبو حنيفة رضي الله عنه كما قاله العيني». وكان أكثر أحواله ﷺ البول عن قعود وبال قائمًا لبيان الجواز.

وكان ﷺ إذا أراد أن يدخل الخلاء، قال: «اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث»، والخبث ذكران الشياطين والخبائث إناثها.

عن أنس رضي الله عنه، كان ﷺ إذا أراد الحاجة لم يرفع ثوبه حتى يدنو من الأرض.

عن عائشة رضي الله عنها، قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا خرج من الخلاء قال: 'غفرانك'». وفي رواية أنس: «كان يقول: 'الحمد لله الذي أذهب عني الأذى وعافاني'».

وقال ﷺ: «إذا أتى أحدكم الغائط، فلا يستقبل القبلة ولا يولها ظهره، ولكن شرقوا أو غربوا»، رواه البخاري. وفيه عن أنس أنه ﷺ استنجى بالماء، وعن أبي هريرة أنه ﷺ استنجى بثلاثة أحجار.

الفصل الثاني: فيما أكرمه الله تعالى به من الأخلاق الزكية صلى الله عليه وسلم

كان ﷺ يقول: «اللهم كما أحسنت خلقي فحسن خلقي»، أخرجه أحمد وغيره. وعند مسلم في حديث دعاء الإفتتاح: «وهدني لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت». ولما اجتمع فيه ﷺ من خصال الكمال ما لا يحيط به حد ولا يحصره، أثنى الله سبحانه وتعالى عليه في كتابه الكريم فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[القلم:4].

وحسن الخلق ملكة نفسانية يسهل على المتصف بها الإيناع بالأفعال الجميلة. وإنما كان خلقه ﷺ عظيمًا لاجتماع مكارم الأخلاق فيه. قال عليه الصلاة والسلام: «إن الله تعالى بعثني بتمام مكارم الأخلاق وكمال محاسن الأفعال»، رواه الطبراني. وفي رواية مالك رضي الله عنه في الموطأ: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

قالت عائشة رضي الله عنها: «كان خلقه ﷺ القرآن»، فكما أن معاني القرآن لا تتناهى، كذلك أوصافه الجميلة الدالة على خلقه العظيم لا تتناهى. إذ في كل حالة من أحواله ﷺ يتجدد له من مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم وما يفيضه الله تعالى عليه من معارفه وعلومه ما لا يعلمه إلا الله تعالى. إذًا، التعرض لحصر جزئيات أخلاقه الجميلة تعرض لما ليس من مقدور الإنسان. وقد كان ﷺ مجبولًا على الأخلاق الكريمة في أصل خلقته، الزكيّة النقية، لم يحصل له ذلك برياضة نفس، بل بجود إلهي. ولهذا لم تزل تشرق أنوار المعارف في قلبه

حتى وصل إلى الغاية العليا والمقام الأسنى. وأصل هذه الخصال الحميدة هو كمال العقل، لأن به تقتبس الفضائل وتجتنب الرذائل، وهو أمر روحاني به تدرك النفس العلوم الضرورية والنظرية. وقد كان ﷺ من كمال العقل في الغاية القصوى التي لم يبلغها بشر سواه.

قال وهب بن منبه: «قرأت في أحد وسبعين كتابًا فوجدت في جميعها أن الله تعالى لم يعط جميع الناس من بدء الدنيا إلى انقضائها من العقل في جنب عقله ﷺ إلا كحبة رمل من جميع رمال الدنيا، وأن محمدًا ﷺ أرجح الناس عقلًا وأفضلهم رأيًا»، رواه أبو نعيم في الحلية وابن عساكر. وفي «عوارف المعارف» عن بعضهم: «اللب والعقل مائة جزء، تسعة وتسعون في النبي ﷺ، وجزء في سائر المؤمنين».

ومن تأمل حسن تدبيره للعرب الذين هم كالوحش الشارد مع الطبع المتنافر المتباعد، وكيف ساسهم واحتمل جفاهم وصبر على أذاهم حتى انقادوا إليه واجتمعوا عليه، وقاتلوا دونه أهليهم وآباءهم وأبناءهم، واختاروه على أنفسهم، وهجروا في رضاه أوطانهم وأحباءهم من غير ممارسة سبقت له ولا مطالعة كتب يتعلم منها سير الماضين، تحقق أنه أعقل العالمين ﷺ.

ولما كان عقله عليه الصلاة والسلام أوسع العقول، لا جرم اتسعت أخلاق نفسه الكريمة اتساعًا لا يضيق عن شيء. فمن ذلك اتساع خلقه العظيم ﷺ في الحلم والعفو مع القدرة. وصبره عليه الصلاة والسلام على ما يكره، وحسبك صبره وعفوه عليه الصلاة والسلام عن الكافرين به، المقاتلين له، المحاربين له في أشد ما

نالوه منه من الجراح والجهد، حتى كسرت رباعيته وشج وجهه يوم أحد، حتى صار الدم يسيل على وجهه الشريف. حتى شق ذلك على أصحابه شديدًا، وقالوا: «لو دعوت عليهم». فقال: «إني لم أبعث لعانًا، ولكن بعثت داعيًا ورحمة. اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»، وفي رواية: «اهدِ قومي».

وقد وقع له ﷺ أنه غضب لأسباب مختلفة، مرجعها إلى أن ذلك كان في أمر الله سبحانه وتعالى. فصبره وعفوه إنما كان فيما يتعلق بنفسه الشريفة.

وقد روى الحاكم وغيره عن زيد بن سعنة، وهو أجل أحبار اليهود الذين أسلموا، أنه قال: «لم يبق من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفته في وجه محمد ﷺ حين نظرت إليه، إلا اثنتين لم أخبرهما منه: يسبق حلمه جهله، ولا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلمًا. فكنت أتلطف له لأخالطه فأعرف حلمه وجهله. فابتعت منه تمرًا إلى أجل، فأعطيته الثمن.

فلما كان قبل محل الأجل بيومين أو ثلاثة، أتيته فأخذت بمجامع قميصه وردائه، ونظرت إليه بوجه غليظ، ثم قلت: ألا تقضيني يا محمد؟ فوالله إنكم يا بني عبد المطلب مطل! فقال عمر: «أي عدو الله، أتقول لرسول الله ﷺ ما أسمع؟ فوالله لولا ما أحاذر فوته لضربت بسيفي رأسك». ورسول الله ﷺ ينظر إلى عمر في سكون وتؤدة، وتبسم. ثم قال: «أنا وهو، كنا أحوج إلى غير هذا منك يا عمر، أن تأمرني بحسن الأداء وتأمره بحسن التقاضي. اذهب به يا عمر فاقضه حقه، وزده عشرين صاعًا مكان ما رعته». ففعل. فقلت: «يا

عمر، كل علامات النبوة قد عرفتها في وجه محمد ﷺ حين نظرت إليه، إلا اثنتين لم أخبرهما. فقد اختبرتهما. أشهدك أني قد رضيت بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد ﷺ نبيا».

وروى البخاري عن أنس قال: «كنت أمشي مع النبي ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجبذ بردائه جبذة شديدة. فنظرت إلى صفحة عاتقه وقد أثرت فيه حاشية البرد من شدة جبذته. ثم قال: يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك. فالتفت إليه، فضحك ثم أمر له بعطاء».

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «لم يكن النبي ﷺ فاحشًا ولا متفحشًا، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح». ومما روي من انساع خلقه وحلمه ﷺ اتساع خلقه للمنافقين الذين كانوا يؤذونه إذا غابوا ويتملقون له إذا حضر. وذلك مما تنفر منه النفوس البشرية، حتى تؤيدها العناية الربانية. وكان عليه الصلاة والسلام كلما أذن له في التشديد عليهم، فتح لهم بابًا من الرحمة. ولم يؤاخذ لبيد بن الأعصم إذ سحره، وعفا عن اليهودية التي سمته في الشاة على الصحيح. ومن انساع خلقه ﷺ تواضعه وحسن عشريه مع أهله وخدمه وأصحابه. وحسبك من تواضعه عليه الصلاة والسلام أن خيره ربه تعالى بين أن يكون نبيًا ملكًا أو نبيًا عبدًا، فاختار أن يكون نبيًا عبدًا، فأعطاه الله بتواضعه أن جعله أول من تنشق عنه الأرض، وأول شافع وأول مشفع. فلم يأكل متكئًا بعد ذلك حتى فارق الدنيا. وقد قال عليه الصلاة والسلام: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله»، رواه الترمذي.

ومن تواضعه عليه الصلاة والسلام أنه كان لا ينهر خادمًا. قال أنس ﷺ: «خدمت النبي ﷺ عشر سنين، فما قال لي أفًّا قط، ولا قال لشيء صنعته لم صنعته، ولا لشيء تركته لم تركته». وكذلك كان ﷺ مع عبيده وإمائه. ما ضرب منهم أحدًا قط. وهذا أمر لا تتسع له الطباع البشرية لولا التأييدات الربانية. وفي رواية مسلم: «ما رأيت أحدًا أرحم بالعبيد من رسول الله ﷺ». وقالت عائشة ﵂: «ما ضرب ﷺ شيئا قط بيده، ولا امرأة، ولا خادمًا إلا أن يجاهد في سبيل الله. وما نيل منه شيء فينتقم من صاحبه إلا أن ينتهك شيء من محارم الله تعالى فينتقم لله»، رواه مسلم. وسئلت عائشة ﵂: «كيف كان رسول الله ﷺ إذا خلا في بيته؟» قالت: «ألين الناس، بسامًا ضحاكًا. لم ير قط مادًا رجليه بين أصحابه». وعنها: «ما كان أحد أحسن خلقًا من رسول الله ﷺ. ما دعاه أحد من الأصحاب إلا قال: لبيك».

وروى عنها الإمام أحمد وغيره: «كان ﷺ يخيط ثوبه، ويخصف نعله، ويرقع دلوه، ويفلي ثوبه، ويخلب شاته، ويخدم نفسه». وهذا يتعين حمله على أوقات، فإنه ثبت أنه كان له خدم. فتارة يكون بنفسه، وتارة بغيره، وتارة بالمشاركة. وكان ﷺ يركب الحمار، ويردف خلفه، وركب يوم بني قريظة على حمار مخطوم بحبل من ليف، رواه الترمذي.

عن قيس بن سعد رضي الله عنهما قال: «زارنا رسول الله ﷺ، فلما أراد الانصراف، قرب إليه سعد حمارًا وطأ عليه بقطيفة، وركب عليه الصلاة والسلام. ثم قال: «يا قيس، اصحب رسول الله ﷺ». قال قيس: «فقال لي رسول الله ﷺ: اركب». فأبيت.

فقال: «إما أن تركب، وإما أن تنصرف». وفي رواية: «اركب أمامي، فصاحب الدابة أولى بمقدمها». رواه أبو داود وغيره. وأردف ﷺ بعض نسائه، وأردف معاذ بن جبل، وأردف أسامة بن زيد. ولما قدم ﷺ مكة، استقبله أغلمة بني عبد المطلب، فحمل واحدًا بين يديه وآخر خلفه.

وذكر الطبري في مختصر السيرة النبوية أنه ﷺ ركب حمارًا عربًا إلى قباء، وأبو هريرة معه. قال: «يا أبا هريرة، أأحملك؟». فقال: «ما شئت يا رسول الله». قال: «اركب». فوثب أبو هريرة ليركب، فلم يقدر، فاستمسك برسول الله ﷺ، فوقعا معًا. ثم ركب رسول الله ﷺ، ثم قال: «يا أبا هريرة، أأحملك؟». فقال: «ما شئت يا رسول الله». فقال: «اركب». فلم يقدر أبو هريرة على ذلك، فتعلق برسول الله ﷺ، فوقعا جميعًا. ثم قال: «يا أبا هريرة، أأحملك؟». فقال: «لا والذي بعثك بالحق، لا رميتك ثالثًا».

وذكر المحب الطبري أيضًا أنه عليه الصلاة والسلام كان في سفر، وأمر أصحابه بإصلاح شاة، فقال رجل: «يا رسول الله، علي ذبحها». وقال آخر: «يا رسول الله، على سلخها». وقال آخر: «يا رسول الله، علي طبخها». فقال رسول الله ﷺ: «وعلي جمع الحطب». فقالوا: «يا رسول الله، تكفيك العمل». فقال ﷺ: «قد علمت أنكم تكفوني، ولكن أكره أن أتميز عليكم، وإن الله سبحانه وتعالى يكره من عبده أن يراه متميزًا بين أصحابه».

عن أبي قتادة قال: «وفد وفد النجاشي، فقام ﷺ يخدمهم». فقال له أصحابه: «تكفيك». قال: «إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين، وأنا

أحب أن أكافئهم». وجاءته ﷺ امرأة كان في عقلها شيء، فقالت: «إن لي إليك حاجة». فقال: «اجلسي في أي سكك المدينة شئت، أجلس إليك حتى أقضي حاجتك». فخلا معها في بعض الطريق حتى فرغت من حاجتها.

وقال عبد الله بن أبي الحمساء: «بايعت النبي ﷺ قبل أن يبعث، وبقيت له بقية، فوعدته أن آتيه بها في مكانه، فنسيت. فذكرت بعد ثلاث، وإذا هو في مكانه». فقال: «لقد شفقت علي، أنا ههنا منذ ثلاث، أنتظرك». رواه أبو داود.

وقال ابن أبي أوفى: «كان عليه الصلاة والسلام لا يأنف أن يمشي مع الأرملة والمسكين، فيقضي له الحاجة». رواه النسائي. وفي رواية البخاري: «إن كانت الأمة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ، فتنطلق به حيث شاءت». وفي رواية أحمد: «فتنطلق به في حاجتها».

ودخل الحسن، وهو ﷺ يصلي، قد سجد، فركب على ظهره. فأبطأ في سجوده حتى نزل الحسن. فلما فرغ قال له بعض أصحابه: «يا رسول الله، لقد أطلت سجودك». قال: «إن ابني ارتحلني، فكرهت أن أعجله، أي جعلني كالراحلة، فركب على ظهري».

وكان عليه الصلاة والسلام يعود المرضى ويشهد الجنازة. وحج عليه الصلاة والسلام على رحل رب، وعليه قطيفة لا تساوي أربعة دراهم. فقال: «اللهم اجعله حجا لا رياء فيه ولا سمعة».

وكان إذا صلى الغداة، جاء خدم المدينة بآنيتهم فيها الماء، فما يُؤتى بإناء إلا غمس يده فيه. فربما جاؤوه بالغداة الباردة، فيغمس يده فيها. رواه مسلم وغيره.

تعامله مع زوجاته صلى الله عليه وآله وسلم

وكان عليه الصلاة والسلام حسن العشرة مع أزواجه، وكان ينام معهن. قال النووي: «وهو ظاهر فعله الذي واظب عليه مع مواظبته ﷺ على قيام الليل. فينام مع إحداهن، فإذا أراد القيام لوظيفته، قام وتركها، فيجمع بين وظيفته وأداء حقها المندوب وعشرتها بالمعروف». وقد كان عليه الصلاة والسلام يسرب إلى عائشة رضي الله عنها بنات الأنصار يلعبن معها. رواه الشيخان. وإذا شربت من الإناء، أخذه فوضع فمه على موضع فمها وشرب. رواه مسلم. وإذا تعرقت عرقًا، وهو العظم الذي عليه اللحم، أخذه فوضع فمه على موضع فمها. رواه مسلم أيضًا. وكان يتكئ في حجرها ويقبلها وهو صائم. رواه الشيخان. وكان يريها الحبشة وهم يلعبون في المسجد، وهي متكئة على منكبه. رواه البخاري.

وروي أنه ﷺ سابقها فسبقته، ثم سابقها فسبقته، ثم سابقها بعد ذلك فسبقها. وقال: «هذه بتلك».

عن أنس بن مالك قال: «إنهم كانوا يوما عند رسول الله ﷺ في بيت عائشة رضي الله عنها، إذ أتي بصحفة خبر ولحم من بيت أم سلمة، فوضعت بين يدي رسول الله ﷺ، فقال: «ضعوا أيديكم». فوضع نبي الله ﷺ ووضعنا أيدينا فأكلنا، وعائشة تصنع طعامًا عجلته وقد رأت الصحفة التي أتي بها. فلما فرغت من طعامها، جاءت به فوضعته ورفعت صحفة أم سلمة، فكسرتها. فقال رسول الله ﷺ: «كلوا بسم الله، غارت أمكم». ثم أعطى صحفتها أم سلمة وقال: «طعام مكان طعام، وإناء مكان إناء». رواه الطبراني وغيره.

ووقع مثل ذلك منها مع صفية رضي الله عنهما. رواه أحمد وغيره.

عن عائشة ﵂ قالت: «أُتيت النبي ﷺ بخزيرة طبختها له، وقلت لسودة والنبي ﷺ بيني وبينها: كلي». فأبت. فقلت لها: «كلي». فأبت. فقلت لها: «لتأكلين أو لألطخن بها وجهك». فأبت. فوضعت يدي في الخزيرة، فلطخت بها وجهها. فضحك رسول الله ﷺ، فوضع فخذه لها وقال: «لسودة: الطخي وجهها». فلطخت بها وجهي. فضحك ﷺ. والخزيرة: لحم يقطع صغارًا ويصب عليه ماء كثير، فإذا نضج ذر عليه الدقيق.

مزاحه صلى الله عليه وآله وسلم

وبالجملة، فمن تأمل سيرته عليه الصلاة والسلام مع أهله وأصحابه وغيرهم من الفقراء والأيتام والأرامل والأضياف والمساكين، علم أنه ﷺ قد بلغ من رقة القلب ولينه الغاية التي لا مدى وراءها لمخلوق، وأنه كان يشدد في حدود الله وحقوقه ودينه حتى قطع يد السارق إلى غير ذلك. وقد كان ﷺ يباسط أصحابه، وكان رجل يسمى زهيرا يهادي النبي ﷺ بموجود البادية بما يستطرف منها، وكان ﷺ يهاديه ويكافيه بموجود الحاضرة وبما يستطرف منها. وكان ﷺ يقول: «زهير باديتنا ونحن حاضرته». وكان ﷺ يحبه. فمشى ﷺ يوما إلى السوق فوجده قائمًا، فجاءه من قبل ظهره وضمه بيديه إلى صدره. فأحس زهير بأنه رسول الله ﷺ. قال: «فجعلت أمسح ظهري في صدره رجاء بركته». فجعل رسول الله ﷺ يقول: «من يشتري العبد؟». قال له زهير: «يا رسول الله، إذا تجدني كاسدًا». فقال له ﷺ: «أنت عند الله غال».

عن زيد بن أسلم، أن رجلا كان يهدي للنبي ﷺ العكة من السمن والعسل، فإذا جاء صاحبه يتقاضاه، جاء به إلى النبي ﷺ وقال: «أعط هذا حق متاعه». فما يزيد النبي ﷺ على أن يتبسم ويأمر به فيعطى.

وكان عليه الصلاة والسلام يمزح ولا يقول إلا حقًا، كما روى أبو هريرة. وقد قال له رجل كان فيه بله: «يا رسول الله، احملني». فقال: «أحملك على ابن الناقة». فقال: «يا رسول الله، ما عسى يغني عني ابن الناقة؟». فقال له رسول الله ﷺ: «ويحك، وهل يلد الجمل إلا الناقة؟». رواه الترمذي.

وروى الترمذي عن الحسن، أنه أتته ﷺ عجوز، فقالت: «يا رسول الله، ادع الله لي أن يدخلني الجنة». فقال: «يا أم فلان، إن الجنة لا يدخلها عجوز». قال: «فولت تبكي». فقال: «أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز، إن الله تعالى يقول: ﴿**إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا**﴾[الواقعة:35-36]».

وكان عليه الصلاة والسلام يمازح أصحابه ويخالطهم ويحادثهم ويؤنسهم، ويأخذ معهم في تدبير أمورهم، ويداعب صبيانهم ويجلسهم في حجره. عن أبي هريرة قالوا: «يا رسول الله، إنك تداعبنا»، قال: «إني لا أقول إلا حقًا». وقال أنس: «كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقًا، وكان لي أخ يقال له أبو عمير، وكان له نغر يلعب به، فمات، فدخل على النبي ﷺ ذات يوم، فرآه حزينًا، فقال: ما شأنه؟ قالوا: مات نغره. فقال: يا أبا عمير، ما فعل النغير؟» رواه البخاري ومسلم. والنغير تصغير نغر، طائر صغير كالعصفور. ومج مجة من ماء في وجه محمود بن الربيع، وهو ابن خمس سنين،

يمازحه بها. ودخلت عليه ربيبته زينب بنت أم سلمة وهو في مغتسله، فنفخ الماء في وجهها، فكان ماء الشباب ثابتا في وجهها، ظاهرًا في رونقها، وهي عجوز كبيرة.

هيبته صلى الله عليه وآله وسلم

وكان قد ألقي عليه ﷺ مع الدعابة المهابة. ولقد جاء إليه ﷺ رجل فقام بين يديه، فأخذته رعدة شديدة ومهابة، فقال له: «هون عليك، فإني لست بملك ولا جبار، إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد بمكة». فنطق الرجل بحاجته، فقام ﷺ، فقال: «يا أيها الناس، إني أوحي إلي أن تواضعوا، ألا فتواضعوا حتى لا يبغي أحد على أحد، ولا يفخر أحد على أحد، وكونوا عباد الله إخوانًا». ولما رأته عليه الصلاة والسلام قيلة بنت مخرمة في المسجد وهو قاعد القرفصاء، أرعدت من الفرق، أي الخوف. رواه أبو داود.

وروى مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: «صحبت رسول الله ﷺ، ما ملات عيني منه قط حياء منه وتعظيمًا له، ولو قيل لي: صفه، لما قدرت». وقد كانت مجالسه ﷺ مع أصحابه رضي الله عنهم مجالس تذكير بالله سبحانه وتعالى، وترغيب وترهيب، إما بتلاوة القرآن أو بما آتاه الله من الحكمة والموعظة الحسنة، وتعليم ما ينفع في الدين كما أمره الله تعالى أن يذكر ويعظ ويقص، وأن يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، وأن يبشر وينذر. فلذلك كانت تلك المجالس توجب لأصحابه رقة القلوب، والزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة. روى أحمد وغيره عن أبي هريرة، قال: «قلنا يا رسول الله، ما لنا إذا كنا عندك رقت قلوبنا، وزهدنا في الدنيا وكنا من

أهل الآخرة، فإذا خرجنا من عندك عافسنا أهلنا، وشممنا أولادنا، وأنكرنا أنفسنا؟» فقال ﷺ: «لو أنكم إذا خرجتم من عندي كنتم على حالكم ذلك، لزارتكم الملائكة في بيوتكم». وقوله «عافسنا» أي عالجنا أهلنا ولاعبناهم.

ومن تواضعه ﷺ أنه ما عاب طعامًا قط، إن اشتهاه أكله، وإلا تركه. رواه الشيخان. هذا إن كان الطعام مباحًا، أما الحرام فكان يعيبه ويذمه وينهى عنه.

تواضعه صلى الله عليه وآله وسلم: ومن تواضعه عليه الصلاة والسلام أنه لم يكن له بواب راتب. وما خير ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما، فإن كان إثما كان أبعد الناس منه.

حياؤه صلى الله عليه وآله وسلم

وأما حياؤه ﷺ فحسبك ما في البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: «كان رسول الله ﷺ أشد حياءً من العذراء في خدرها». وقال القاضي عياض: «روي عنه ﷺ أنه كان من حيائه لا يثبت بصره في وجه أحد». والحياء كما قال عليه الصلاة والسلام: «لا يأتي إلا بخير»، وهو من الإيمان، كما رواه البخاري.

خوفه من ربه صلى الله عليه وآله وسلم

وأما خوفه ﷺ من ربه جل وعلا، فقد قال ﷺ: «أنا أتقاكم لله وأشدكم له خشية».

وقال عليه الصلاة والسلام: «إني لأعلمكم بالله وأشدكم له خشية» رواه البخاري. وروى أيضًا قوله عليه الصلاة والسلام: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا». وكان ﷺ يصلي،

ولجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء، رواه النسائي وغيره. والمرجل هو القدر، وأزيزها هو غليانها.

شجاعته صلى الله عليه وآله وسلم

وأما ما روي عن شجاعته وقوته ونجدته ﷺ، فعن أنس رضي الله عنه قال: «كان النبي ﷺ أحسن الناس وأجود الناس وأشجع الناس. لقد فزع أهل المدينة ليلة، فانطلق ناس قبل الصوت، فتلقاهم رسول الله ﷺ راجعًا قد سبقهم إلى الصوت، واستبرأ الخبر على فرس لأبي طلحة عري، والسيف في عنقه، وهو يقول: لن تراعوا» رواه البخاري وغيره.

وفي رواية له: «أن أهل المدينة فزعوا مرة، فركب النبي ﷺ فرسًا لأبي طلحة كان يقطف أو فيه قطاف، فلما رجع قال: وجدنا فرسكم هذا بحرا، فكان بعد لا يجارى». يقال «قطف الفرس» في مشبه إذا تضايق خطره، والبحر الواسع الجري. وقال ابن عمر: «ما رأيت أشجع ولا أنجد من رسول الله ﷺ».

وذكر ابن إسحاق في كتابه وغيره أنه كان بمكة رجل شديد القوة يحسن الصراع، وكان الناس يأتونه من البلاد للمصارعة فيصرعهم. فبينما هو ذات يوم في شعب من شعاب مكة، إذ لقيه رسول الله ﷺ، فقال له: «يا ركانه، ألا تتقي الله وتقبل ما أدعوك إليه؟» فقال له ركانه: «يا محمد، هل من شاهد يدل على صدقك؟» قال: «أرأيت إن صرعتك أتؤمن بالله ورسوله؟» قال: «نعم يا محمد». فقال له: «تهيأ للمصارعة». قال: «تهيأت». فدنا رسول الله ﷺ، فأخذه ثم صرعه. فتعجب ركانة من ذلك، ثم سأله الإقالة والعود، ففعل به ثانيًا وثالثًا.

فوقف ركانة متعجبًا وقال: «إن شأنك لعجيب»، رواه الحاكم في مستدركه عن أبي جعفر محمد بن ركانة المصارع.

وقد صارع ﷺ جماعة غير ركانة، منهم أبو الأسود الجمحي، كما قاله السهيلي ورواه البيهقي. وكان شديدًا، بلغ من شدته أنه كان يقف على جلد البقرة، ويجاذب أطرافه عشرة لينزعوه من تحت قدميه فيتفرى الجلد، ولم يتزحزح عنه. فدعا رسول الله ﷺ إلى المصارعة وقال: «إن صرعتني آمنت بك»، فصرعه رسول الله ﷺ فلم يؤمن.

وفي البخاري من حديث البراء، قال: «وسأله رجل من قيس: أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين؟» فقال: «لكن رسول الله ﷺ لم يفر، كان هوازن رماة، وإنا لما حملنا عليهم انكشفوا، فأكببنا على المغانم، فاستقبلنا بالسهام، وفرت الأعراب ومن تعلم من الناس. ولقد رأيت النبي ﷺ على بغلته البيضاء، وإن أبا سفيان بن الحارث آخذ بزمامها، والنبي يقول: أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب». وهذا في غاية ما يكون من الشجاعة التامة، لأنه في مثل هذا اليوم في حومة الوغى، وقد انكشف عنه جيشه، وهو مع هذا على بغلة ليست بسريعة الجري ولا تصلح لكر ولا فر ولا هرب، وهو مع ذلك يركضها إلى وجوههم، وينوه باسمه ليعرفه من ليس يعرفه، صلوات الله وسلامه عليه. وفي حديث: «كنا إذا احمر البأس اتقينا برسول الله ﷺ».

سخاؤه وجوده صلى الله عليه وآله وسلم

وأما سخاؤه وجوده ﷺ فقد كان ﷺ أحسن الناس وأشجع الناس وأجود الناس، رواه البخاري ومسلم. وما سئل رسول الله ﷺ شيئًا إلا

أعطاه، فجاءه رجل فأعطاه غنمًا بين جبلين، فرجع إلى قومه فقال: «يا قوم، أسلموا فإن محمدًا يعطي عطاء من لا يخاف الفقر»، رواه مسلم.

وروى أيضًا أن صفوان بن أمية قال: «لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني وإنه لمن أبغض الناس إلي، فما برح يعطيني حتى إنه لأحب الناس إلي». قال ابن شهاب: «أعطاه يوم حنين مائة من الغنم، ثم مائة، ثم مائة». وفي مغازي الواقدي أن النبي ﷺ أعطى صفوان يومئذ وادًا مملوءًا إبلا ونعما، فقال صفوان: «أشهد ما طابت بهذا إلا نفس نبي». وإنما أعطاه ذلك لأنه عليه الصلاة والسلام علم أن داءه لا يزول إلا بهذا الدواء، وهو الإحسان، فعالجه به حتى برأ من داء الكفر وأسلم.

وكان علي رضي الله عنه إذا وصف النبي ﷺ قال: «كان أجود الناس كفا وأصدق الناس لهجة». وروي عن أنس مرفوعًا: «أنا أجود بني آدم». فهو ﷺ بلا ريب أجود الناس على الإطلاق، كما أنه أفضلهم وأعلمهم وأشجعهم وأكملهم في جميع الأوصاف الحميدة.

قال جابر رضي الله عنه: «ما سئل رسول الله ﷺ عن شيء فقال لا»، رواه البخاري ومسلم. أي ما طلب منه شيء من أمر الدنيا فمنعه. قال الحافظ ابن حجر: «إن كان عنده أعطاه، إن كان العطاء سائغًا، وإلا سكت»، كما قال ابن الحنفية: «كان ﷺ إذا سئل فأراد أن يفعل قال نعم، وإذا لم يرد أن يفعل سكت».

وروى الترمذي أنه حمل إليه ﷺ تسعون ألف درهم فوضعت على حصير، ثم قام إليها يقسمها، فما رد سائلًا حتى فرغ منها. قال: «وجاءه رجل فقال: ما عندي شيء، ولكن ابتع علي فإذا جاء ناشئٌ

قضيناه». فقال له عمر: «ما كلفك الله ما لا تقدر عليه». فكره النبي ﷺ فقال رجل من الأنصار: «يا رسول الله، أنفق ولا تخف من ذي العرش إقلالًا». فتبسم رسول الله ﷺ وعرف البشر في وجهه، وقال: «بهذا أمرت».

وذكر ابن فارس في كتابه «في أسماء النبي ﷺ» أنه في يوم حنين جاءته امرأة وأنشدت شعرًا تذكره أيام رضاعته في هوازن، فرد عليهم ما أخذ وأعطاهم عطاء كثيرًا حتى قوم ما أعطاهم ذلك اليوم. فكان خمسمائة ألف ألف، قال ابن دحية: «وهذا نهاية الجود، والذي لم يسمع بمثله في الوجود».

وفي البخاري أتي ﷺ بمال من البحرين، فقال: «انشروه»، يعني صبوه في المسجد، وكان أكثر مال أتي به ﷺ. فخرج إلى المسجد ولم يلتفت إليه. فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه فما كان يرى أحدًا إلا أعطاه. إذ جاءه العباس فقال: «أعطني»، فأعطاه ما استطاع حمله، فما قام عليه الصلاة والسلام. وثم منها درهم.

وروى ابن أبي شيبة أنه كان مائة ألف أرسل به العلاء بن الحضرمي من خراج البحرين. قال: «وهو أول مال حمل إليه ﷺ، وسايره جابر على جمل له، فقال له عليه الصلاة والسلام: بعني جملك». فقال: «هو لك يا رسول الله، بأبي أنت وأمي». فقال: «بل بعنيه». فباعه إياه، وأمر بلالًا أن ينقده ثمنه فنقده. ثم قال له ﷺ: «اذهب بالثمن والجمل، بارك الله لك فيهما»، مكافأة لقوله: «بل هو لك». فأعطاه الثمن، ورد عليه الجمل وزاده الدعاء بالبركة فيهما. وحديثه في البخاري ومسلم وغيرهما.

وقد كان جوده عليه الصلاة والسلام كله لله وفي ابتغاء مرضاته تعالى، فإنه كان يبذل المال تارة لفقير أو محتاج، وتارة ينفقه في سبيل الله تعالى، وتارة يتألف به على الإسلام من يقوى الإسلام بإسلامه. وكان يؤثر على نفسه وأولاده فيعطي عطاء يعجز عنه الملوك مثل كسرى وقيصر، ويعيش في نفسه عيش الفقراء. فيأتي عليه الشهر والشهران لا يوقد في بيته نار، وربما ربط الحجر على بطنه الشريفة من الجوع.

وكان ﷺ قد أتاه سبي، فشكت إليه فاطمة ما تلقى من خدمة البيت وطلبت منه خادما يكفيها مؤونة بينها. فأمرها أن تستعين بالتسبيح والتكبير والتحميد، وقال: «لا أعطيك وأدع أهل الصفة تطوي بطونهم من الجوع». وأتته امرأة ببردة فقالت: «يا رسول الله، أكسوك هذه». فأخذها ﷺ محتاجًا إليها فلبسها، فرآها عليه رجل من الصحابة، فقال: «يا رسول الله، ما أحسن هذه، فاكسنيها». فقال: «نعم». فلما قام عليه الصلاة والسلام لامه أصحابه، قالوا: «ما أحسنت حين رأيت النبي ﷺ أخذها محتاجًا إليها، ثم سألته إياها وقد عرفت أنه لا يسأل شيئًا فيمنعه»، رواه البخاري.

وبالجملة، فهو ﷺ في سائر صفات الكمال أفضل الخلق على الإطلاق وأكملهم في جميع أنواع مكارم الأخلاق.

الفصل الثالث: فيما تدعو ضرورته إليه صلى الله عليه وسلم من غذائه وملبسه ومنكحه وما يلحق بذلك.

وفي هذا الفصل أربعة أنواع.

النوع الأول: في عيشه ﷺ في المأكل والمشرب

اعلم أن الشبع بدعة ظهرت بعد القرن الأول. قال ﷺ: «ما ملأ ابن آدم وعاء شرًا من بطنه، حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن غلبت الأدمي نفسه فثلث للطعام، وثلث للشراب، وثلث للنفس». قال الحافظ بن حجر: قال القرطبي: «لو سمع بقراط بهذه القسمة، لعجب من هذه الحكمة».

قالت عائشة رضي الله عنها وعن والديها: «لم يمتلئ جوف النبي ﷺ شبعا قط، وإنه كان في أهله لا يسألهم طعامًا ولا يتشهاه، إن أطعموه أكل، وما أطعموه قبل، وما سقوه شرب». وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «ما شبع آل محمد ﷺ ثلاثة أيام تباعًا حتى قبض» رواه الشيخان، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله ﷺ يبيت الليالي المتتابعة وأهله طاوين لا يجدون عشاء، وإنما كان خبرهم الشعير» رواه الترمذي.

وفي صحيح مسلم: «ما شبع آل محمد يومين من خبز البر إلا وأحدهما تمر». وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «خرج تعني النبي ﷺ من الدنيا ولم يملأ بطنه في يوم من طعامين، كان إذا شبع من التمر لم يشبع من الشعير، وإذا شبع من الشعير لم يشبع من التمر».

وعن الحسن قال: «خطب رسول الله ﷺ فقال: والله ما أمسى في آل محمد صاع من طعام وإنها لتسعة أبيات، والله ما قالها استقلالًا لرزق الله سبحانه وتعالى ولكن أراد أن تتأسى به أمته» رواه الدمياطي في السيرة.

وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: «كان يعجب نبي الله ﷺ من الدنيا ثلاثة: الطيب، والنساء، والطعام. فأصاب اثنين ولم يصب واحدة: أصاب النساء والطيب ولم يصب الطعام»، ذكره الدمياطي أيضًا.

وفي الشمائل للترمذي عن النعمان بن بشير قال: «لقد رأيت نبيكم ﷺ وما يجد من الدقل ما يملأ بطنه، والدقل رديء التمر». وقالت عائشة رضي الله عنها: «إن كنا آل محمد نمكث شهرًا ما نستوقد بنار، إن هو إلا الماء والتمر».

وقال عتبة بن غزوان: «لقد رأيتني وإني لسابع سبعة مع رسول الله ﷺ ما لنا طعام إلا ورق السمر حتى تقرحت أشداقنا». وكانت عائشة رضي الله عنها تقول لعروة: «والله يا ابن أختي، إن كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثم الهلال، ثلاثة أهلة في شهرين، وما أوقد في أبيات رسول الله ﷺ نار»، قال: «قلت يا خالة، فما كان يعيشكم؟» قالت: «الأسودان: التمر والماء، إلا أنه كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار، وكانت لهم منائح، فكانوا يرسلون إلى رسول الله ﷺ من ألبانها فيسقونه»، رواه البخاري ومسلم.

وعن عائشة أيضًا قالت: «لقد مات رسول الله ﷺ وما شبع من خبز وزيت في يوم واحد مرتين»، رواه مسلم. وقال أنس: «ما أعلم

أن رسول الله ﷺ رأى رغيفًا مرققًا حتى لحق بالله، ولا رأى شاة سميطًا بعينه حتى لحق بالله»، رواه البخاري. «المرقق» هو الخالص الذي ينخل مرة بعد أخرى، و«السميط» هو الذي أزيل شعره بالماء الساخن وشوي بجلده، وهو من فعل المترفين.

وعن أبي حازم أنه سأل سهلا: «هل رأيتم في زمن النبي ﷺ النقي؟» قال: «لا»، فقلت: «كنتم تدخلون الشعير؟» قال: «لا، ولكن كنا ننفخه»، رواه البخاري. وفي رواية له: «هل كانت لكم في عهد النبي ﷺ مناخل؟» قال: «ما رأى النبي ﷺ منخلًا من حين ابتعثه الله حتى قبضه الله».

وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: «توفي رسول الله ﷺ وليس عندي شيء يأكله ذو كبد إلا شطر شعير في رب لي، فأكل منه حتى طال علي، فكلته، ففني»، رواه البخاري ومسلم. وعن عائشة أيضًا قالت: «توفي رسول الله ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي في ثلاثين صاعًا من شعير»، رواه الشيخان.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم، فإذا هو بأبي بكر وعمر، فقال: «ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟» قالا: «الجوع يا رسول الله.» قال: «وأنا والذي نفسي بيده، لأخرجني الذي أخرجكما.» فأتى بهما رجل من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته. فلما رأته المرأة، قالت: «مرحبًا وأهلًا.» فقال لها ﷺ: «أين فلان؟» قالت: «ذهب يستعذب لنا الماء.» إذ جاء الأنصاري، فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه، فقال: «الحمد لله، ما أحد اليوم أكرم أضيافًا مني.» قال: فانطلق، فجاءهم بعذق فيه بسر وتمر ورطب، فقال: «كلوا.»

وأخذ المدية، فقال رسول الله ﷺ: «إياك والحلوب.» فذبح لهم، فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق، وشربوا. فلما أن شبعوا ورووا، قال ﷺ لأبي بكر وعمر: «والذي نفسي بيده، لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة. أخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم.» رواه مسلم وغيره.

عن طلحة بن نافع أنه سمع جابر بن عبد الله يقول: «أخذ رسول الله ﷺ بيدي ذات يوم إلى منزله، فأخرج إليه فلق من خبز، فقال: ‹ما من أدم؟› فقالوا: ‹لا، إلا شيء من خل.› قال: ‹نعم الأدم الخل.›» قال جابر: «فما زلت أحب الخل منذ سمعتها من نبي الله ﷺ.» وقال طلحة: «فما زلت أحب الخل منذ سمعتها من جابر.» رواه مسلم.

وروي عن ابن بجير قال: «أصاب النبي ﷺ جوع يومًا، فعمد إلى حجر فوضعه على بطنه، ثم قال: ‹ألا رب نفس طاعمة ناعمة في الدنيا جائعة عارية يوم القيامة، ألا رب مكرم لنفسه وهو لها مهين، لنفسه وهو لها مكرم.›» رواه ابن أبي الدنيا.

وعن أنس عن أبي طلحة قال: «شكونا إلى رسول الله ﷺ الجوع، ورفعنا عن بطوننا عن حجر حجر، فرفع رسول الله ﷺ عن بطنه عن حجرين.»

وقد قال عليه الصلاة والسلام: «لقد أخفت في الله وما يخاف أحد، ولقد أوذيت في الله وما يؤذى أحد، ولقد أتت علي ثلاثون من يوم وليلة مالي ولبلال طعام يأكله أحد إلا شيء يواريه إبط بلال.» رواه الترمذي.

وقد استشكل كونه ﷺ وأصحابه كانوا يطرون الأيام جوعًا مع ما ثبت أنه كان يرفع لأهله قوت سنة، وأنه قسم بين أربعة أنفس من أصحابه ألف بعير مما أفاء الله عليه، وأنه ساق في عمرته مائة بدنة فنحرها وأطعمها المساكين، وأنه أمر لأعرابي بقطيع من الغنم، وغير ذلك. مع من كان معه من أصحاب الأموال كأبي بكر وعمر وعثمان وطلحة وغيرهم، مع بذلهم أنفسهم وأموالهم بين يديه.

وقد أمر بالصدقة فجاء أبو بكر بجميع ماله، وعمر بنصفه، وحث على تجهيز جيش العسرة، فجهزهم عثمان بألف بعير إلى غير ذلك. وأجاب عنه الطبري كما حكاه في فتح الباري، بأن ذلك كان منهم في حالة دون حالة، لا لعوز وضيق، بل تارة للإيثار وتارة لكراهية الشبع وكثرة الأكل.

نعم، كان ﷺ يختار ذلك مع إمكان حصول التوسع والتبسط في الدنيا له، كما أخرج الترمذي من حديث أبي أمامة أن النبي ﷺ قال: «عرض علي ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهبا، قلت: لا يا رب، ولكن أشبع يومًا وأجوع يومًا. فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت شكرتك وحمدتك.»

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله ﷺ ذات يوم وجبريل على الصفا، فقال رسول الله ﷺ: 'يا جبريل، والذي بعثك بالحق، ما أمسى لآل محمد سفة من دقيق ولا كف من سويق.'» فلم يكن كلامه بأسرع من أن سمع هدة من السماء أفزعته. فقال رسول الله ﷺ: «أمر الله القيامة أن تقوم.» قال: «لا، ولكن أمر إسرافيل، فنزل إليك حين سمع كلامك.» فأتاه إسرافيل

عليهما الصلاة والسلام، فقال: «إن الله سمع ما ذكرت، فبعثني إليك بمفاتيح خزائن الأرض، وأمرني أن أعرض عليك إن شئت أن أسير معك جبال تهامة زمردًا وياقوتًا وذهبًا وفضة. فعلت، فإن شئت نبيا ملكًا، وإن شئت نبيا عبدا.» فأوما إليه جبريل أن تواضع، فقال: «بل نبيا عبدا ثلاثًا.» رواه الطبراني بإسناد حسن.

واعلم أنه لم يكن من عادته الكريمة ﷺ حبس نفسه الشريفة على نوع واحد من الأغذية لا يتعداه إلى سواه، فإن ذلك يضر بالطبيعة جدًا، ولو أنه أفضل الأغذية. بل كان ﷺ يأكل ما جرت عادة أهل بلده بأكله من اللحم والفواكه والخبز والتمر وغيره. فأكل ﷺ الحلوى والعسل وكان يحبهما. رواه البخاري وغيره. وفي فقه اللغة للثعالبي أن حلوى النبي ﷺ التي كان يحبها هي المجيع، وهي تمر يعجن بلبن، حكاه في فتح الباري. ولم يصح ورود أنه عليه الصلاة والسلام رأى السكر.

عن عبد الله بن سلام قال: «قدمت عير فيها جمل لعثمان بن عفان عليه دقيق حواري وسمن وعسل، فأتى بها النبي ﷺ، فدعا فيها بالبركة ثم دعا ببرمة فنصبت على النار، وجعل فيها من العسل والدقيق والسمن ثم عصد حتى نضج أو كاد ينضج، ثم أنزل، فقال ﷺ: «كلوا، هذا شيء تسميه فارس الخبيص».

وأكل عليه الصلاة والسلام لحم الضأن، وعن أبي رافع أنه أهديت له شاة فجعلها في قدر، فدخل رسول الله ﷺ فقال: «ما هذا يا أبا رافع؟» قال: «شاة أهديت لنا يا رسول الله فطبختها في القدر». قال: «ناولني الذراع يا أبا رافع»، فناولته الذراع، ثم قال: «ناولني الدراع»، فناولته الدراع الآخر، فقال: «ناولني الذراع الآخر»، فقلت:

«يا رسول الله، إنما للشاة ذراعان». فقال ﷺ: «أما إنك لو سكت لناولتني ذراعا فذراعا ما سكت». ثم دعا بماء فمضمض فاه وغسل أطراف أصابعه ثم قام فصلى، رواه الإمام أحمد وغيره.

وقالت عائشة: «ما كانت الدراع أحب اللحم إلى رسول الله ﷺ، ولكنه كان لا يجد اللحم إلا غبّا وكان يعجل إليها لأنها أعجلها نضجا»، رواه الترمذي.

وكذلك كان ﷺ يحب لحم الرقبة، فعن ضباعة بنت الزبير أنها ذبحت في بيتها شاة فأرسل إليها رسول الله ﷺ أن أطعمينا من شائكِم، فقالت: «ما بقي عندنا إلا الرقبة، وإني لأستحيي أن أرسل بها إلى رسول الله ﷺ»، فرجع الرسول فأخبره، فقال: «ارجع إليها فقل لها أرسلي بها، فإنها هادية الشاة، وأقرب الشاة إلى الخير وأبعدها من الأذى». وكان عليه الصلاة والسلام ينهش اللحم.

وفي البخاري، أنه عليه الصلاة والسلام احتز من كتف شاة في يده فدعي إلى الصلاة، فألقاها والسكين التي يختز بها ثم قام إلى الصلاة ولم يتوضأ.

وأكل ﷺ الشوي. فعن أم سلمة رضي الله عنها، أنها قربت إلى النبي ﷺ جنبا مشويا فأكل منه ثم قام إلى الصلاة وما توضأ، رواه الترمذي.

وأكل عليه الصلاة والسلام القديد كما في حديث في السنن عن رجل قال: «ذبحت لرسول الله ﷺ شاة ونحن مسافرون»، فقال: «أصلح لحمها، فلم أزل أطعمه منه إلى المدينة».

وأكل عليه الصلاة والسلام من الكبد المشوية. وأكل ﷺ لحم الدجاج، رواه الشيخان وغيرهما. وأكل ﷺ لحم حمار الوحش،

رواه الشيخان. وأكل ﷺ لحم الجمل سفرا وحضرا. وأكل ﷺ لحم الأرنب، رواه الشيخان. وأكل ﷺ من دواب البحر، رواه مسلم.

وأكل ﷺ الشريد، وهو أن يترد الخبر بمرق اللحم وقد يكون معه اللحم. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «أحب الطعام إلى رسول الله ﷺ الشريد من الخبز والثريد من الحيس»، وأكله عليه الصلاة والسلام بالسمن.

وأكل ﷺ الخبز بالزيت. وأكل عليه الصلاة والسلام الدباء، وكانت تعجبه، وكان يتتبعها من حوالي القصعة، قال أنس: «فلم أزل أحب الدباء من يومئذ»، رواه مسلم. قال النووي: «فيه إنه يستحب أن تحب الدباء، وكذلك كل شيء كان يحبه ﷺ».

وكذلك أكل عليه الصلاة والسلام السلق مطبوخا بالشعير، رواه الترمذي. وكانوا يصبون له عليه شيئا من زيت وشيئا من الفلفل والتوابل، وهي أبزار الطعام.

وأكل عليه الصلاة والسلام الخزيرة، وهي ما يتخذ من الدقيق على هيئة العصيدة، لكنه أرق منها، قاله الطبري.

وأكل ﷺ الأقط، وهو جبن اللبن المستخرج زبده. وأكل عليه الصلاة والسلام الرطب والتمر والبسر، رواه مسلم وغيره. وأكل الكباث، رواه مسلم، وهو النضيج من تمر الأراك.

وأما الجبن، ففي السنن من حديث ابن عمر قال: «أتى النبي ﷺ بجبنة في تبوك، فدعا بسكين فسمى وقطع»، رواه أبو داود.

وكان ﷺ يأكل البطيخ بالرطب، ويقول: «يكسر حر هذا برد هذا، وبرد هذا حر هذا»، رواه أبو داود وغيره.

وروى الطبراني من حديث عبد الله بن جعفر قال: «رأيت في يمين النبي ﷺ قثاء، وفي شماله رطبا، وهو يأكل من ذا مرة ومن ذا مرة».

وعن أنس رضي الله عنه قال: «رأيت رسول الله ﷺ يجمع بين الرطب والخريز»، رواه أبو نعيم، وهو نوع من البطين الأصفر. وكان عليه الصلاة والسلام يأكل التمر بالزيت ويحبه.

وسمى رسول الله ﷺ اللبن بالتمر الأطيبين، رواه أحمد.

وكان ﷺ يأكل الخبز مأدوما ما وجد له إداما. فتارة يأدمه باللحم، ويقول: «هو سيد الطعام لأهل الدنيا والآخرة»، وتارة بالبطيخ، وتارة بالتمر، فإنه وضع تمرة على كسرة من خبز الشعير، وقال: «هذه إدام هذه»، رواه أبو داود وغيره، وتارة بالخل، ويقول: «نعم الأدم الخل»، رواه مسلم.

وكان عليه الصلاة والسلام يأكل من فاكهة بلده عند مجينها ولا يحتمي عنها، وهذا من أكبر أسباب الصحة. روى ابن عباس قال: «رأيت رسول الله ﷺ يأكل العنب خرطا».

أما البصل، فروى أبو داود عن عائشة رضي الله عنها أنها سئلت عن البصل، فقالت: «إن آخر طعام أكله رسول الله ﷺ فيه بصل، أي مطبوح». وثبت عنه في الصحيحين أنه منع آكله من دخول المسجد. وكان ﷺ يترك النوم دائمًا لأنه يتوقع مجيء الملائكة والوحي كل ساعة. وكان عليه الصلاة والسلام يأكل بأصابعه الثلاث، رواه الترمذي. وكان عليه الصلاة والسلام يلعق أصابعه إذا فرغ ثلاثًا، رواه الترمذي. وفي رواية مسلم: «ويلعق يده قبل أن يمسحها».

وعن كعب بن عجرة ﵁ قال: «رأيت رسول الله ﷺ يأكل بأصابعه الثلاث: بالإبهام والتي تليها والوسطى، ثم رأيته يلعق أصابعه الثلاث قبل أن يمسحها: الوسطى، ثم التي تليها، ثم الإبهام». وأكل أيضًا ﷺ بخمس. وكان ﷺ لا يأكل متكئًا، كما صح أنه قال: «لا أكل متكئًا»، رواه البخاري. وقال عليه الصلاة والسلام: «إنما أنا عبد، أجلس كما يجلس العبد، وآكل كما يأكل العبد».

وأهديت له ﷺ شاة، فجثا على ركبتيه يأكل، فقال أعرابي: «ما هذه الجلسة؟»، فقال: «إن الله تعالى جعلني كريما ولم يجعلني جبارًا عنيدًا»، رواه الطبراني وغيره. قال الحافظ بن حجر: «المستحب في صفة الجلوس للأكل أن يكون جاثيًا على ركبتيه وظهور قدميه، أو ينصب الرجل اليمنى ويجلس على اليسرى».

وكان ﷺ إذا وضع يده في الطعام يسمي الله تعالى، وكان يحمد الله في آخره فيقول: «الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه غير مودع ولا مستغنى عنه ربنا»، رواه الترمذي. وقد كان ﷺ يحب التيامن في شأنه كله، وقال عليه الصلاة والسلام: «يا غلام، سم الله، وكل بيمينك مما يليك».

وقرب إليه ﷺ طعام، فقالوا: «ألا نأتيك بوضوء؟»، فقال: «إنما أمرت بالوضوء إذا قمت إلى الصلاة»، رواه الترمذي. وفي رواية له أنه عليه الصلاة والسلام قال: «بركة الطعام الوضوء قبله والوضوء بعده»، فيحمل الوضوء الأول على الشرعي والثاني على اللغوي.

ولم يكن ﷺ يأكل طعامًا حارًا، فقد أتي بصحفة تفور، فقال: «إن الله لم يطعمنا نارا»، رواه الطبراني. وعن أنس، كان ﷺ يكره الكي

والطعام الحار، ويقول: «عليكم بالبارد، فإنه ذو بركة، ألا وإن الحار لا بركة فيه»، رواه أبو نعيم في الحلية... ولم يأكل ﷺ على خوان، ولا أكل خبزًا مرقّقًا، رواه الترمذي. والخوان هو المائدة ما لم يكن عليها طعام، وأما السفرة فاشتهرت لما يوضع عليها الطعام. وكان له عليه الصلاة والسلام قدح من خشب مضبب بحديد، قال أنس: «لقد سقيته عليه الصلاة والسلام بهذا القدح الشراب كله: الماء والنبيذ والعسل»، وفي البخاري أنه كان قد انصدع فسلسله أنس بفضة. وهذا النبيذ هو ماء يُطرح فيه التمر يحليه وله نفع عظيم في زيادة القوة، ولم يكن يشربه بعد ثلاث خوفًا من تغيره إلى الإسكار.

(وأما شربه) ﷺ، فقد كان يستعذب له الماء، أي يطلب له الماء الحلم. قالت عائشة: «كان يستعذب له الماء من بيوت السقيا»، رواه أبو داود. وقد كان عليه الصلاة والسلام يشرب العسل الممزوج بالماء البارد. وقالت عائشة رضي الله عنها: «كان أحب الشراب إليه ﷺ الحلو البارد»، رواه الترمذي. ويحتمل أن تريد به الماء الممزوج بالعسل أو الذي نقع فيه التمر والربيب.

وكان ينبذ له أول الليل ويشرب إذا أصبح يومه ذلك، والليلة التي تجيء والغد إلى العصر. فإن بقي شيء سقاه الخادم أو أمر به فصب، رواه مسلم. وكان عليه الصلاة والسلام يشرب اللبن خالصًا تارة، وتارة مشوبًا بالماء البارد.

وعن جابر، أنه ﷺ دخل على رجل من الأنصار ومعه صاحب له، فسلم، فرد الرجل وهو يحول الماء في حائطه، فقال ﷺ: «إن كان عندك ماء بات في شنه وإلا كرعنا»، فقال: «عندي ماه بات في شن»،

فانطلق إلى العريش، فسكب في قدح ماء ثم حلب عليه من داجن، فشرب عليه الصلاة والسلام، رواه البخاري.

قال ابن القيم: «ولم يكن ﷺ يشرب على طعامه لئلا يفسده، ولا سيما إن كان الماء حارًا أو باردًا، فإنه رديء جدًا». وكان عليه الصلاة والسلام يشرب قاعدًا، وكان ذلك عادته ﷺ، رواه مسلم. وروى أيضًا أنه نهى عن الشرب قائما. وفي حديث عن علي رضي الله عنه عند البخاري، أنه شرب وهو قائم ثم قال: «إن ناسًا يكرهون الشرب قائمًا، وإن النبي ﷺ صنع مثل ما صنعت»، فالنهي محمول على كراهة التنزيه، وشربه ﷺ قائمًا لبيان الجواز.

كان ﷺ يتنفس في الشراب ثلاثًا، ويقول: «إنه أروى وأمرأ وأبرأ»، رواه مسلم. ومعنى تنفسه: إبانة القدح عن فيه وتنفسه خارجه ثم يعود إلى الشراب.

روى الطبراني عن أبي هريرة، أن النبي ﷺ كان يشرب في ثلاثة أنفاس، إذا أدنى الإناء إلى فيه سمى الله تعالى، فإذا أخره حمد الله، يفعل ذلك ثلاثًا. وكان ﷺ إذا دعي لطعام وتبعه أحد، أعلم به رب المنزل، فقال: «فيقول إن هذه اتبعنا، فإن شئت رجع». وكان عليه الصلاة والسلام يكرر على أضيافه ويعرض عليهم الأكل مرارًا.

وكان عليه الصلاة والسلام إذا أكل مع قوم، كان آخرهم أكلا، رواه البيهقي. وكان عليه الصلاة والسلام إذا أكل عند قوم لم يخرج حتى يدعو لهم، فدعا في منزل عبد الله بن يسر، فقال: «اللهم بارك لهم فيما رزقتهم، واغفر لهم وارحمهم»، رواه مسلم. ودعا في منزل سعد فقال: «أفطر عندكم الصائمون، وأكل طعامكم الأبرار، وصلت

عليكم الملائكة»، رواه أبو داود. وسقاه آخر لبنًا، فقال: «اللهم متعه بشبابه»، فمرت عليه ثمانون سنة لم ير شعرة بيضاء، رواه ابن السني.

النوع الثاني: في لباسه وفراشه ﷺ

كان ﷺ يتجوز من اللباس، يعني يتوسع فلا يضيق بالاقتصار على صنف بعينه ولا بطلب النفيس الغالي، بل يستعمل ما تيسر. وكانت سيرته ﷺ في ملبسه أتم وأنفع للبدن وأخف عليه، فإنه لم تكن عمامته بالكبيرة التي يؤذي حملها ولا بالصغيرة التي تقصر عن وقاية الرأس من الحر والبرد، وكذلك الأردية والأزر أخف على البدن من غيرها. ولم يكن ﷺ يطول أكمامه ويوسعها، بل كان كمه إلى الرسغ، وهو منتهى الكف عند المفصل. وكان ذيل قميصه وردائه إلى أنصاف الساقين لم يتجاوز الكعبين.

أخرج الترمذي عن الأشعث بن سليم قال: سمعت عمتي تحدث عن عمها قال: «بينما أنا أمشي بالمدينة إذا إنسان خلفي يقول: ارفع إزارك فإنه أتقى وأبقى، فإذا هو رسول الله ﷺ. فقلت: يا رسول الله، إنما هي بردة. قال: أما لك في أسوة؟» فنظرت فإذا إزاره إلى نصف ساقيه.

وكان له عليه الصلاة والسلام عمامة تسمى السحاب، ويلبس تحتها القلانس اللاطئة. والقلانس جمع قلنسوة، وهي غشاء مبطن يستر الرأس.

روى الترمذي عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: «دخل النبي ﷺ مكة يوم الفتح وعليه عمامة سوداء»، وفي رواية أنس عند البخاري قال: «دخل ﷺ عام الفتح وعلى رأسه المغفر، وهو زرد

ينسج من الدرع على قدر الرأس، ويجمع بينهما بأن العمامة كانت فوق المغفر.»

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله ﷺ يعتم، يدير كور عمامته ويغرسها من ورائه ويرخي لها ذؤابة بين كتفيه.» رواه ابن حبان في كتاب «أخلاق النبي ﷺ».

روى ابن أبي شيبة عن علي رضي الله عنه قال: «عممني رسول الله ﷺ بعمامة، سدل طرفها على منكبي.» قال: «إن الله أمدني يوم بدر ويوم حنين بملائكة معممين، هذه العمة وقال: إن العمامة حاجز بين المسلمين وأهل النار.»

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كانت له كمة بيضاء. رواه الدمياطي، والكمة القلنسوة.

وعن أبي كبشة الأنماري قال: «كانت كمام وفي رواية أكمة أصحاب النبي ﷺ يطحا.» رواه الترمذي، وهي جمع كمة القلنسوة، يعني أنها كانت ممطحة غير منتصبة.

وكان أحب الثياب إليه ﷺ القميص. رواه الترمذي عن أم سلمة رضي الله عنها.

وعن معاوية بن قرة عن أبيه قال: «أتيت رسول الله ﷺ في رهط من مزينة لنبايعه، وإن قميصه لمطلق الأزرار أو قال: زر قميصه مطلق. قال: فأدخلت يدي في جيب قميصه فمسست الخاتم.» رواه الترمذي.

وعن أنس قال: «كان أحب الثياب إلى رسول الله ﷺ يلبسه الحبرة.» رواه الترمذي.

والحبرة ضرب من البرود فيه حمرة.

وعن أبي رمثة قال: «رأيت رسول الله ﷺ وعليه بردان أخضران.» رواه الترمذي.

وعن أبي يعلى عن أبيه قال: «رأيته ﷺ يطوف بالبيت مضطبعًا ببرد أخضر.» رواه أبو داود.

وعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه أن النبي ﷺ لبس جبة رومية ضيقة الكمين. رواه الترمذي.

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: «أتيت النبي ﷺ وعليه ثوب أبيض.» رواه البخاري.

عن أنس رضي الله عنه قال: «كان النبي ﷺ يلبس الصوف، وكان له ﷺ كساء ملبد يلبسه، ويقول: إنما أنا عبد ألبس كما يلبس العبد.» رواه الشيخان.

وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: «رأيت النبي ﷺ في ليلة إضحيان، فجعلت أنظر إليه ﷺ وإلى القمر، وعليه حلة حمرا، فإذا هو أحسن عندي من القمر.» رواه الدارمي والترمذي.

وعن أبي جحيفة قال: «رأيت النبي ﷺ وعليه حلة حمرا كأنني أنظر إلى بريق ساقيه.»

وعن البراء بن عازب قال: «ما رأيت أحدًا من الناس أحسن في حلة حمراء من رسول الله ﷺ.» رواه الترمذي.

وفي رواية البخاري ومسلم: «رأيته ﷺ في حلة حمراء، لم أر شيئًا قط أحسن منه.»

وفي رواية لأبي داود: «ما رأيت من ذي لمة في حلة حمراء أحسن من رسول الله ﷺ.» واللمة شعر الرأس دون الجمة. وفي

رواية النسائي: «ما رأيت رجلًا أحسن في حلة حمراء من رسول الله ﷺ.» والحلة إزار ورداء، ولا تكون حلة إلا من ثوبين أو ثوب له بطانة.

وأما صفة إزاره ﷺ، فعن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري قال: «أخرجت إلينا عائشة كساء وإزارًا غليظًا»، فقالت: «قبض رسول الله ﷺ في هذين»، رواه البخاري. وفي رواية: «كساء ملبد»، قال ابن الأثير: «أي مرفعا، وقيل الملبد الذي يخن وسطه ويصفق حتى صار يشبه اللبد».

وعن عائشة أيضًا قالت: «خرج رسول الله ﷺ ذات غداة وعليه مرط مرحل من شعر أسود»، رواه مسلم. والمرط كساء من صوف أو خذ يؤتزر به. قال النووي: «والصواب الذي رواه الجمهور وضبطه المتقنون بالحاء المهملة، أي عليه صور رحال الإبل، ولا بأس بهذه الصورة، وإنما يحرم تصوير الحيوان».

وعن عروة: «أن طول رداء النبي ﷺ أربعة أذرع وعرضه ذرعان وشبر». وعنه أيضًا: «أن ثوب رسول الله ﷺ الذي كان يخرج فيه إلى الوفد رداء أخضر في طول أربعة أذرع وعرضه ذراعان وشبر».

وعن محمد بن هلال قال: «رأيت على هشام بن عبد الملك برد النبي ﷺ من حبرة له حاشيتان».

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «دخلت على رسول الله ﷺ وعليه إزار يتقعقع».

وعن يزيد بن أبي حبيب أنه ﷺ كان يرخي الإزار من بين يديه ويرفعه من ورائه.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «رأيت رسول الله ﷺ يأتزر تحت سرته وتبدو سرته، ورأيت عمر يأتزر فوق سرته»، رواها كلها الدمياطي.

وعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما أنها أخرجت جنة طيالسة كسروانية لها لبنة ديباج وفرجاها مكفوفان بالديباج، وقالت: «هذه جبة رسول الله ﷺ كانت عند عائشة فلما قبضت قبضتها، وكان النبي ﷺ يلبسها، فنحن نغسلها للمرضى ونستشفي بها»، رواه مسلم.

وقوله: «جبة طيالسة» بإضافة جبة إلى طيالسة وكسروانية نسبة إلى كسرى، ولينة رقعة من جيب القميص.

ولما كان رسول الله ﷺ لا يبدو منه إلا طيب، كان آية ذلك في بدنه الشريف أنه لا ينسخ له ثوب، قيل ولم يقمل ثوبه. ونقل الفخر الرازي أن الذباب لا يقع على ثيابه ﷺ وأنه لا يمتص دمه البعوض.

وعن أنس رضي الله عنه أنه ﷺ كان يكثر القناع، وفي رواية: «يكثر التقنع»، قال العراقي: «التقنع تغطية الرأس بطرف العمامة أو برداء أو نحو ذلك».

وأما الخاتم، ففي الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ اتخذ خاتمًا من ورق فكان في يده ثم كان في يد أبي بكر ثم كان في يد عمر ثم كان في يد عثمان رضي الله عنه حتى وقع في بئر أريس.

وفي الصحيحين أيضًا عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ لبس خاتم فضة فيه فص حبشي وكان يجعل فصه مما يلي كفه.

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كتب إلى كسرى وقيصر والنجاشي فقيل له: «إنهم لا يقبلون كتابًا إلا بختم»، فصاغ خاتمًا

ونقش عليه «محمد رسول الله». وإنما لبسه أبو بكر لأجل ولايته، فإنه كان يحتاج إليه كما كان النبي ﷺ يحتاج إليه، وكذلك عمر وعثمان رضي الله عنهم.

وفي الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه ﷺ اتخذ خاتمًا من ذهب فجعله في يمينه، وجعل فصه مما يلي باطن كفه، فاتخذ الناس خواتيم الذهب، قال: «فصعد رسول الله ﷺ المنبر فألقاه ونهى عن التختم بالذهب».

وأما فص خاتمه عليه الصلاة والسلام، فعن أنس أن النبي ﷺ اتخذ خاتمًا من فضة فصه منه، أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما.

وفي صحيح مسلم أن خاتمه ﷺ كان فصه حبشيًا، أي من جزع أو عقيق، ومعدنهما بالحبشة واليمن.

وأما نقش خاتمه عليه الصلاة والسلام ففي صحيح مسلم عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ صنع خاتمًا من ورق، نقش فيه «محمد رسول الله»، وقال للناس: «إني اتخذت خاتمًا من فضة ونقشت فيه محمد رسول الله فلا ينقس أحد على نقشه».

وفي رواية البخاري والترمذي وكان نقش الخاتم ثلاثة أسطر: «محمد» سطر، «رسول» سطر، «الله» سطر.

وفي صحيح مسلم عن أنس قال: «كان خاتم رسول الله ﷺ في هذه»، وأشار إلى الخنصر من يده اليسرى.

وعن حماد بن أبي سلمة قال: «رأيت ابن أبي رافع يتختم في يمينه»، وقال: «كان النبي ﷺ يتختم في يمينه»، رواه الإمام أحمد وغيره.

وكان عليه الصلاة والسلام يتختم، وربما خرج وفي خاتمه خيط مربوط يستذكر به الشيء، رواه ابن عدي وغيره.

وأما السراويل، فقد جزم بعض العلماء بأنه ﷺ لم يلبسها، لكن قد ورد في حديث عند أبي يعلى الموصلي بسند ضعيف عن أبي هريرة قال: «دخلت السوق يومًا مع رسول الله ﷺ فجلس إلى البزازين، فاشترى سراويل بأربعة دراهم، وكان لأهل السوق وزان يزن، فقال له رسول الله ﷺ: ‹اتزن وأرجع›». فقال الوزان: «إن هذه الكلمة ما سمعتها من أحد»، قال أبو هريرة: «فقلت له: كفى بك من الوهن والجفاء في دينك أن لا تعرف نبيك»، فطرح الميزان ووثب إلى يد رسول الله ﷺ يريد أن يقبلها، فجذب يده ﷺ منه، وقال: «يا هذا إنما تفعل هذا الأعاجم بملوكها، ولست بملك، إنما أنا رجل منكم، فوزن فأرجح»، وأخذ رسول الله ﷺ السراويل.

قال أبو هريرة: «فذهبت لأحمله عنه»، فقال صاحب الشيء: «أحق بشيته أن يحمله إلا أن يكون ضعيفًا يعجز عنه فيعينه أخوه المسلم»، قال: «قلت يا رسول الله، فإنك لتلبس السراويل؟»، فقال: «أجل في السفر والحضر وبالليل والنهار، فإني أمرت بالستر فلم أجد شيئًا أستر منه»، وقد صح شراء النبي ﷺ للسراويل.

(وأما الخف) فروى الترمذي عن بريدة أن النجاشي أهدى للنبي ﷺ حفين أسودين ساذجين فلبسهما ثم توضأ ومسح عليهما. وعن المغيرة بن شعبة قال: أهدى دحية للنبي ﷺ خفين فلبسهما.

(وأما نعله) ﷺ فعن أنس أن نعل النبي ﷺ كان لهما قبالآن، والقبالآن تثنية «قبال»، وهو زمام النعل، وهو السير الذي يكون بين

الإصبعين. وعن عبيد بن جريج أنه قال لابن عمر: «رأيتك تلبس النعال السبنية»، قال: «إني رأيت النبي ﷺ يلبس النعال التي ليس فيها شعر ويتوضأ فيها، فأنا أحب أن ألبسها.» وعن عمرو بن حريث قال: «رأيت النبي ﷺ يصلي في نعلين مخصوفتين.» وعن عائشة رضي الله عنها: «كان رسول الله ﷺ يحب التيمن ما استطاع في ترجله وتنعله وطهوره.» رواه الترمذي.

وأفرد يمثال نعله ﷺ بالتأليف غير واحد، ومن بعض ما ذكر من فضلها وجرب من نفعها وبركتها ما ذكره أبو جعفر أحمد بن عبد المجيد وكان شيخًا صالحًا، قال: «حذوت هذا المثال لبعض الطلبة، فجاءني يومًا فقال لي: 'رأيت البارحة من بركة هذا النعل عجبًا، أصاب زوجتي وجع شديد كاد يهلكها، فجعلت النعل على موضع الوجع وقلت: اللهم أرني بركة صاحب هذا النعل، فشفاها الله للحين.'»

وممن أفرد التمثال الشريف بالتأليف أبو إسحاق السلمي الأندلسي المشهور بابن الحاج. قال أبو القاسم بن محمد: «ومما جرب من بركته أنه من أمسكه عنده متبركًا به كان له أمانًا من بغي البغاة وغلبة العداة، وحرزًا من كل شيطان مارد وعين كل حاسد. وإن أمسكته المرأة الحامل بيمينها وقد اشتد عليها الطلق، تيسر أمرها بحول الله تعالى وقوته.»

ولأبي بكر القرطبي رحمه الله:

«ونعل خضعنا هيبة لبهائها
وإنا متى نخضع لها أبدًا نعل

فضعها على أعلى المفارق
إنها حقيقتها تاج وصورتها نعل
بأخمص خير الخلق حازت مزية
على التاج حتى باهت المفرق
الرجل طريق الهدى عنها استنارت
لمبصر وإن بحار الجود من فيضها حلوا
سلونا ولكن عن سواها
وإنما نهيم بمعناها الغريب
وما نسلو فما شاقنا مذراقنا
رسم عزها حميم ولا مال كريم
ولا نسل شفاء لذي سقم
رجاء لبائس أمان لذي خوف
كذا يحسب الفضل.»

(فراشه صلى الله عليه وآله وسلم)

وأما فراشه ﷺ فقد كان عليه الصلاة والسلام يأخذ من ذلك بما تدعو ضرورته إليه. فعن عائشة رضي الله تعالى عنها، قالت: «إنما كان فراش رسول الله ﷺ الذي ينام عليه أدمًا حشوه ليف.» رواه الشيخان. وروى البيهقي من حديثها قالت: «دخلت عليَّ امرأة من الأنصار فرأت فراش رسول الله ﷺ قطيفة مثنية، فبعثت إليَّ بفراش حشوه الصوف. فدخل عليَّ النبي ﷺ فقال: ‹ما هذا يا عائشة؟› قلت: ‹يا رسول الله، فلانة الأنصارية دخلت فرأت فراشك فبعثت إليَّ بهذا.› فقال: ‹رده يا عائشة، فوالله لو شئت لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة.›»

وروى الطبراني عن عبد الله بن مسعود قال: «دخلت على رسول الله ﷺ وهو في غرفة كأنها بيت حمام، وهو نائم على حصير قد أثر بجنبه. فبكيت، فقال: ‹ما يبكيك يا عبد الله؟› قلت: ‹يا رسول الله، كسرى وقيصر يطرون على الخر والديباج والحرير، وأنت نائم على هذا الحصير قد أثر في جنبك.› فقال: ‹لا تبك يا عبد الله، فإن لهم الدنيا ولنا الآخرة.›»

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «دخلت على رسول الله ﷺ وهو على حصير، قال: فجلست، فإذا عليه إزاره، وليس عليه غيره، وإذا الحصير قد أثر في جنبه، وإذا بقبضة من الشعير نحو الصاع، وإذا إهاب معلق. فابتدرت عيناي، فقال: ‹ما يبكيك يا ابن الخطاب؟› فقلت: ‹يا نبي الله، وما لي لا أبكي؟ وهذا الحصير قد أثر في جنبك، وهذه خزائنك لا أرى فيها إلا ما أرى، وذاك كسرى وقيصر في الثمار والأنهار، وأنت نبي الله وصفوته، وهذه خزائنه.› قال: ‹يا ابن الخطاب، أما ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا.›» رواه ابن ماجه بإسناد صحيح والحاكم وقال: «صحيح على شرط مسلم.»

ولفظه قال عمر رضي الله عنه: «استأذنت رسول الله ﷺ فدخلت عليه في مشربة، وإنه لمضطجع على خصفة، وإن بعضه لعلى التراب. وتحت رأسه وسادة محشوة ليفا، وإن فوق رأسه لإهاب عطين. وفي ناحية المشربة فرظ. فسلمت عليه وجلست، فقلت: ‹أنت نبي الله وصفوته، وكسرى وقيصر على سرر الذهب وفرش الديباج والحرير.›

فقال: ‹أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الدنيا وهي وشيكة الانقطاع، وإنا قوم أخرت لنا طيباتنا في آخرتنا.›» والمشربة هي الغرفة يصعد إليها بدرجة، والخصفة وعاء من خوص للتمر، والإهاب الجلد، والعطين المنتن والقرض، ورق السلم الذي يذبغ به. ورواية الإهاب والعطين بدون ألف مع كونهما منصوبين على لغة ربيعة.

وعن عائشة ﵂ قالت: «كان لرسول الله ﷺ سرير مرمل بالبردي عليه كساء أسود، وقد حشوناه بالبردي. فدخل أبو بكر وعمر عليه، فإذا النبي ﷺ نائم عليه.

فلما رآهما استوى جالسًا، فنظر فإذا أثر السرير في جنب رسول الله ﷺ. فقالا: ‹يا رسول الله، ما تؤذيك خشونة ما نرى من فراشك وسريرك؟ وهذا كسرى وقيصر على فرش الديباج والحرير.› فقال عليه الصلاة والسلام: ‹لا تقولا هذا، فإن فراش كسرى وقيصر في النار، وإن فراشي وسريري عاقبته إلى الجنة.›» رواه ابن حبان في صحيحه.

والمرمل هو المنسوج، والبردي هو نبات. وما عاب عليه الصلاة والسلام مضطجعًا قط، إن فرض له اضطجع، وإلا اضطجع على الأرض.

وتغطى ﷺ باللحاف، قال عليه الصلاة والسلام: «ما أتاني جبريل وأنا في لحاف امرأة منكن غير عائشة.» عدد الحرائر ما لم يبح لغيره، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «تزوجوا، فإن أفضل هذه الأمة أكثرها نساء.» يشير إليه ﷺ.

النوع الرابع في نومه ﷺ

كان عليه الصلاة والسلام ينام أول الليل ويستيقظ في أول النصف الثاني، فيقوم فيستاك ويتوضأ. ولم يكن يأخذ من النوم فوق القدر المحتاج، ولا يمنع نفسه من القدر المحتاج إليه منه. وكان ﷺ ينام على جنبه الأيمن ذاكرًا الله تعالى حتى تغلبه عيناه، غير ممتلئ البطن من الطعام والشراب.

وكان عليه الصلاة والسلام ينام على الفراش تارة، وعلى النطع تارة، وعلى الحصير تارة، وعلى الأرض تارة. والنطع هو من جلد. وكان فراشه أدمًا حشوه ليفًا، وكان له مسح ينام عليه، والمسح هو فراش خشن.

وكان ﷺ إذا أخذ مضجعه، وضع كفه تحت خده الأيمن، وقال: «رب قني عذابك يوم تبعث عبادك» وفي رواية: «يوم تجمع عبادك.»

وقال أبو قتادة: كان عليه الصلاة والسلام إذا عرس بليل، اضطجع على شقه الأيمن، وإذا عرس قبيل الصبح، نصب ذراعه ووضع رأسه على كفه.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كان عليه الصلاة والسلام إذا نام نفخ.

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: كان عليه الصلاة والسلام إذا أوى إلى فراشه، قال: «باسمك اللهم أموت وأحيا.»

وقالت عائشة رضي الله عنها: كان ﷺ يجمع كفيه فينفث فيهما، ويقرأ «قل هو الله أحد»، و«قل أعوذ برب الفلق»، و«قل أعوذ برب الناس»، ثم

يمسح بهما ما استطاع من جسده، ويبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده، يصنع ذلك ثلاث مرات.

وقال أنس ﵁: كان عليه الصلاة والسلام إذا أوى إلى فراشه، قال: «الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا، فكم ممن لا كافي له ولا مؤوي.» رواه الترمذي.

وقد كان عليه الصلاة والسلام تنام عيناه ولا ينام قلبه. رواه البخاري من حديث عائشة، قاله لها عليه الصلاة والسلام لما قالت له: «أتنام قبل أن تُوتِر؟»

المقصد الرابع

معجزاته عليه الصلاة والسلام الدالة على ثبوت نبوته وصدق رسالته، وما خص به من خصائص آياته وبدائع كراماته وفيه فضلان

الفصل الأول: معجزاته صلى الله عليه وسلم

اعلم أن دلائل نبوة نبينا ﷺ كثيرة، والأخبار بظهور معجزاته شهيرة.

فمن دلائل نبوته ﷺ ما وجد في التوراة والإنجيل وسائر كتب الله المنزلة من ذكره ونعته وخروجه بأرض العرب، وما خرج بين يدي أيام مولده ومبعثه من الأمور الغريبة القادحة في سلطان الكفر، الموهنة لكلمتهم، المؤيدة لشأن العرب، المنوهة بذكرهم؛ كقصة الفيل وما أحل الله سبحانه وتعالى بأصحابه من العقوبة والنكال، وحمود نار فارس، وسقوط شرفات إيوان كسرى، وغيض ماء بحيرة ساوة، ورؤيا الموبذان، وما سُمع من الهواتف الصارخة بنعوته وأوصافه ﷺ، وانتكاس الأصنام المعبودة وخرورها لوجهها من غير دافع لها من أمكنتها.

إلى سائر ما رُوي ونُقل في الأخبار المشهورة من ظهور العجائب في ولادته وأيام حضانته وبعدها إلى أن بعثه الله تعالى نبيًا. ولم يكن له ﷺ ما يستميل به القلوب من مال فيُطمع فيه، ولا قوة فيقهر بها الرجال، ولا أعوان على الرأي الذي أظهره والدين الذي دعا إليه. وكانوا يجتمعون على عبادة الأصنام وتعظيم الأزلام، مقيمين على عادة الجاهلية في العصبية والحمية والتعادي والتباغي وسفك الدماء وشن الغارات، لا تجمعهم ألفة دين، ولا يمنعهم من سوء أفعالهم نظر في عاقبة، ولا خوف عقوبة ولائمة.

فألف ﷺ بين قلوبهم، وجمع كلمتهم، حتى اتفقت الآراء وتناصرت القلوب وترادفت الأيدي، فصاروا إلبًا واحدًا في نصرته، وعنقًا واحدًا إلى طلعته، وهجروا بلادهم وأوطانهم، وجفوا قومهم وعشائرهم في محبته، وبذلوا مهجهم وأرواحهم في نصرته، ونصبوا وجوههم لوقع السيوف في إعزاز كلمته، بلا دنيا بسطها لهم، ولا أموال أفاضها عليهم، ولا غرض في العاجل أطمعهم في نيله يرجونه، أو أمر من مهمات الدنيا يحورونه.

بل كان من شأنه ﷺ أن يجعل الغني فقيرًا، والشريف أسوة الوضيع. فهل يلتئم مثل هذه الأمور أو ينفق مجموعها لأحدٍ هذه سبيله من قبل الاختيار العقلي والتدبير الفكري؟ لا والذي بعثه بالحق وسخر له هذه الأمور، ما يرتاب عاقل في شيء من ذلك، وإنما هو أمر إلهي وشيء غالب سماوي، ناقض للعادات، تعجز عن بلوغه قوى البشر، ولا يقدر عليه إلا من له الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين.

فمن دلائل نبوته ﷺ أنه كان عليه الصلاة والسلام أميًا لا يخط كتابًا بيده ولا يقرؤه، ولد في قوم أميين، ونشأ بين أظهرهم في بلد ليس بها عالم يعرف أخبار الماضين، ولم يخرج في سفر ضاربًا إلى عالم فيعكف عليه، فجاءهم بأخبار التوراة والإنجيل والأمم الماضية، وقد كانت ذهبت معالم تلك الكتب ودُرست وحُرّفت عن مواضعها، ولم يبق من المتمسكين بها وأهل المعرفة بصحيحها وسقيمها إلا القليل.

ثم حاجَّ كل فريق من أهل الملل المخالفة له بما لو احتشد له حذاق المتكلمين وجهابذة النقاد المتفننين لم يتهيأ لهم نقض ذلك،

وهذا أدل شيء على أنه أمر جاءه من عند الله سبحانه وتعالى.

ومن ذلك القرآن العظيم، فقد تحدى بما فيه من الإعجاز، ودعاهم إلى معارضته والإتيان بسورة من مثله، فعجزوا عن الإتيان بشيء منه. قال بعض العلماء: إن الذي أورده عليه الصلاة والسلام على العرب من الكلام الذي أعجزهم عن الإتيان بمثله أعجب في الآية وأوضح في الدلالة من إحياء الموتى وإبراء الأكمة والأبرص، لأنه أتى أهل البلاغة وأرباب الفصاحة ورؤساء البيان والمتقدمين في اللسن بكلام مفهوم المعنى عندهم، فكان عجزهم عنه أعجب من عجز من شاهد المسيح عند إحياء الموتى، لأنهم لم يكونوا يطمعون فيه ولا في إبراء الأكمة والأبرص ولا يتعاطون علمه. وقريش كانت تتعاطى الكلام الفصيح والبلاغة والخطابة، فدل على أن العجز عنه إنما كان ليصير علمًا على رسالته وصحة نبوته، وهذه حجة قاطعة وبرهان واضح.

قال أبو سليمان الخطابي: «وقد كان ﷺ من عقلاء الرجال عند أهل زمانه، بل هو أعقل خلق الله تعالى على الإطلاق. وقد قطع فيما أخبر به عن ربه تعالى بأنهم لا يأتون بمثل ما تحداهم به، فقال: فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا. فلولا علمه بأن ذلك من عند الله سبحانه وتعالى علام الغيوب، وأنه لا يقع فيما أخبر عنه خلف، وإلا لم يأذن له عقله أن يقطع القول في شيء بأنه لا يكون وهو يكون.» انتهى.

وهذا من أحسن ما يقال في هذا المجال وأبدعه وأكمله وأبينه؛ فإنه ﷺ نادى عليهم بالعجز قبل المعارضة، وبالتقصير عن بلوغ الغرض في المناقضة، صارخًا بهم على رؤوس الأشهاد، ولم يستطع

أحد منهم الإلمام به مع توفر الدواعي وتظاهر الاجتهاد، فقال وكان بما ألقى إليهم من الأخبار عليمًا خبيرًا: ﴿**قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا**﴾[الإسراء:88]. فرضيت هممهم السرية وأنفسهم الشريفة الأبية بسفك الدماء وهتك الحرم لعجزهم.

وقد ورد من الأخبار في قراءة النبي ﷺ بعض ما نزل عليه على المشركين، الذين كانوا من أهل الفصاحة والبلاغة، وإقرارهم بإعجازه جمل كثيرة، منها ما روي عن محمد بن كعب قال: «حدثت أن عتبة بن ربيعة قال ذات يوم وهو جالس في نادي قريش ورسول الله ﷺ وحده في المسجد: 'يا معشر قريش، ألا أقوم إلى هذا فأعرض عليه أمورًا لعله أن يقبل منا بعضها ويكف عنا؟' قالوا: 'بلى يا أبا الوليد.' فقام عتبة فجلس إلى رسول الله ﷺ، فذكر الحديث فيما قاله عتبة وفيما عرض عليه من المال وغير ذلك. فلما فرغ قال رسول الله ﷺ: 'أفرغتَ يا أبا الوليد؟' قال: 'نعم.' قال: 'فاسمع مني.' قال: 'أفعل.' فقال ﷺ: **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** ﴿**حم * تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ**﴾[فصلت:1-3]. فمضى رسول الله ﷺ يقرؤها عليه، فلما سمعها عتبة أنصت لها، وألقى بيديه خلف ظهره معتمدًا عليهما يستمع منه، حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة، فسجد فيها، ثم قال: 'سمعتَ يا أبا الوليد؟' قال: 'سمعتُ، فأنت وذاك.' فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: 'تحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به.' فلما جلس إليهم قالوا: 'ما وراءك يا أبا الوليد؟' قال: 'إني والله قد سمعت قولًا

ما سمعت بمثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا الكهانة. يا معشر قريش، أطيعوني، خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ.› قال: ‹فأجابني بشيء والله ما هو بشعر ولا سحر ولا كهانة.› قرأ: **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿حم * تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾**[فصلت:1-2] حتى بلغ: «فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود»، فأمسكت فمه وناشدته الرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمدًا إذا قال شيئًا لم يكذب، فخفت أن ينزل بكم العذاب.› رواه البيهقي وغيره.

وعن عكرمة في قصة الوليد بن المغيرة، وكان زعيم قريش في الفصاحة، أنه قال للنبي ﷺ: ‹اقرأ عليَّ.› فقرأ عليه: **﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ﴾**[النحل:90] إلى آخر الآية. قال: ‹أعد.› فأعاد ﷺ. فقال: ‹والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وما يقول هذا بشر.› ثم قال لقومه: ‹والله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني، ولا أعلم برجزه ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئًا من هذا، والله إن لقوله الذي يقول لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يُعلى.›

وفي خبره الآخر حين جمع قريشًا عند حضور الموسم وقال: ‹إن وفود العرب ترد، فأجمعوا فيه رأيًا لا يكذب بعضكم بعضًا.› فقالوا: ‹نقول كاهن.› قال: ‹والله ما هو بكاهن، ما هو بزمزمته ولا سجعه.› قالوا: ‹مجنون.› قال: ‹ما هو بمجنون، ولا بخلقه ولا بوسوسته.› قالوا: ‹فتقول شاعر.› قال: ‹ما هو بشاعر، قد عرفنا الشعر كله، رجزه

وهجزه وفريضه ومبسوطه ومقبوضه، ما هو بشاعر.) قالوا: (فتقول ساحر.) قال: (ما هو بساحر، ولا نفثه ولا عقده.) قالوا: (فما نقول؟) قال: (فما أنتم قاتلون من هذا شيئًا إلا وأنا أعرف أنه باطل.) رواه ابن إسحاق والبيهقي.

ولما أسلم فتيان بني سلمة قال عمرو بن الجموح لابنه: (أخبرني ما سمعت من كلام هذا الرجل.) فقرأ عليه: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ إلى أن بلغ: ﴿**الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾[الفاتحة:1-6]. فقال: (ما أحسن هذا وأجمله، أو كل كلامه مثل هذا؟) قال: (يا أبتِ، وأحسن من هذا.)

قال بعضهم: إن هذا القرآن لو وجد مكتوبًا في مصحف في فلاة من الأرض، ولم يعلم من وضعه هناك، لشهدت العقول السليمة أنه منزل من عند الله، وأن البشر لا قدرة لهم على تأليف مثل ذلك، فكيف إذا جاء على يد أصدق الخلق وأبرهم وأتقاهم، وقال إنه كلام الله، وتحدى الخلق كلهم أن يأتوا بسورة من مثله، فعجزوا؟ فكيف يبقى مع هذا شك؟ وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿**قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا**﴾[الإسراء:88]. فلم يقدر أحد أن يأتي بمثل هذا القرآن في زمن رسول الله ﷺ ولا بعده، على نظمه وتأليفه، وعذوبة منطقه، وصحة معانيه، وما فيه من الأمثال والأشياء التي دلت على البعث وآياته، والإنباء بما كان ويكون، وما فيه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والامتناع من إراقة الدماء، وصلة الأرحام، إلى غير ذلك. فكيف يقدر على ذلك أحد، وقد عجزت عنه العرب الفصحاء والخطباء والبلغاء والشعراء والفهماء من قريش وغيرها؟

وهو ﷺ في مدة ما عرفوه قبل نبوته وأداء رسالته أربعين سنة لا يحسن نظم كتاب، ولا عقد حساب، ولا ينشد شعرًا، ولا يحفظ خبرًا، ولا يروي أثرًا، حتى أكرمه الله بالوحي المنزل والكتاب المفصل، فدعاهم إليه وحاجهم به. قال الله تعالى: ﴿**قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ**﴾[يونس:16]. وشهد له في كتابه بذلك، فقال تعالى: ﴿**وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ**﴾[العنكبوت:48].

وأما ما عدا القرآن من معجزاته عليه الصلاة والسلام، كتفجير الماء من بين أصابعه، وتكثير الطعام ببركته، وانشقاق القمر، ونطق الجماد، فمنه ما وقع التحدي به، ومنه ما وقع دالًا على صدقه من غير سبق تحدٍّ. ومجموع ذلك يفيد القطع بأنه ظهر على يده ﷺ من خوارق العادات شيء كثير، مع أن كثيرًا من المعجزات النبوية قد اشتهر، ورواه العدد الكثير والجم الغفير.

وأنت إذا تأملت معجزاته وباهر آياته وكراماته عليه الصلاة والسلام، وجدتها شاملة للعلوي والسفلي، والصامت والناطق، والساكن والمتحرك، والمائع والجامد، والسابق واللاحق، والغائب والحاضر، والباطن والظاهر، والعاجل والآجل؛ إلى غير ذلك مما لو عُدَّ لطال، كالرمي بالشهب الثواقب، ومنع الشياطين من استراق السمع، وتسليم الحجر والشجر عليه ﷺ وشهادتها له بالرسالة، ومخاطبتها له بالسيادة، وحنين الجذع، ونبع الماء من كفه، وانشقاق القمر، ورد العين بعد العور، ونطق البعير والذئب، وكالنور المتوارث

من آدم إلى جبهة أبيه، وما سوى ذلك من المعجزات التي تداولتها الرواة، مما لو أعملنا أنفسنا في حصرها لفني المدى في ذكرها، ولو بالغ الأولون والآخرون في إحصاء مناقبه لعجزوا عن استقصاء ما حباه الكريم من مواهبه ﷺ. وهو باب فسيح المجال، منيع المنال، لكني أنبه من ذلك على نبذة يسيرة فأقول:

أما معجزة انشقاق القمر، فقد قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿**اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ**﴾[القمر:1]، والمراد وقوع انشقاقه، ويؤيده قوله تعالى بعد ذلك: ﴿**وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ**﴾[القمر:2]. وأعلم أن القمر لم ينشق لأحد غير نبينا ﷺ، وهو من أمهات معجزاته عليه الصلاة والسلام. وقد أجمع المفسرون وأهل السنة على وقوعه لأجله ﷺ؛ فإن كفار قريش لما كذبوه ولم يصدقوه طلبوا منه آية تدل على صدقه في دعواه، فأعطاه الله تعالى هذه الآية العظيمة التي لا قدرة لبشر على إيجادها، دالة على صدقه عليه الصلاة والسلام في دعواه الوحدانية لله تعالى.

قال الخطابي: انشقاق القمر آية عظيمة لا يكاد يعدلها شيء من آيات الأنبياء، وذلك أنه ظهر في ملكوت السموات، خارجًا عن جملة طباع ما في هذا العالم المركب من الطبائع، فليس مما يطمع في الوصول إليه بحيلة، فلذلك صار البرهان به أظهر.

فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ، فقال كفار قريش: هذا سحر ابن أبي كَبْشة، قال: فقالوا: انظروا ما يأتيكم به السفّار، فإن محمدًا لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم. قال: فجاء السفّار فأخبروهم بذلك، رواه أبو داود وغيره.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما اجتمع المشركون إلى رسول الله ﷺ، منهم الوليد بن المغيرة، وأبو جهل بن هشام، والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب، والنضر بن الحارث، ونظراؤهم، فقالوا للنبي ﷺ: إن كنت صادقًا فشق لنا القمر فرقتين، فسأل ربه فانشق. رواه أبو نعيم.

ورواه البخاري مختصرًا من حديث ابن عباس بلفظ: «إن القمر انشق على عهد رسول الله ﷺ». وفي الصحيحين من حديث أنس رضي الله عنه: أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية، فأراهم انشقاق القمر شقتين حتى رأوا حراء بينهما. ومن حديث ابن مسعود قال: «انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين، فرقة فوق الجبل وفرقة دونه»، فقال رسول الله ﷺ: «اشهدوا».

وفي الترمذي من حديث ابن عمر في قوله تعالى: ﴿**اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ**﴾[القمر:1]، قال: قد كان ذلك على عهد رسول الله ﷺ، انشق فلقتين، فلقة دون الجبل وفلقة خلف الجبل، فقال رسول الله ﷺ: «اشهدوا». وعند الإمام أحمد من حديث جبير بن مطعم قال: «انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فصار فرقتين، فرقة على هذا الجبل وفرقة على ذاك الجبل»، فقالوا: سحرنا محمد، فقالوا: «إن كان سحرنا، فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس».

قال ابن عبد البر: قد روي هذا الحديث -يعني حديث انشقاق القمر- عن جماعة كثيرة من الصحابة، وروى ذلك عنهم أمثالهم من التابعين، ثم نقله عنهم الجم الغفير إلى أن انتهى إلينا، وتأيد بالآية الكريمة. اهـ. وقال العلامة ابن السبكي في شرحه لمختصر ابن

الحاجب: والصحيح عندي أن انشقاق القمر متواتر، منصوص عليه في القرآن، مروي في الصحيحين وغيرهما، وله طرق شتى بحيث لا يُمترى في تواتره.

وأما رد الشمس له ﷺ، فروي عن أسماء بنت عميس رضي الله عنها: أن النبي ﷺ كان يُوحى إليه ورأسه في حجر علي رضي الله عنه، فلم يصلِّ العصر حتى غربت الشمس، فقال رسول الله ﷺ: «أصليتَ يا علي؟» قال: لا، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم إنه كان في طاعتك وطاعة رسولك، فاردد عليه الشمس». قالت أسماء: فرأيتها غربت، ثم رأيتها طلعت بعدما غربت، ووقعت على الجبال والأرض، وذلك بالصهباء في خيبر. حكاه القاضي عياض في «الشفاء» عن الطحاوي، ورواه عنها الطبراني في «معجمه الكبير»، وأخرجه عنها ابن منده وابن شاهين، وأخرجه ابن مزدويه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وروى الطبراني في «معجمه الأوسط» بإسناد حسن عن جابر أن رسول الله ﷺ أمر الشمس فتأخرت ساعة من نهار.

وذكر القاضي عياض عن ابن إسحاق أنه لما أُسري بالنبي ﷺ، أخبر قومه بالرفقة والعلامة التي في العير، فقالوا: متى تجيء؟ قال: يوم الأربعاء. فلما كان ذلك اليوم أشرفت قريش ينتظرون، وقد ولى النهار ولم تجيء، فدعا رسول الله ﷺ، فزيد له في النهار ساعة، وحُبست عليه الشمس.

وكذا رُوي حبس الشمس لنبينا ﷺ أيضًا يوم الخندق، حين شُغل عن صلاة العصر، فيكون حبس الشمس مخصوصًا بنبينا ﷺ، كما

ذكره القاضي عياض في «الإكمال» ونقله عنه النووي والحافظ ابن حجر ومغلطاي، وأقروه.

(وأما ما رُوي من طاعات الجمادات وتكليمها له ﷺ) بالتسبيح والسلام ونحو ذلك مما وردت به الأخبار، فمنها تسبيح الطعام والحصى في كفه الشريف ﷺ. ففي حديث أبي ذر قال: تناول النبي ﷺ سبع حصيات، فسبحن في يده حتى سمعت لهن حنينًا، ثم وضعهن في يد أبي بكر، فسبحن، ثم وضعهن في يد عمر، فسبحن، ثم وضعهن في يد عثمان، فسبحن. رواه البزار والطبراني. وفي رواية الطبراني: فسمع تسبيحهن من في الحلقة، ثم دفعهن إلينا فلم يسبحن مع أحد منا.

وقد أخرج البخاري من حديث ابن مسعود قال: «كنا نأكل مع النبي ﷺ الطعام ونحن نسمع تسبيح الطعام». وعن جعفر بن محمد عن أبيه قال: «مرض النبي ﷺ، فأتاه جبريل بطبق فيه رمان وعنب، فأكل منه النبي ﷺ فسبح». رواه القاضي عياض في «الشفاء».

ومن ذلك تسليم الحجر عليه ﷺ. خرج مسلم من حديث جابر بن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعرف حجرًا بمكة كان يسلم علي قبل أن أُبعث، إني لأعرفه الآن». وقد اختلف في هذا الحجر، فقيل: هو الحجر الأسود، وقيل: حجر غيره بزقاق معروف بمكة، والناس يتبركون بلمسه، ويقولون إنه هو الذي كان يسلم على النبي ﷺ كلما اجتاز به.

وروى الترمذي وغيره عن علي رضي الله عنه قال: «كنت أمشي مع النبي ﷺ بمكة، فخرجنا في بعض نواحيها، فما استقبله شجر ولا حجر إلا

قال: السلام عليك يا رسول الله». وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «لما استقبلني جبريل بالرسالة جعلت لا أمر بحجر ولا شجر إلا قال: السلام عليك يا رسول الله». رواه البزار وأبو نعيم.

ومن ذلك تأمين أسكفة الباب وحوائط البيت على دعائه عليه الصلاة والسلام. عن أبي أسيد الساعدي قال: قال رسول الله ﷺ للعباس بن عبد المطلب: «يا أبا الفضل، لا ترم منزلك أنت وبنوك غدًا حتى آتيكم، فإن لي فيكم حاجة». فانتظروه حتى جاء بعدما أضحى، فدخل عليهم فقال: «السلام عليكم»، فقالوا: «وعليك السلام ورحمة الله وبركاته». قال: «كيف أصبحتم؟» قالوا: «أصبحنا بخير بحمد الله». فقال لهم: «تقاربوا»، فتقاربوا، يزحف بعضهم إلى بعض، حتى إذا أمكنوه اشتمل عليهم بملاءته، فقال: «يا رب، هذا عمي وصنو أبي، وهؤلاء أهل بيتي، فاسترهم من النار كستري إياهم بملاءتي هذه»، فأمنت أسكفة الباب وحوائط البيت، فقالت: «آمين آمين آمين». رواه البيهقي وغيره.

ومن ذلك كلامه للجبل وكلام الجبل له ﷺ. عن أنس رضي الله عنه قال: «صعد النبي ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان أحدًا، فرجف بهم، فضربه النبي ﷺ برجله وقال: (اثبت أحد، فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان)». رواه البخاري وغيره. وأُحد جبل بالمدينة، وهو الذي قال فيه ﷺ: «(أحد جبل يحبنا ونحبه)». رواه البخاري ومسلم.

ورُوي تعدد القصة في جبل ثُبَير وجبل حراء بمكة. ولما طلبته عليه الصلاة والسلام قريش، قال له ثبير: «اهبط يا رسول الله، فإني أخاف أن يقتلوك على ظهري فيعذبني الله تعالى». فقال له حراء:

«إليّ يا رسول الله». رواه في «الشفاء». وحراء مقابل ثبير، والوادي بينهما.

ومن ذلك كلام الشجر له وسلامها عليه وطواعيتها له وشهادتها له بالرسالة ﷺ. تقدم أنه ﷺ لما أوحي إليه، جعل لا يمر بحجر ولا شجر إلا قال: «السلام عليك يا رسول الله».

وأخرج الإمام أحمد عن طلحة بن نافع قال: «جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ وهو جالس حزين قد حضب بالدماء، ضربه بعض أهل مكة، فقال له: ما لك؟ فقال له رسول الله ﷺ: (فعل بي هؤلاء وفعلوا)، فقال له جبريل: (أتحب أن أريك آية؟) فقال: نعم. فنظر إلى شجرة من وراء الوادي فقال: (ادعُ تلك الشجرة). فدعاها، قال: فجاءت تمشي حتى قامت بين يديه، فقال: (مرها فلترجع إلى مكانها)، فأمرها فرجعت إلى مكانها، فقال رسول الله ﷺ: (حسبي حسبي)».

وأخرج الحاكم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنا مع النبي ﷺ، فأقبل أعرابي، فلما دنا منه قال له رسول الله ﷺ: «أين تريد؟» قال: «إلى أهلي.» قال: «هل لك إلى خير؟» قال: «وما هو؟» قال: «تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله.» قال: «هل لك من شاهد على ما تقول؟» قال رسول الله ﷺ: «هذه الشجرة.» فدعاها رسول الله ﷺ وهي بشاطئ الوادي، فأقبلت تخدّ الأرض خدًا، فقامت بين يديه، فاستشهدها ثلاثًا، فشهدت، ثم رجعت إلى منبتها. رواه الحاكم وغيره.

(وقوله «تخد» أي تشق الأرض).

وعن بريدة أن أعرابيًا سأل النبي ﷺ آية، فقال له رسول الله ﷺ: «قل لتلك الشجرة: رسول الله يدعوك.» قال: فمالت الشجرة عن يمينها وعن شمالها وبين يديها وخلفها، فتقطعت عروقها، ثم جاءت تخد الأرض، تجر عروقها مغبرة، حتى وقفت بين يدي رسول الله ﷺ، فقالت: «السلام عليك يا رسول الله.» فقال الأعرابي: «مرها فلترجع إلى منبتها.» فرجعت، فدلت عروقها في ذلك الموضع فاستقرت، فقال الأعرابي: «ائذن لي أن أسجد لك.» قال: «لو أمرت أحدًا أن يسجد لأحد، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها.» رواه في الشفاء.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: «بم أعرف أنك رسول الله؟» قال: «إن دعوت هذا العذق من هذه النخلة أتشهد أني رسول الله؟» فدعاه رسول الله ﷺ، فجعل ينزل من النخلة حتى سقط إلى النبي ﷺ، ثم قال: «ارجع.» فعاد، فأسلم الأعرابي. رواه الترمذي وصححه.

وفي حديث يعلى بن مرة الثقفي: ثم سرنا حتى نزلنا منزلًا، فنام النبي ﷺ، فجاءت شجرة تشق الأرض حتى غشيته، ثم رجعت إلى مكانها، فلما استيقظ رسول الله ﷺ، ذكرت له، فقال: «هي شجرة استأذنت ربها في أن تسلم عليّ، فأذن لها.» رواه البغوي في شرح السنة.

وروى مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: سرنا مع رسول الله ﷺ حتى نزلنا واديًا أفيح، فذهب رسول الله ﷺ يقضي حاجته، فاتبعته بإداوة من ماء، فنظر رسول الله ﷺ فلم ير شيئًا يستتر به، فإذا شجرتان في شاطئ الوادي، فانطلق رسول الله ﷺ إلى

إحداهما، فأخذ بغصن من أغصانها، فقال: «انقادي عليّ بإذن الله تعالى.» فانقادت معه كالبعير المخشوش الذي يصانع قائده، ثم فعل بالأخرى كذلك، حتى إذا كان بالمنصف بينهما قال: «التئما عليّ بإذن الله تعالى»، فالتأمتا.

ومن ذلك حنين الجذع شوقًا إليه ﷺ، وهي آية كبرى من أكبر الآيات والمعجزات الدالة على نبوة نبينا محمد ﷺ. قال الإمام الشافعي رضي الله عنه: «ما أعطى الله تعالى نبيًا ما أعطى نبينا محمدًا ﷺ.» فقيل له: «أعطى عيسى إحياء الموتى.» قال: «أعطى محمدًا ﷺ حنين الجذع حتى سمع صوته، فهي أكبر من ذلك.» قال القاضي عياض: «حديث حنين الجذع مشهور منتشر، والخبر به متواتر، أخرجه أهل الصحيح، ورواه من الصحابة بضعة عشر، منهم: أبي بن كعب، وجابر بن عبد الله، وأنس بن مالك، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وسهل بن سعد، وأبو سعيد الخدري، وبريدة، وأم سلمة، والمطلب بن أبي وداعة.»

والقصة واحدة، وإن تغايرت بعض ألفاظها، وهي أن مسجد النبي ﷺ كان مسقوفًا على جذوع نخل، فكان النبي ﷺ إذا خطب يقوم إلى جذع منها، فصنع له المنبر ثلاث درجات ليسمع الناس خطبته لما كثروا، فلما قعد ﷺ خار الجذع حتى تصدع وانشق، وفي رواية: فصاحت النخلة، فنزل رسول الله ﷺ وضمها إليه، فجعلت تئن أنين الصبي الذي يشكي.

وفي رواية: سمعنا لذلك الجذع صوتًا كصوت العشار. وفي رواية: اضطربت تلك السارية كحنين الناقة الخلوج، وهي التي انتزع

منها ولدها. وفي رواية أنس: أنه سمع الخشبة تحن حنين الواله، فما زالت تحن حتى نزل رسول الله ﷺ عن المنبر، فمشى إليها فاحتضنها فسكتت.

وفي رواية: جأر الجذع كجؤار الثور حزنًا على رسول الله ﷺ حتى ارتج المسجد لجواره، فنزل إليه رسول الله ﷺ من المنبر، فالتزمه وهو يخور، فلما التزمه سكت، ثم قال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده، لو لم ألتزمه لما زال هكذا حتى تقوم الساعة حزنًا على رسول الله ﷺ.» فأمر به ﷺ فدُفن.

وفي حديث بريدة أن النبي ﷺ قال له: «إن شئت أردك إلى الحائط الذي كنت فيه، تنبت لك عروقك ويكمل خلقك، ويجدد لك خوص وثمرة، وإن شئت أغرسك في الجنة فتأكل أولياء الله من ثمرك». ثم أصغى له النبي ﷺ ليسمع ما يقول، فقال: «بل تغرسني في الجنة، فيأكل مني أولياء الله وأكون في مكان لا أبلى فيه». فسمعه من يليه، فقال النبي ﷺ: «قد فعلت». ثم قال: «اختار دار البقاء على دار الفناء».

وقد روي حديث حنين الجذع عن جماعة من الصحابة من طرق كثيرة تفيد القطع بوقوع ذلك، وقال العلامة التاج بن السبكي: «الصحيح عندي أن حنين الجذع متواتر». وقال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري»: «حنين الجذع وانشقاق القمر، نقل كل منهما نقلا مستفيضا يفيد القطع عند من يطلع على طرق الحديث». وقال البيهقي: «قصة حنين الجذع من الأمور الظاهرة التي حملها الخلف عن السلف».

قال أبو القاسم البغوي: كان الحسن إذا حدث بهذا الحديث بكى، ثم قال: «يا عباد الله، الخشبة تحن إلى رسول الله ﷺ شوقا إليه لمكانه من الله، فأنتم أحق أن تشتاقوا إليه».

(وأما كلام الحيوانات وطاعتها له ﷺ) فمنها سجود الجمل وشكواه إليه ﷺ. عن أنس بن مالك قال: «كان أهل بيت من الأنصار لهم جمل يسنون عليه، وإنه استصعب عليهم فمنعهم ظهره، وإن الأنصار جاؤوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا: إنه كان لنا جمل نسني عليه وإنه استصعب علينا ومنعنا ظهره، وقد عطش النخل والزرع، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: قوموا، فقاموا فدخل الحائط والجمل في ناحية، فمشى رسول الله ﷺ نحوه. فقالت الأنصار: يا رسول الله، قد صار مثل الكلب الكلب، وإنا نخاف عليك صولته، فقال رسول الله ﷺ: ليس علي منه بأس». فلما نظر الجمل إلى رسول الله ﷺ أقبل نحوه حتى خر ساجدا بين يديه، فأخذ رسول الله ﷺ بناصيته أذل ما كان قط حتى أدخله في العمل. فقال له أصحابه: «يا رسول الله، هذه بهيمة لا تعقل تسجد لك، ونحن نعقل فنحن أحق أن نسجد لك»، فقال ﷺ: «لا يصلح لبشر أن يسجد لبشر، لو صلح لبشر أن يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها» رواه أحمد والنسائي. والحائط هو البستان، وقوله «نسني» أي نسقي عليه.

وفي حديث يعلى بن مرة الثقفي: «بينا نحن نسير مع النبي ﷺ، إذ مررنا ببعير يُسنَى عليه، فلما رآه البعير جرجر، فوضع جرانه، فوقف عليه رسول الله ﷺ، فقال: أين صاحب هذا البعير؟ فجاءه، فقال:

بغنيه. فقال: بل نهبه لك يا رسول الله، وإنه لأهل بيت ما لهم معيشة غيره، فقال: أما إذ ذكرت هذا من أمره، فإنه شكا كثرة العمل وقلة العلف، فأحسنوا إليه» رواه البغوي في «شرح السنة». والجران: مقدم عنق البعير من مذبحه إلى منحره.

وأخرج ابن شاهين عن عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ دخل حائط رجل من الأنصار، فإذا جمل، فلما رأى النبي ﷺ حن فذرفت عيناه، فأتاه النبي ﷺ فمسح ذفراه فسكن، ثم قال: «من رب هذا الجمل؟ لمن هذا الجمل؟» فجاء فتى من الأنصار فقال: «هذا لي يا رسول الله»، فقال: «ألا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها، فإنه شكا إلي أنك تجيعه وتدئبه». قال في «المصابيح»: «وهو حديث صحيح». و«ذفراه» تثنية «ذِفرى» وهو الموضع الذي يعرق من قفا البعير عند أذنه.

ومنها سجود الغنم له ﷺ. عن أنس رضي الله عنه قال: «دخل رسول الله ﷺ حائطا للأنصار، ومعه أبو بكر وعمر ورجل من الأنصار، وفي الحائط غنم، فسجدت له، فقال أبو بكر: يا رسول الله، نحن أحق بالسجود لك من هذه الغنم»، فقال رسول الله ﷺ: «لا ينبغي لأحد أن يسجد لأحد».

وذكر القاضي عياض في «الشفاء» أن رجلا أتى النبي ﷺ وآمن به وهو على بعض حصون خيبر، وكان في غنم يرعاها لهم، فقال: «يا رسول الله، كيف لي بالغنم؟» قال: «احصب وجوهها، فإن الله سيؤدي عنك أمانتك ويزدها إلى أهلها»، ففعل، فسارت كل شاة حتى دخلت إلى أهلها.

ومنها قصة كلام الذئب وشهادته له بالرسالة ﷺ. رواها كثير من الصحابة، منهم أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «عدا الذئب على شاة فأخذها، فطلبه الراعي فانتزعها منه، فأقعى الذئب على ذنبه وقال: ألا تتقي الله تنزع مني رزقا ساقه الله إليّ؟ فقال الراعي: يا عجبا، ذئب مقع على ذنبه يكلمني بكلام الإنس! فقال الذئب: ألا أخبرك بأعجب من ذلك؟ محمد بيثرب يخبر الناس بأنباء ما قد سبق». قال: «فأقبل الراعي يسوق غنمه حتى دخل المدينة فزواها إلى زاوية من زواياها، ثم أتى رسول الله ﷺ فأخبره، فأمر ﷺ فنودي بالصلاة جامعة، ثم خرج، فقال للأعرابي: «أخبرهم»، فأخبرهم» رواه الإمام أحمد.

قال القاضي عياض: «وفي بعض الطرق عن أبي هريرة، فقال الذئب: أنت أعجب مني، واقفا على غنمك وتركت نبيا لم يبعث الله قط أعظم منه عنده قدرا، قد فتحت له أبواب الجنة، وأشرف أهلها على أصحابه ينظرون قتالهم، وما بينك وبينه إلا هذا الشعب، فتكون في جند الله». قال الراعي: «من لي بغنمي؟» قال الذئب: «أنا أرعاها حتى ترجع». فأسلم الرجل إليه غنمه ومضى، وذكر قصته وإسلامه ووجوده النبي ﷺ يقاتل، فقال له النبي ﷺ: «عد إلى غنمك تجدها بوفرها»، فوجدها كذلك وذبح للذئب شاة منها.

وروى سعيد بن منصور في سننه عن أبي هريرة قال: جاء الذئب فأقعى بين يدي رسول الله ﷺ وجعل يُبَصْبِص بذنبه، فقال رسول الله ﷺ: «هذا وافد الذئاب جاء يسألكم أن تجعلوا له من أموالكم شيئًا.» قالوا: والله لا نفعل، وأخذ رجل من القوم حجرًا رماه به، فأدبر الذئب وله عواء، فقال رسول الله ﷺ: «الذئب وما الذئب.»

وروى ابن وهب أن أبا سفيان بن حرب وصفوان بن أمية وجدا ذئبًا أخذ ظبيًا فدخل الظبي الحرم، فانصرف الذئب، فعجبا من ذلك، فقال الذئب: «أعجب من ذلك محمد بن عبد الله بالمدينة يدعوكم إلى الجنة وتدعونه إلى النار.» فقال أبو سفيان: «واللات والعزى، لئن ذكرت هذا بمكة لتتركنها خَلُوفًا،» أي فاسدة.

ومن ذلك حديث الضب، ذكره القاضي عياض في (الشفاء)، وقد روي من حديث عمر أن رسول الله ﷺ كان في محفل من أصحابه، إذ جاء أعرابي من بني سليم قد صاد ضبًا جعله في كُمِّه ليذهب به إلى رحله فيشويه ويأكله، فلما رأى الجماعة قال: «من هذا؟» قالوا: نبي الله ﷺ. فأخرج الضب من كُمِّه وقال: «واللات والعزى لا آمنت بك أو يؤمن هذا الضب!» وطرحه بين يدي رسول الله ﷺ، فقال النبي ﷺ: «يا ضب!» فأجابه بلسان مبين يسمعه القوم جميعًا: «لبيك وسعديك يا زين من وافي القيامة من تُعبد؟» قال: «الذي في السماء عرشه، وفي الأرض سلطانه، وفي البحر سبيله، وفي الجنة رحمته، وفي النار عقابه.» قال: «فمن أنا؟» قال: «رسول رب العالمين وخاتم النبيين، وقد أفلح من صدقك وخاب من كذبك.» فأسلم الأعرابي.

ومن ذلك حديث الغزالة، رواه كثير من أئمة الحديث من طرق يقوي بعضها بعضًا. فعن أم سلمة ﵂ قالت: بينما رسول الله ﷺ في صحراء من الأرض، إذ هاتف يهتف: «يا رسول الله!» ثلاث مرات، فالتفت فإذا ظبية مشدودة في وثاق وأعرابي مُنْجَدِل في شملة نائم في الشمس، فقال: «ما حاجتك؟» قالت: «صادني هذا الأعرابي، ولي خَشْفَان في ذلك الجبل، فأطلقني حتى أذهب فأرضعهما وأرجع.»

قال: «وتفعلين؟» قالت: «عذَّبني الله عذاب العشار إن لم أعد.» فأطلقها فذهبت ورجعت، فأوثقها النبي ﷺ. فانتبه الأعرابي وقال: «يا رسول الله، ألك حاجة؟» قال: «تُطلق هذه الظبية.» فأطلقها، فخرجت تعدو في الصحراء فرحة، وهي تضرب برجليها الأرض وتقول: «أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله.»

ومن ذلك داجن البيوت، وهو ما أَلِفَها من الحيوان كَالطير والشاة وغيرهما. روى قاسم بن ثابت عن عائشة رضي الله عنها وعن والديها قالت: «كان عندنا داجن، فإذا كان عندنا رسول الله ﷺ قرَّ وثبت مكانه فلم يَجِئ ولم يذهب، وإذا خرج رسول الله ﷺ جاء وذهب.» وذكره القاضي عياض في (الشفاء).

(وأما نبع الماء الطهور من بين أصابعه ﷺ)، وهو أشرف المياه، فقد روى أحاديثه جماعة من الصحابة، منهم أنس وجابر وابن مسعود وابن عباس. ففي (الصحيحين) عن أنس رضي الله عنه قال: «رأيت رسول الله ﷺ وحانت صلاة العصر، فالتمس الناس الوضوء فلم يجدوه، فأُتي رسول الله ﷺ بوضوء فوضع يده في ذلك الإناء، فأمر الناس أن يتوضؤوا منه، فرأيت الماء ينبع من بين أصابعه وأطراف أصابعه حتى توضأ القوم.» قال راويه: «فقلنا لأنس كم كنتم؟» قال: «كنا ثلاثمائة.»

وعن أنس أيضًا قال: «كنت مع النبي ﷺ في غزوة تبوك، فقال المسلمون: يا رسول الله عطشت دوابنا وإبلنا.» فقال: «هل من فضلة ماء؟» فجاء رجل في شَنٍّ بشيء، فقال: «هاتوا صحفة.» فصبَّ الماء، ثم وضع راحته في الماء. قال: «فرأيتها تخلل عيونًا بين أصابعه.»

قال: «فسقينا إبلنا ودوابنا وتزودنا.» فقال: «أكتفيتم؟» فقالوا: «نعم اكتفينا يا نبي الله.» فرفع يده فارتفع الماء. رواه ابن شاهين.

وأخرج البيهقي عن أنس أيضًا قال: «خرج النبي ﷺ إلى قباء، فأُتي من بعض بيوتهم بقدح صغير، فأدخل يده فلم يسعه القدح، فأدخل أصابعه الأربعة ولم يستطع أن يُدخل إبهامه، ثم قال للقوم: «هلموا إلى الشراب.» قال أنس: «بصر عيني ينبع الماء من بين أصابعه، فلم يزل القوم يردون القدح حتى رَوَوا منه جميعًا.»

وأما حديث جابر ففي الصحيحين وغيرهما عنه قال: «عطش الناس يوم الحديبية، وكان رسول الله ﷺ بين يديه رَكْوة يتوضأ منها، فجهش الناس نحوه، فقال: «ما لكم؟» فقالوا: «يا رسول الله ما عندنا ماء نتوضأ به ولا نشربه إلا ما بين يديك.» فوضع يده في الركوة فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون، فشربنا وتوضأنا.» قال راويه: «قلت: كم كنتم؟» قال جابر: «لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مائة.» والركوة إناء صغير من جلد يشرب فيه، والجهش أن يفزع الإنسان إلى غيره.

وفي حديث مسلم الطويل في ذكر غزوة بواط، قال لي رسول الله ﷺ: «يا جابر، نادِ بالوضوء»، وذكر الحديث بطوله. أنه لم يجد إلا قطرة في عزلاء شجب، فأُتي به إلى النبي ﷺ فغمزه وتكلم بشيء لا أدري ما هو، وقال: «نادِ بجفنة الركب»، فأتيت بها فوضعتها بين يديه، وذكر أن النبي ﷺ بسط يده في الجفنة وفرق أصابعه، وصب عليه جابر فقال: «بسم الله»، فرأيت الماء يفور من بين أصابعه، ثم فارت الجفنة واستدارت حتى امتلأت، وأمر الناس بالاستقاء فاستقوا حتى

رووا. فقلت: «هل بقي من أحد له حاجة؟»، فرفع رسول الله ﷺ يده من الجفنة وهي ملأى. والعزلاء فم القربة الأسفل، والشجب السقاء الذي أخلق وبلي وصار شنا. والجفنة إناء يشبع عشرة فأكثر.

وأما حديث ابن مسعود ففي الصحيح عنه أنه قال: «بينما نحن مع رسول الله ﷺ وليس معنا ماء، فقال لنا رسول الله ﷺ: اطلبوا من معه فضل ماء»، فأُتي بماء فصبه في إناء ثم وضع كفه فيه فجعل الماء ينبع من بين أصابع رسول الله ﷺ.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «دعا النبي ﷺ بلالًا فطلب الماء، فقال: لا والله ما وجدت الماء»، قال: «فهل من شن؟» فأتاه بشن فبسط كفه فيه فانبعثت تحت يده عين، فكان ابن مسعود يشرب وغيره يتوضأ. رواه الدارمي وغيره.

قال القرطبي: «قصة نبع الماء من بين أصابعه ﷺ قد تكررت منه ﷺ في عدة مواطن في مشاهد عظيمة ووردت من طرق كثيرة، يفيد مجموعها العلم القطعي المستفاد من التواتر المعنوي. ولم يُسمع بمثل هذه المعجزة عن غير نبينا ﷺ حيث نبع الماء من بين عصبه ولحمه ودمه ﷺ.» وقال المزني: «نبع الماء من بين أصابعه ﷺ أبلغ في المعجزة من نبع الماء من الحجر حيث ضربه موسى عليه الصلاة والسلام بالعصا فتفجرت منه المياه، لأن خروج الماء من الحجارة معهود بخلاف خروج الماء من بين اللحم والدم.»

ومن ذلك تفجير الماء ببركته وانبعاثه بمسه ودعوته ﷺ. روى مسلم في صحيحه عن معاذ أن رسول الله ﷺ قال لهم: «إنكم ستأتون غدًا إن شاء الله تعالى عين تبوك، وإنكم لن تأتوها حتى

يضحي النهار، فمن جاءها فلا يمس من مائها شيئًا حتى آتي»، قال: «فجئناها وقد سبق إليها رجلان، والعين مثل الشراك، تبض بشيء من ماء. فسألهما رسول الله ﷺ: هل مسستما من مائها شيئًا؟»، قالا: «نعم». فسبهما وقال لهما ما شاء الله أن يقول. ثم غرفوا من العين قليلًا قليلًا حتى اجتمع في شيء، ثم غسل عليه الصلاة والسلام به وجهه ويديه، ثم أعاده فيها، فجرت العين بماء كثير، فاستقى الناس. ثم قال عليه الصلاة والسلام: «يا معاذ، يوشك إن طالت بك حياة أن ترى ما ههنا قد مليء جنانًا أي بساتين وعمرانًا.» وزاد في الشفاء عن ابن إسحاق: «فانخرق من الماء ما له حس كحس الصواعق.»

وفي البخاري في غزوة الحديبية من حديث المسور بن مخرمة، أنهم نزلوا بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء يتبرضه الناس تبرُّضًا، فلم يلبث الناس حتى نزحوه. وشكي إلى رسول الله ﷺ العطش، فانتزع سهمًا من كنانته ثم أمرهم أن يجعلوه فيه. فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه. وقوله «يتبرضه الناس تبرُّضًا» أي يأخذونه قليلًا قليلًا. ومعنى «يجيش» يفور ماؤه ويرتفع. وفي رواية أنه ﷺ توضأ فتمضمض ومج في بئر الحديبية من فمه، فجاشت بالماء.

وعن عروة أنه ﷺ توضأ في الدلو ومضمض فاه ثم مج فيه، وأمر أن يصب في البئر، ونزع سهمًا من كنانته وألقاه في البئر ودعا الله تعالى، ففارت بالماء حتى جعلوا يغترفون بأيديهم منها وهم جلوس على شفتيها.

وفي الصحيحين عن عمران بن الحصين رضي الله عنه قال: «كنا مع النبي ﷺ في سفر فاشتكى إليه الناس من العطش، فنزل فدعا فلانًا واسمه

أبو رجاء، ودعا عليًا، فقال: اذهبا فابتغيا الماء. فانطلقا فتلقيا امرأة بين مزادتين، أي قربتين من ماء، فجاءا بها إلى النبي ﷺ، فاستنزلوها عن بعيرها، ودعا النبي ﷺ بإناء ففرغ فيه من أفواه المزادتين وأوكأ أفواههما، وأطلق العزالي وهي مصاب الماء، ونودي في الناس: اسقوا واستقوا. فسقى من سقى واستقى من شاء وهي قائمة تنظر إلى ما يفعل بمائها. وأيم الله لقد أقلع عنها وإنه ليخيل إلينا أنها أشد ملقة منها حين ابتدأ فيها، فقال النبي ﷺ: «اجمعوا لها.» فجمعوا لها من بين عجوة ودقيقة وسويقة حتى جمعوا لها طعامًا، فجعلوه في ثوب وحملوها على بعيرها، ووضعوا الثوب بين يديها، قال لها: «تعلمين ما رزئنا من مائك شيئًا، ولكن الله هو الذي سقانا.» فأتت أهلها فقالت: «العجب، لقيني رجلان فذهبا بي إلى هذا الرجل الذي يقال له الصابي، ففعل كذا وكذا، فوالله إنه لأسحر الناس كلهم، أو إنه لرسول الله حقًا.» ثم أسلمت هي وقومها.

وعن أبي قتادة رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «إنكم تسيرون عشيتكم وليلتكم وتأتون الماء غدًا إن شاء الله تعالى»، فانطلق الناس لا يلوي أحد على أحد. فبينما رسول الله ﷺ يسير حتى انهار الليل (أي أُبيضَّ)، فمال عن الطريق فوضع رأسه، ثم قال: «احفظوا علينا صلاتنا». فكان أول من استيقظ رسول الله ﷺ والشمس في ظهره. ثم قال: «اركبوا». فركبنا، فسرنا حتى إذا ارتفعت الشمس نزل، ثم دعا بميضأة كانت معي فيها شيء من ماء فتوضأ منها وضوءًا، وبقي شيء من ماء. ثم قال: «احفظوا علينا ميضأتك، فسيكون لها نبأ». ثم أذن بلال بالصلاة، فصلى رسول الله ﷺ ركعتين، ثم صلى الغداة

وركب، وركبنا معه، فانتهينا إلى الناس حين اشتد النهار وحمي كل شيء، وهم يقولون: «يا رسول الله هلكنا وعطشنا». فقال: «لا ملك عليكم»، ودعا بالميضأة فجعل يصب، وأبو قتادة يسقيهم، فلم يعد أن رأى الناس ماء في الميضأة، فتكابوا عليها. فقال رسول الله ﷺ: «أحسنوا الملء، كلكم سيروى». قال: ففعلوا، فجعل رسول الله ﷺ يصب وأسقيهم حتى ما بقي غيري وغير رسول الله ﷺ. ثم صب، ثم قال لي: «اشرب». فقلت: «لا أشرب حتى تشرب». فقال: «إن ساقي القوم آخرهم». قال: فشربت. وشرب الحديث رواه مسلم.

وعن أنس قال: أصابت الناس سنة على عهد رسول الله ﷺ، فبينا النبي ﷺ يخطب يوم الجمعة، قام أعرابي فقال: «يا رسول الله هلك المال وجاع العيال، فادع الله لنا». فرفع يديه وما نرى في السماء فزعة، فوالذي نفسي بيده ما وضعهما حتى نار السحاب أمثال الجبال، ثم لم ينزل عن منبره حتى رأيت المطر يتحادر على لحيته، فمطرنا يومنا ذلك ومن الغد ومن بعد الغد حتى الجمعة الأخرى. وقام ذلك الأعرابي أو غيره فقال: «يا رسول الله، تهدم البناء وغرق المال، فادع الله لنا». فرفع يديه وقال: «اللهم حوالينا ولا علينا». فما يشير إلى ناحية من السحاب إلا انفرجت، وصارت المدينة مثل الجوبة، وسال الوادي قناة شهرا، ولم يجيء أحد من ناحية إلا حدث بالجود. والجوبة هي الحفرة المستديرة الواسعة، أي حتى صار الغيم والسحاب محيطًا بآفاق المدينة، والجود هو المطر الواسع الغزير.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، أنه قيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: «حدثنا عن ساعة العسرة». قال: «خرجنا إلى تبوك في قيظ شديد

فنزلنا منزلًا أصابنا عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، حتى إن كان الرجل ليذهب يلتمس الرجل فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع، حتى إن كان الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقي على كبده». فقال أبو بكر: «يا رسول الله، إن الله قد عودك في الدعاء خيرًا، فادع الله لنا». قال: «أتحبون ذلك؟». قالوا: «نعم». فرفع يديه فلم يرجعهما حتى قالت السماء فانسكبت، فملؤوا ما معهم من آنية، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها تجوز العسكر. أخرجه البيهقي وشيخه ابن بشران.

وفي مصباح الظلام عن عمرو بن شعيب أن أبا طالب قال: «كنت مع ابن أخي» (يعني النبي ﷺ) «بذي المجاز، فأدركني العطش، فشكوت إليه. فقلت: يا ابن أخي، عطشت. وما قلت له ذلك وأنا أرى عنده شيئًا إلا الجزع». فثنى وركه ثم نزل وقال: «يا عم، أعطشت؟». فقلت: «نعم». فأهوى بعقبه إلى الأرض، فإذا بالماء. فقال: «اشرب يا عم». فشربت. وكذا رواه ابن سعد وابن عساكر.

ومن ذلك تكثير الطعام القليل ببركته ودعائه ﷺ. عن جابر رضي الله عنه في غزوة الخندق قال: «فانكفأت إلى امرأتي فقلت: هل عندك شيء؟ فإني رأيت بالنبي ﷺ خمصًا شديدًا». فأخرجت جرابًا فيه صاع من شعير، ولنا بهيمة داجن فذبحتها وطحنت الشعير حتى جعلنا اللحم في البرمة. ثم جئت النبي ﷺ فساررته فقلت: «يا رسول الله، ذبحنا بهيمة لنا وطحنا صاعًا من شعير، فتعال أنت ونفر معك». فصاح النبي ﷺ: «يا أهل الخندق، إن جابرا صنع سورًا فحيهلا بكم». فقال ﷺ: «لا تنزلن يزمتكم ولا يخبزن عجينكم حتى أجيء». ثم

جاء، فأخرجت له عجينًا وبصق فيه وبارك. ثم عمد إلى برمتنا فبصق وبارك. ثم قال: «ادعي خابزة فلتخبر معك واقدحي من برمتكم ولا تنزلوها وهم ألف». فأقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوه وانحرفوا، وإن برمتنا لتغط كما هي، وإن عجيننا ليخبز كما هو. رواه البخاري ومسلم. وقوله «داجن» يعني سمينة، و«السور» هنا الطعام، و«حيهلا بكم» أي هلموا مسرعين، و«واقدحي» أي اغرفي، و«تغط» أي تغلي.

وعن أنس قال: «أبو طلحة لأم سليم: لقد سمعت صوت رسول الله ﷺ ضعيفًا أعرف فيه الجوع، فهل عندك من شيء؟». فقالت: «نعم»، فأخرجت أقراصًا من شعير، ثم أخرجت خمارًا فلفت الخبز ببعضه، ثم دسته تحت يدي ولا ثتني ببعضه (أي أدارت بعض الحمار على رأسي مرتين كالعمائم). ثم أرسلتني إلى رسول الله ﷺ. فذهبت به، فوجدت رسول الله ﷺ في المسجد ومعه الناس. فسلمت عليه، فقال لي رسول الله ﷺ: «أرسلك أبو طلحة؟». قلت: «نعم». قال: «لطعام؟». قلت: «نعم». فقال رسول الله ﷺ لمن معه: «قوموا، فانطلق»، وانطلقت بين أيديهم حتى أتيت أبا طلحة. فأخبرته، فقال أبو طلحة: «يا أم سليم، قد جاء رسول الله ﷺ بالناس وليس عندنا نطعمهم». فقالت: «الله ورسوله أعلم». فانطلق أبو طلحة حتى لقي رسول الله ﷺ. فأقبل رسول الله ﷺ وأبو طلحة معه، فقال رسول الله ﷺ: «هلمي يا أم سليم ما عندك». فأتت بذلك الخبز. فأمر به رسول الله ﷺ فُتِّتْ، وعصرت أم سليم عكة فآدمته. ثم قال رسول الله ﷺ فيه ما شاء الله أن يقول. ثم قال: «ائذن لعشرة». فأذن لهم، فأكلوا حتى شبعوا، ثم خرجوا. ثم قال: «ائذن لعشرة». ثم

لعشرة. فأكل القوم كلهم وشبعوا، والقوم سبعون أو ثمانون رجلًا. رواه البخاري ومسلم. وفي رواية مسلم: «ثم أكل النبي ﷺ وأهل البيت وتركوا سورًا» أي بقية. وفي رواية للبخاري: «فجعلت أنظر هل نقص منها شيء». وفي رواية عمر بن عبد الله عن أنس فقال: «أبو طلحة: إنما هو قرص»، فقال: «إن الله سيبارك فيه ووقع».

في رواية مبارك بن فضالة قال: «فقال هل من سمن؟» فقال أبو طلحة: «قد كان في العكة شيء»، فجاء بها فجعلا يعصرانها حتى خرج، ثم مسح رسول الله ﷺ القرص فانتفخ وقال: «بسم الله»، فلم يزل يصنع ذلك والقرص ينتفخ حتى رأيت القرص في الجفنة يشيع.

وعن أبي هريرة قال: «لما كان غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة»، فقال عمر: «يا رسول الله، ادعهم بفضل أزوادهم، ثم ادع الله لهم عليها بالبركة». فقال: «نعم»، فدعا بنطع فبسط، ثم دعا بفضل أزوادهم، فجعل الرجل يجيء بكف ذرة، ويجيء الآخر بكسرة، حتى اجتمع على النطع شيء يسير، فدعا رسول الله ﷺ بالبركة، ثم قال: «خذوا في أوعيتكم»، فأخذوا في أوعيتهم حتى ما تركوا في العسكر وعاء إلا ملأوه. قال: «فأكلوا حتى شبعوا، وفضلت فضلة»، فقال رسول الله ﷺ: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيحجز عن الجنة». رواه مسلم.

وعن أنس رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ عروسا بزينب، فعمدت أمي أم سليم إلى تمر وسمن وأقط، فصنعت حيسا، فجعلته في تور، فقالت: يا أنس، اذهب بهذا إلى رسول الله ﷺ، فقل: بعثت بهذا إليك أمي، وهي تقرؤك السلام». فقال عليه الصلاة والسلام: «ضعه». ثم

قال: «اذهب فادع لي فلانا وفلانا»، رجالا سماهم، «وادع لي من لقيت». فدعوت من سمى ومن لقيت، فرجعت فإذا البيت غاص بأهله. قيل لأنس: «عددكم كانوا؟» قال: «زهاء ثلاثمائة». فرأيت النبي ﷺ وضع يده على تلك الحيسة، وتكلم بما شاء الله تعالى، ثم جعل يدعو عشرة عشرة يأكلون منها، ويقول لهم: «اذكروا اسم الله، وليأكل كل رجل مما يليه». فأكلوا حتى شبعوا، فخرجت طائفة بعد طائفة حتى أكلوا كلهم. قال لي: «يا أنس، ارفع». فرفعت، فما أدري حين وضعت كان أكثر أم حين رفعت؟ رواه البخاري ومسلم.

والأقط: لبن مجفف، والحيس: الطعام المتخذ من التمر والسمن والأقط، والتور: إناء من صفر أو حجارة.

وعن جابر رضي الله عنه قال: «إن أم مالك كانت تهدي للنبي ﷺ في عكة لها سمنا، فيأتيها بنوها فيسألونها الأدم وليس عندهم شيء، فتعمد إلى التي كانت تهدي فيها للنبي ﷺ، فتجد فيها سمنا، فما زال يقيم لها أدم بيتها حتى عصرته. فأتت النبي ﷺ فقالت: أعصرتيها؟ قالت: نعم. قال: لو تركتيها ما زال قائما». رواه مسلم.

وعن جابر أيضا، أن رجلا أتى النبي ﷺ يستطعمه، فأطعمه شطر وسق من شعير، فما زال يأكل منه وامرأته وضيفه حتى كاله. فأتى النبي ﷺ فأخبره، فقال: «لو لم تكله لأكلتم منه ولقام بكم». رواه مسلم أيضا.

وعن أبي العلاء سمرة بن جندب قال: «كنا مع النبي ﷺ نتداول من قصعة من غدوة حتى الليل، يقوم عشرة ويقعد عشرة. قلنا: فما كانت تمد؟ قال: من أي شيء تعجب، ما كانت تمد إلا من ههنا»، وأشار بيده إلى السماء. رواه الترمذي وغيره.

وفي حديث عبد الرحمن بن أبي بكر، قال: «كنا مع النبي ﷺ ثلاثين ومائة»، وذكر في الحديث أنه عجن صاع وصنعت شاة فشوي سواد بطنها. قال: «وايم الله ما من الثلاثين ومائة إلا وقد حل له حزة من سواد بطنها». ثم جعل منها قصعتين، فأكلنا أجمعون وفضل في القصعتين، فحملته على البعير. رواه البخاري.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «أمرني رسول الله ﷺ أن أدعو أهل الصفة، فتتبعتهم حتى جمعتهم. فوضعت بين أيدينا صحفة، فأكلنا ما شئنا وفرغنا وهي مثلها حين وضعت، إلا أن فيها أثر الأصابع». رواه الطبراني وغيره.

وعن علي كرم الله وجهه قال: «جمع رسول الله ﷺ بني عبد المطلب وكانوا أربعين، منهم قوم يأكلون الجذعة ويشربون الفرق. فصنع لهم مدا من طعام، فأكلوا حتى شبعوا، وبقي كما هو، ثم دعا بعس فشربوا حتى رووا، وبقي كأنه لم يشرب منه شيء». رواه في الشفاء.

والجدعة من الضأن ما أتى عليها ثمانية أشهر أو تسعة، والفرق: إناء يسع اثني عشر صاعا، والعس: قدح من خشب يروي الثلاثة والأربعة.

(ومن ذلك إبراء ذوي العاهات وإحياء الموتى وكلامهم وكلام الصبيان وشهادتهم له ﷺ بالنبوة). روى البيهقي في الدلائل أنه ﷺ دعا رجلا إلى الإسلام، فقال: «لا أؤمن بك حتى تحيي لي ابنتي». فقال ﷺ: «أرني قبرها». فأراه إياه، فقال ﷺ: «يا فلانة». فقالت: «لبيك وسعديك». فقال ﷺ: «أتحين أن ترجعي إلى الدنيا؟»».

فقالت: «لا والله يا رسول الله، إني وجدت الله خيرا لي من أبوي، ووجدت الآخرة خيرا لي من الدنيا».

وروى الطبراني عن عائشة ﵂ أن النبي ﷺ نزل الحجون كثيبا حزينا، فأقام به ما شاء الله عز وجل ثم رجع مسرورا، قال: «سألت ربي عز وجل فأحيا لي أمي فآمنت بي ثم ردها». وكذا روي من حديث عائشة أيضا إحياء أبويه ﷺ حتى آمنا به. رواه السهيلي والخطيب.

وعن أنس، أن شابا من الأنصار توفي وله أم عجوز عمياء. فسجيناه وعزيناها، فقالت: «ممات ابني؟». قلنا: «نعم». قالت: «اللهم إن كنت تعلم أني هاجرت إليك وإلى نبيك رجاء أن تعينني على كل شدة فلا تحملن علي هذه المصيبة». فما برحنا أن كشف الثوب عن وجهه فطعم وطعمنا. رواه البيهقي وغيره.

وعن النعمان بن بشير قال: «كان زيد بن خارجة من سروات الأنصار، فبينما هو يمشي في طريق من طرق المدينة بين الظهر والعصر إذ خر فتوفي. فأعلمت الأنصار به وأتوه فاحتملوه إلى بيته، فسجوه كساء وبردين، وفي البيت نساء من نساء الأنصار يبكين عليه، ورجال من رجالهم. فمكث على حاله حتى إذا كان بين المغرب والعشاء الآخرة سمعوا صوت قائل يقول: أنصتوا أنصتوا. فنظروا فإذا الصوت من تحت الثياب، فحسروا عن وجهه وصدره فإذا القائل يقول على لسانه: «محمد رسول الله النبي الأمي خاتم النبيين لا نبي بعده، كان ذلك في الكتاب الأول». ثم قال: «صدق صدق». ثم قال: «هذا رسول الله السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته».

رواه أبو بكر بن أبي الدنيا في كتاب «من عاش بعد الموت».

وأخرج أبو نعيم أن جابرا ذبح شاة وطبخها وترد في جفنة وأتى به رسول الله ﷺ فأكل القوم. وكان رسول الله ﷺ يقول لهم: «كلوا ولا تكسروا عظما». ثم جمع عليه الصلاة والسلام العظام، ووضع يده عليها، ثم تكلم بكلام فإذا الشاة قد قامت تنقض أذنيها.

وعن معيقيب اليماني قال: «حججت حجة الوداع فدخلت دارا بمكة، فرأيت فيها رسول الله ﷺ ورأيت منه عجبا. جاءه رجل من اليمامة بغلام يوم ولد، فقال رسول الله ﷺ: يا غلام من أنا؟ فقال: «أنت رسول الله». قال: «صدق، بارك الله فيك». ثم إن الغلام لم يتكلم بعد ذلك حتى شب، فكنا نسميه مبارك اليمامة». رواه البيهقي.

عن فهد بن عطية أن النبي ﷺ أُتي بصبي قد شب ولم يتكلم قط، فقال: «من أنا؟» فقال: «رسول الله». رواه البيهقي.

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن امرأة جاءت بابن لها إلى رسول الله ﷺ، فقالت: «يا رسول الله، إن ابني به جنون، وإنه ليأخذه عند غدائنا وعشائنا». فمسح رسول الله ﷺ صدره، فتعَثَّه، وخرج من جوفه مثل الجرو الأسود يسعى. رواه الدارمي. وقوله «تعَثَّه» أي: قاء.

وأصيب يوم أحد عين قتادة بن النعمان حتى وقعت على وجنته، فأُتي به إلى النبي ﷺ، فقال: «يا رسول الله، إن لي امرأة أحبها، وأخشى إن رأتني تقذرني». فأخذها رسول الله ﷺ بيده، وردها إلى موضعها، وقال: «اللهم اكسه جمالًا». فكانت أحسن عينيه، وأحدهما نظرًا، وكانت لا ترمد إذا رمدت الأخرى.

وفي البخاري في غزوة خيبر، أنه ﷺ قال: «أين علي بن أبي طالب؟» فقالوا: «إنه يا رسول الله يشتكي عينيه». قال: «فأرسلوا

إليه». فأُتي به، فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ودعا له، فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع.

وفي رواية مسلم عن إياس بن سلمة عن أبيه قال: «فأرسلني النبي ﷺ، فجئت به أقوده أرمد، فبصق في عينيه فبرأ».

وعند الطبراني عن علي قال: «فما اشتكيتُهما حتى الساعة». وقال: «ودعا لي رسول الله ﷺ، اللهم أذهب عنه الحر والقر»، فقال: «فما اشتكيتُهما حتى يومي هذا».

وأصيب سلمة يوم خيبر بضربة في ساقه، فنفث فيها رسول الله ﷺ ثلاث نفثات، فما اشتكاها قط. رواه البخاري.

ونفث ﷺ في عيني فديك، وكانتا مبيضتين لا يبصر بهما شيئًا، وكان وقع على بيض حية. فكان يدخل الخيط في الإبرة، وإنه لابن ثمانين سنة، وإن عينيه لمبيضتين. رواه ابن أبي شيبة وغيره.

الفصل الثاني: فيما خصه الله تعالى به صلى الله عليه وسلم من المعجزات، وشرفه به على سائر الأنبياء من الكرامات والآيات البينات

اعلم أن الله تعالى قد خص نبينا محمدًا ﷺ بأشياء لم يعطها لنبي قبله. وما خص نبيًّا بشيء إلا وقد كان لسيدنا محمد ﷺ مثله، فإنه أوتي جوامع الكلم، وكان نبيًّا وآدم بين الروح والجسد، وغيره من الأنبياء لم يكن نبيًّا إلا في حال نبوته وزمان رسالته. ولما أُعطي هذه المنزلة، علمنا أنه ﷺ الممد لكل إنسان كامل مبعوث. ويرخم الله شرف الدين الأبوصيري حيث قال:

«وكل آتٍ أتى الرسل الكرام بها، فإنما اتصلت من نوره بهم، فإنه شمس فضل وهم كواكبها، يظهرن أنوارها للناس في الظلم».

قال العلامة ابن مرزوق: يعني أن كل معجزة أتى بها كل واحد من الرسل، فإنما اتصلت به من نور محمد ﷺ. أما آدم عليه السلام فالمقصود من خلقه خلق نبينا محمد ﷺ في صلبه، فسيدنا محمد المقصود وآدم الوسيلة.

وأما سجود الملائكة له عليه السلام، فقد قال الإمام فخر الدين في تفسيره: إن الملائكة أُمروا بالسجود لآدم عليه السلام لأجل أن نور محمد ﷺ كان في جبهته.

وقال الإمام سهل بن محمد: هذا التشريف الذي شرف الله تعالى به محمدًا ﷺ بقوله: ﴿**إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ**﴾

[الأحزاب:56]، أنم وأجمع من تشريف آدم بأمر الملائكة بالسجود له، لأنه لا يجوز أن يكون الله تعالى مع الملائكة في ذلك التشريف، فتشريف يصدر عنه تعالى وعن الملائكة والمؤمنين أبلغ من تشريف تختص به الملائكة.

وأما تعليم آدم أسماء كل شيء، فقد قال رسول الله ﷺ: «مثلت لي أمتي في الماء والطين، وعلمت الأسماء كلها كما علم آدم الأسماء كلها». أخرجه الديلمي عن أبي رافع.

وأما إدريس عليه الصلاة والسلام، فرفعه الله مكانًا عليًّا، وأعطى سيدنا محمد ﷺ المعراج ورفع إلى مكان لم يُرفع إليه غيره. وأما نوح عليه الصلاة والسلام، فتجاه الله تعالى ومن آمن معه من الغرق ونجاه من الخسف، وأعطي سيدنا محمد ﷺ أنه لم تهلك أمته بعذاب من السماء. قال الله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ**﴾[الأنفال:33].

وفي تفسير الفخر الرازي، أكرم الله نوحًا بأن أمسك سفينته على الماء، وفعل بمحمد ﷺ أعظم منه. روي أنه ﷺ كان على شط ماء، فقال عكرمة بن أبي جهل: «إن كنت صادقًا، فادع ذلك الحجر الذي في الجانب الآخر فليسبح ولا يغرق». فأشار إليه عليه الصلاة والسلام فقلع الحجر من مكانه، وسبح حتى صار بين يدي رسول الله ﷺ، وشهد له بالرسالة، فقال له النبي ﷺ: «يكفيك هذا»، فقال: «حتى يرجع إلى مكانه».

وأما إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، فكانت عليه نار نمروذ بردًا وسلامًا، فأعطي سيدنا محمد ﷺ نظير ذلك: إطفاء نار الحرب

عنه عليه الصلاة والسلام، وناهيك بنار حطبها السيوف ووهجها الحتوف وموقدها الحسد ومطلبها الروح والجسد. قال الله تعالى: ﴿**كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ**﴾[المائدة:64].

وروى النسائي أن محمد بن حاطب قال: «كنت طفلًا فانصبت القدر عليّ واحترق جلدي كله، فحملني أبي إلى رسول الله ﷺ، فتفل عليه الصلاة والسلام في جلدي ومسح بيده على المحترق، وقال: أذهب الباس رب الناس، فصرت صحيحًا لا بأس بي».

وأما ما أعطي إبراهيم عليه السلام من مقام الخلة، فقد أعطي نبينا عليه الصلاة والسلام وزاد بمقام المحبة.

وقد روي في حديث الشفاعة أن الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام إذا قيل له: «اتخذك الله خليلا فاشفع لنا»، قال: «إنما كنت خليلا من وراء وراء، اذهبوا إلى غيري». إلى أن تنتهي الشفاعة إلى النبي ﷺ فيقول: «أنا لها، أنا لها».

وهذا يدل على أن نبينا عليه الصلاة والسلام كان خليلا مع رفع الحجاب وكشف الغطاء، ولو كان خليلا من وراء وراء لأعتذر كما اعتذر إبراهيم عليهما الصلاة والسلام.

ومما أعطي إبراهيم عليه الصلاة والسلام انفراده في أهل الأرض بعبادة الله تعالى وتوحيده وكسر الأصنام، وقد أعطي سيدنا ونبينا محمد ﷺ كسرها بقضيب، ليس مما يكسر إلا بقدرة إلهية. حينما دخل مكة وحول البيت ثلاثمائة وستون صنمًا، فجعل يطعنها بعود في يده ويقول: ﴿**وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا**﴾[الإسراء:81]، حتى سقطت. رواه الشيخان.

ومما أُعطيه الخليل عليه السلام بناء البيت الحرام، وقد أُعطي سيدنا محمد ﷺ أن قريشًا لما بنت البيت بعد تهدمه، ولم يبقَ إلا وضع الحجر، تنافسوا على الفخر، ثم اتفقوا على أن يحكموا أول داخل.

فاتفق دخول سيدنا محمد ﷺ، فقالوا: «هذا الأمين»، فحكموه في ذلك. فأمر ببسط ثوب ووضع الحجر فيه، ثم قال: «يرفع كل بطن بطرف»، فرفعوه جميعًا، ثم أخذه سيدنا محمد ﷺ ووضعه في موضعه. فادخر الله تعالى له ذلك المقام ليكون منقبة له على مدى الأيام.

وأما ما أُعطيه موسى عليه الصلاة والسلام من قلب العصا حية غير ناطقة، فقد أُعطي سيدنا محمد ﷺ حنين الجذع، وقد مرت قصته. وحكى الإمام الرازي في تفسيره وغيره أنه لما أراد أبو جهل أن يرميه عليه الصلاة والسلام بالحجر، رأى على كيفية تعبانين فانصرف مرعوبًا.

وأما ما أُعطيه موسى عليه السلام من اليد البيضاء وكان بياضها يغشي البصر، فأُعطي سيدنا محمد ﷺ أنه لم يزل نورًا ينتقل في أصلاب الآباء وبطون الأمهات من لدن آدم إلى أن انتقل إلى عبد الله أبيه، وأُعطي ﷺ قتادة بن النعمان، وقد صلى معه العشاء في ليلة مظلمة مطيرة، عرجونا وقال: «انطلق به فإنه سيضيء لك من بين يديك عشرا ومن خلفك عشرا، فإذا دخلت بيتك فسترى سوادا فاضربه حتى يخرج فإنه الشيطان». فانطلق فأضاء له العرجون حتى دخل بيته ووجد السواد وضربه حتى خرج، رواه أبو نعيم.

وأخرج البيهقي وصححه الحاكم عن أنس قال: «كان عباد بن بشر وأسيد بن حضير عند رسول الله ﷺ في حاجة حتى ذهب من الليل ساعة وهي ليلة شديدة الظلمة. خرجا وبيد كل واحد منهم عصا، فأضاءت لهما عصا أحدهما، فمشى في ضوءها حتى إذا افترقت بهما الطريق أضاءت للآخر عصاه، فمشى كل واحد منهما في ضوء عصاه حتى بلغ هديه»، رواه البخاري بنحوه في الصحيح.

وأخرج البخاري في تاريخه والبيهقي وأبو نعيم عن حمزة الأسلمي قال: «كنا مع النبي ﷺ في سفر فتفرقنا في ليلة ظلماء، فأضاءت أصابعي حتى جمعوا عليها ظهرهم وما هلك منهم وإن أصابعي أتنير».

ومما أُعطيه موسى عليه الصلاة والسلام انفلاق البحر له، وقد أُعطي نبينا ﷺ انشقاق القمر كما مر. فموسى تصرف في عالم الأرض، وسيدنا محمد ﷺ تصرف في عالم السماء، والفرق بينهما واضح.

قال ابن المنير، وذكر ابن حبيب أن بين السماء والأرض بحرًا يسمى المكفوف، يكون بحر الأرض بالنسبة إليه كالقطرة من البحر المحيط. قال: «فعلى هذا يكون ذلك البحر انفلق لنبينا ﷺ حتى جاوزه»، يعني ليلة الإسراء. قال: «وهذا أعظم من انفلاق البحر لموسى عليه الصلاة والسلام».

ومما أُعطيه موسى عليه الصلاة والسلام إجابة دعائه، وقد أُعطي نبينا محمد ﷺ من ذلك ما لا يُحصى. ومما أُعطيه موسى عليه الصلاة والسلام تفجير الماء له من الحجارة، وقد أُعطي سيدنا محمد ﷺ أن

الماء تفجر من بين أصابعه، وهذا أبلغ لأن الحجر من جنس الأرض التي ينبع منها الماء، ولم تجر العادة بنبع الماء من اللحم.

ومما أُعطيه موسى عليه الصلاة والسلام الكلام، وقد أُعطي سيدنا محمد ﷺ مثله ليلة الإسراء وزيادة. الدنو أيضًا كان مقام المناجاة في حق نبينا ﷺ فوق السماوات العلا، وسدرة المنتهى، والمستوى، وحجب النور، والرفرف. ومقام المناجاة لموسى عليه الصلاة والسلام طور سيناء.

ومما أُعطيه هارون عليه الصلاة والسلام فصاحة اللسان، وقد كان نبينا ﷺ من الفصاحة والبلاغة بالمحل الأفضل والموضع الذي لا يُجهل.

وأما ما أُعطيه يوسف عليه الصلاة والسلام من شطر الحسن، فقد أُعطي نبينا محمد ﷺ الحسن كله، وستأتي الإشارة إلى ذلك إن شاء الله تعالى في مقصد الإسراء. ومن تأمل ما نُقل من صفته عليه الصلاة والسلام تبين له من ذلك التفصيل التفضيل له على كل مشهور بالحسن في كل جيل.

وأما ما أُعطيه يوسف عليه الصلاة والسلام من تعبير الرؤيا، فالذي نُقل عنه من ذلك ثلاثة منامات: أحدها حين رأى أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر، والثاني منام صاحبي السجن، والثالث منام الملك.

وقد أُعطي نبينا محمد ﷺ من ذلك ما لا يدخله الحصر. ومن تصفح الأخبار وتتبع الآثار وجد من ذلك العجب العجاب، وستأتي نبذة من ذلك إن شاء الله تعالى.

وأما ما أُعطيه داود عليه الصلاة والسلام من تلبين الحديد له، فكان إذ مسح الحديد، لأن فقد أُعطي نبينا ﷺ أن العود اليابس اخضر في يده وأورق. ومسح ﷺ شاة أم معبد الجرباء فبرأت ودرت.

وأما ما أُعطيه سليمان عليه الصلاة والسلام من كلام الطير وتسخير الشياطين والريح، والملك الذي لم يُعطَه أحد من بعده، فقد أُعطي سيدنا محمد ﷺ مثل ذلك وزيادة. أما منطق الطير والوحش، فنبينا ﷺ كلمه الحجر وسبح في كفه الحصى وهو جماد. وكلمه ذراع الشاة المسمومة، وكلمه الظبي، وشكا إليه البعير.

وروي أن طيرًا فجع بولده فجعل يرفرف على رأسه ﷺ ويكلمه، فيقول: أيكم فجع هذا بولده؟ فقال رجل: أنا. فقال: اردد ولده. ذكره الرازي ورواه أبو داود. وقصة كلام الذئب مشهورة.

وأما الريح التي كانت غدوها شهر ورواحها شهر تحمله حيث أراد من أقطار الأرض، فقد أُعطي سيدنا محمد ﷺ البراق الذي هو أسرع من الريح بل أسرع من البرق الخاطف. فحمله من الفرش إلى العرش في ساعة زمانية، وأقل مسافة ذلك سبعة آلاف سنة، وتلك مسافة السموات. وأما إلى المستوى وإلى الرفرف فذلك ما لا يعلمه إلا الله تعالى.

وأيضًا، فالريح سخّرت لسليمان لتحمله إلى نواحي الأرض، ونبينا ﷺ زويت له الأرض أي جمعت حتى رأى مشارقها ومغاربها، وفرق بين من يسعى إلى الأرض وبين من تسعى له الأرض.

وأما ما أُعطي من تسخير الشياطين، فقد روي أن شيطانًا اعترض سيدنا محمدًا ﷺ وهو في الصلاة، فأمكنه الله منه وربطه بسارية

من سواري المسجد. وخير مما أُوتي سليمان من ذلك إيمان الجن بمحمد ﷺ.

وأما عد الجن من جنود سليمان في قوله تعالى: ﴿**وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ**﴾[النمل:17] فخير منه عد الملائكة جبريل ومن معه من جملة أجناده عليه الصلاة والسلام، باعتبار الجهاد، باعتبار تكثير السواد على طريق الأجناد.

وأما عد الطير من جملة أجناده، فأعجب منه حمامة الغار وتوكيرها في الساعة الواحدة حمايتها له من عدوه. والغرض من استكثار الجند إنما هو الحماية، وقد حصلت بأيسر شيء.

وأما ما أُعطي من الملك، فنبينا ﷺ خير بين أن يكون نبيًا ملكًا أو نبيًا عبدًا، فاختار ﷺ أن يكون نبيًا عبدًا. وأما ما أُعطي عيسى عليه الصلاة والسلام من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، فقد أُعطي سيدنا محمد ﷺ أنه رد العين إلى مكانها بعدما سقطت فعادت أحسن ما كانت.

وفي دلائل النبوة للبيهقي، قصة الرجل الذي قال للنبي ﷺ: لا أؤمن بك حتى تحيي لي ابنتي، فأتى ﷺ قبرها فقال: يا فلانة، فقالت: لبيك وسعديك يا رسول الله. الحديث. وقد سبح الحصى في كفه ﷺ وحن الجذع لفراقه، وذلك أبلغ من تكليم الموتى لأن هذا من جنس ما لا يتكلم.

وأما ما أُعطي عيسى عليه الصلاة والسلام من أنه كان يعرف ما يخفيه الناس في بيوتهم، فقد أُعطي نبينا ﷺ من ذلك ما لا يُحصى، وسيأتي منه ما يكفي ويشفي إن شاء الله تعالى.

وأما ما أُعطي عيسى عليه الصلاة والسلام من رفعه إلى السماء، فقد أُعطي نبينا ﷺ ذلك ليلة المعراج وزاد في الترقي لمزيد الدرجات وسماع المناجاة والحظوة في الحضرة المقدسة المشاهدات.

وقد خص ﷺ من خصائص التكريم بما لم يُعطَ أحد من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وقد روى جابر عنه ﷺ أنه قال: أُعطيتُ خمسا لم يُعطهن أحد من قبلي: كان كل نبي يُبعث إلى قومه خاصة، وبُعثت إلى كل أحمر وأسود، وأُحلت لي الغنائم ولم تُحل لأحد قبلي، وجُعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل حيث كان، ونُصرتُ بالرعب مسيرة شهر، وأُعطيت الشفاعة. رواه البخاري.

وفي رواية: وبُعثت إلى الناس كافة، وفي رواية الإمام أحمد: وأُعطيت الشفاعة فاخترتها لأمتي، فهي لمن لا يشرك بالله شيئًا.

وفي حديث مسلم زيادة: أُعطيت جوامع الكلم وخُتم بي النبيون.

وفي حديث آخر لمسلم زيادة: جُعلت صفوفنا كصفوف الملائكة.

وفي حديث ابن خزيمة والنسائي زيادة: وأُعطيت هذه الآيات من آخر سورة البقرة من كنز تحت العرش، يشير إلى ما خطه الله تعالى عن أمته من الإصر وتحميل ما لا طاقة لهم به، ورفع الخطا والنسيان. ومعنى الرصر: الأمر الثقيل.

وفي حديث لأحمد زيادة: أُعطيت مفاتيح الأرض، وسُميت أحمد، وجُعلت أمتي خير الأمم.

وعند البزار زيادة: غفر لي ما تقدّم من ذنبي وما تأخر، وأُعطيت الكوثر، وإن صاحبكم لصاحب لواء الحمد يوم القيامة تحته آدم فمن دونه. وله أيضًا زيادة: كان شيطاني كافرًا فأعانني الله عليه فأسلم. ويمكن أن يوجد أكثر من ذلك لمن أمعن التبع.

وذكر أبو سعيد النيسابوري في كتاب شرف المصطفى أن عدد الخصائص التي خص بها ﷺ ستون خصلة، وذكر بعض العلماء أنه ﷺ أُوتي ثلاثة آلاف معجزة وخصيصة.

أما خصائصه ﷺ فهي على أربعة أقسام:

القسم الأول: ما اختص به ﷺ من الواجبات ليكون أجره بها أعظم: فاختص ﷺ بوجوب صلاة الضحى، والوتر، وركعتي الفجر، وصلاة الليل، والسواك، والأضحية، والمشاورة، ومصابرة العدو وإن كثر عددهم، وتغيير المنكر إذا رآه ولا يسقط بالخوف، وقضاء دين من مات مسلمًا معسرًا، وتخيير نسائه في فراقه وإمساكهن بعد أن اخترته وترك التزوج عليهن والتبدل بهن مكافأة لهن، ثم نسخ ذلك لتكون المئة له عليه الصلاة والسلام عليهن، وإتمام كل تطوع شرع فيه، ولزوم أداء فرض الصلاة بلا خلل لا يبطلها، وعدم سقوط الصوم والصلاة وسائر الأحكام عنه ﷺ حينما كان يُؤخذ عن الدنيا حالة الوحي، واستغفاره الله سبعين مرة حينما كان يُغان على قلبه، وفي رواية مسلم مائة مرة، والمراد بهذا الغين على القلب سهوه عن مداومة الذكر ومشاهدة الحق بما كان ﷺ دفع إليه من مقاساة البشر وسياسة الأمة، وقيل غير ذلك.»

وعن أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه قال: «رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم، فسألته عن هذا الحديث: إنه ليغان على قلبي، فقال لي: يا مبارك، ذلك غين الأنوار لا غين الأغيار.»

القسم الثاني: فيما اختص به صلى الله عليه وسلم مما حرم عليه:

فقد اختص صلى الله عليه وسلم بتحريم الزكاة عليه وعلى آله، وتحريم الصدقة عليه، وتحريم ما له رائحة كريهة كالبصل والثوم، لتوقع مجيء الملائكة والوحي. كما اختص بتحريم الأكل متكئًا، وتحريم الكتابة والشعر، أي التوصل إليهما، وتحريم نزع لامته (أي آلة حربه) إذا لبسها حتى يقاتل أو يحكم الله بينه وبين عدوه.

كما اختص بتحريم المن ليستكثر، قال الله تعالى: ﴿**وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ**﴾[المدثر:6]، أي لا تعطِ شيئًا لتأخذ أكثر منه، بل أعطِ لربك وكن صادقًا في نيتك.

كما اختص بتحريم مد العين إلى ما متع به الناس استحسانًا له وتمنّيًا أن يكون له مثله، وتحريم خائنة الأعين، وهي الإيماء إلى مباح من قتل أو ضرب على خلاف ما يشعر به الحال. كما اختص بتحريم نكاح من لم تهاجر، وتحريم إمساك من كرهته، وتحريم نكاح الكتابية، وتحريم نكاح الأمة المسلمة، وتحريم الإغارة إذا سمع التكبير.

القسم الثالث: فيما اختص به صلى الله عليه وسلم من المباحات:

معظمها لم يفعله صلى الله عليه وسلم، فقد اختص بإباحة المكث في المسجد جنبًا، وأنه لا ينتقص وضوءه بالنوم مضطجعًا، كما اختص بنكاح أكثر من أربع نسوة والنكاح في حال الإحرام.

كما اختص بإباحة النكاح بغير رضا المرأة، فلو رغب في نكاح امرأة خالية لزمها الإجابة، وحرم على غيره خطبتها. وكذلك اختص بالنكاح بلا ولي ولا شهود، وجعل عتق أمته صفية صداقًا لها، وحل الجمع بين المرأة وعمتها وخالتها.

كما اختص بأن له أن يصطفي ما شاء من المغنم قبل القسمة من جارية وغيرها، وأنه يجوز القتال والقتل في مكة. كما جاز له دخول مكة بغير إحرام، وأنه يقضي بعلمه ويقضي لنفسه ولولده، ويشهد لنفسه ولولده، ولا يكره له الفتوى والقضاء في حال الغضب، لأنه لا يقول في الغضب إلا كما يقول في الرضا.

وكان ﷺ يقطع الأرض قبل فتحها لأن الله تعالى ملكه الأرض كلها. وأفتى الغزالي بكفر من عارض أولاد تميم الداري فيما أقطعهم النبي ﷺ، وقال: إنه ﷺ كان يقطع أرض الجنة، فأرض الدنيا أولى.

القسم الرابع: فيما اختص به ﷺ من الفضائل والكرامات:

اختص ﷺ بأنه أول النبيين خلقًا، وأنه كان نبيًا وآدم بين الروح والجسد، رواه الترمذي. كما أنه أول من أخذ عليه الميثاق، وأول من قال «بلى» يوم السبت بربكم، رواه القطان. وأن آدم وجميع المخلوقات خلقوا لأجله، رواه البيهقي وغيره.

كما أن الله تعالى كتب اسمه الشريف على العرش، وعلى كل سماء، وعلى الجنان وما فيها، رواه ابن عساكر. وقد أخذ الله تعالى الميثاق على النبيين من آدم فما بعده أن يؤمنوا به وينصروه، قال الله تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ**﴾[آل عمران:81].

كما وقع التبشير به في الكتب السالفة، ولم يقع في نسبه من لدن آدم سفاح، رواه البيهقي وغيره. وكان قد نكست الأصنام لمولده، رواه الخرائطي وغيره.

كما اختص بولادته مختونًا مقطوع السرة، رواه الطبراني، وخرج نفيفًا ما به قذر، رواه ابن سعد. كما وقع على الأرض ساجدًا رافعًا إصبعيه كالمتضرع المبتهل، رواه أبو نعيم. وأن أمه رأت عند ولادته نورًا خرج منها أضاء له قصور الشام، رواه الإمام أحمد.

كما كان مهده ﷺ يتحرك بتحريك الملائكة، ذكره ابن سبع في «الخصائص». وكان القمر يحدثه وهو في مهده ويميل حيث أشار إليه، رواه صاحب «النطق المفهوم». كما تكلم في المهد، رواه الواقدي وغيره... وكان ﷺ مظللًا بالغمامة في الحر، رواه أبو نعيم وغيره. كما مال إليه في الشجرة إذ سبق إليها، رواه البيهقي. وقد شق صدره الشريف ﷺ، رواه مسلم وغيره.

كما غطه جبريل عند ابتداء الوحي ثلاث غطات. كما ذكر الله تعالى في القرآن عضوًا عضوا، فذكر قلبه بقوله: ﴿**مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى**﴾[النجم:11]، ولسانه بقوله: ﴿**وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى**﴾[النجم:3]، وقوله: ﴿**فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ**﴾[مريم:97]. كما ذكر بصره بقوله: ﴿**مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى**﴾[النجم:17]، ووجهه بقوله: ﴿**قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ**﴾[البقرة:144].

كما ذكر يده وعنقه بقوله: ﴿**وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ**﴾[الإسراء:29]، وظهره وصدره بقوله: ﴿**أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ**﴾[الشرح:1-3].

كما اشتق اسمه من اسم الله المحمود، قال حسان: «وشق له من اسمه ليجله، فذو العرش محمود وهذا محمد». وكان ﷺ يُسمى أحمد ولم يُسمَّ به أحد قبله، رواه مسلم.

وكان ﷺ يبيت جائعًا ويصبح طاعمًا، يطعمه ربه ويسقيه. وكان يرى من خلفه كما يرى من أمامه، رواه مسلم. وكان يرى في الليل في الظلمة كما يرى بالنهار والضوء، رواه البيهقي. وكان ريقه يعذب الماء المالح، رواه أبو نعيم. وكان ريقه يجزي الرضيع، رواه البيهقي.

وأنه ﷺ كان إذا مشى في الصخر غاصت قدماه فيه، وأن إبطه ﷺ لا شعر عليه، قاله القرطبي وكان أبيض غير متغير اللون كما ذكره الطبري وغيره، وأنه عليه الصلاة والسلام كان صوته وسمعه ما لا يبلغ صوت غيره ولا سمعه، وأنه كان تنام عينه ولا ينام قلبه، رواه البخاري، وأنه ما تشاءب قط، رواه ابن أبي شيبة وغيره، وأخرج الخطابي ما تناءب نبي قط، وأنه ﷺ ما احتلم قط، وكذلك الأنبياء، رواه الطبراني، وأن عرقه ﷺ كان أطيب من المسك، رواه أبو نعيم وغيره، وأنه إذا مشى مع الطويل طاله، رواه البيهقي، وأنه لم يقع له ظل على الأرض، ولا رلي له ظل في شمس ولا قمر لأنه نور ﷺ، وأنه لم يقع على ثيابه ذباب قط، وأنه لا يمتص دمه البعوض، قالهما الفخر الرازي، وأنه ما آذاه القمل، قاله ابن سبع وغيره. وأن الكهنة انقطعوا عند مبعثه ﷺ كما انقطع استراق السمع، وأنه ﷺ أُتي بالبراق ليلة الإسراء مسرجًا ملجّمًا، قيل وكانت الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تركبه عريانا، وأنه أسري به ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وعرج به إلى المحل الأعلى وأراه من آياته الكبرى، وحفظه في المعراج حتى

ما زاغ البصر وما طغى، وأحضر الأنبياء له عليهم الصلاة والسلام، وصلى بهم وبالملائكة إمامًا، وأطلعه على الجنة والنار، وأنه رأى الله تعالى بعينيه، وجمع له بين الكلام والرؤية، وكلمه تعالى في الرقيع الأعلى، وكلم موسى بالجبل، وأن الملائكة تسير معه حيث سار، يمشون خلف ظهره، وقاتلت معه كما مر في غزوة بدر وحنين، وأنه يجب علينا أن نصلي ونسلم عليه ﷺ لآية: ﴿**إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ**﴾[الأحزاب:56]، وأنه أوتي الكتاب العزيز وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب ولا اشتغل بمدارسة، وأن الله حفظ كتابه المنزل عليه وهو القرآن من التبديل والتخريف، قال تعالى: ﴿**لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**﴾[فصلت:42]، وقال تعالى: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾[الحجر:9]، أي من التحريف والزيادة والنقصان، فلو حاول أحد أن يغيره بحرف أو نقطة لقال له أهل الدنيا: هذا كذاب، حتى إن الشيخ المهيب لو اتفق له تغيير في حرف منه لقال الصبيان كلهم: أخطأت أيها الشيخ، وصوابه كذا، ولم يتفق ذلك لغيره من الكتب، فإنه لا كتاب إلا وقد دخله التصحيف والتحريف والتغيير، سواء مع أن دواعي الملحدة واليهود والنصارى متوفرة على إبطاله وإفساده، وأن كتابه يشتمل على ما اشتملت عليه جميع الكتب، وأنه تعالى يسر حفظه لمتعلميه، قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ**﴾[القمر:17، 22، 32، 40]، فحفظه ميسر للغلمان في أقرب مدة، وسائر الأمم لا يحفظ كتبها الواحد منهم، فكيف بالجم الغفير؟ وأنه أنزل على سبعة أحرف تسهيلا علينا وتيسيرًا، وأنه آية باقية ما بقيت الدنيا، وأنه عليه الصلاة والسلام خص بآية الكرسي

وبالمفصل وبالمثاني وبالسبع الطوال، أما المفصل فآخره: قل أعوذ برب الناس، وفي أوله خلاف، ورجح النووي أنه سورة الحجرات، والمثاني هي سورة الفاتحة، رواه البخاري من حديث أبي هريرة، والسبع الطوال أولها البقرة وآخرها الأنفال، وأنه ﷺ أعطي مفاتيح الخزائن، قال بعضهم: وهي خزائن أجناس العالم ليخرج لهم بقدر ما يطلبونه لذواتهم، فكل ما ظهر من رزق العالم فإن الاسم الإلهي لا يعطيه إلا عن يد محمد ﷺ الذي بيده المفاتيح، كما اختص تعالى بمفاتيح الغيب، فلا يعلمها إلا هو، وأعطى هذا السيد الكريم منزلة الاختصاص بإعطائه مفاتيح الخزائن، وأنه ﷺ أوتي جوامع الكلم، وأنه ﷺ بعث إلى الناس كافة، فقد جاء في حديث جابر وغيره عنه ﷺ أنه قال: «كان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى كل أحمر وأسود»، وفي رواية: «إلى الناس كافة»، ونصره ﷺ بالرعب مسيرة شهر، وإحلال الغنائم ولم تحل لأحد قبله، وجعل الأرض له ولأمته مسجدًا وطهورًا، وأن معجزته عليه الصلاة والسلام مستمرة إلى يوم القيامة، ومعجزات سائر الأنبياء انقرضت لوقتها فلم يبق إلا خبرها، والقرآن العظيم لم تزل حجته قاهرة ومعارضته ممتنعة، وأنه ﷺ أكثر الأنبياء معجزة. وأنه ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، وأن شرعه مؤيد إلى يوم الدين وناسخ لجميع شرائع النبيين. وأنه ﷺ أكثر الأنبياء تابعًا يوم القيامة، وأنه ﷺ لو أدركه الأنبياء لوجب عليهم اتباعه، وأنه ﷺ أرسل إلى الجن اتفاقًا، وأنه ﷺ أرسل إلى الملائكة في إحدى القولين، ورجحه السبكي، وأنه ﷺ أرسل رحمة للعالمين. وأن الله تعالى خاطب جميع الأنبياء بأسمائهم في القرآن فقال: يا آدم، يا نوح،

يا إبراهيم، يا داود، يا زكريا، يا يحيى، يا عيسى، ولم يخاطبه هو فيه إلا: «يا أيها الرسول، يا أيها النبي، يا أيها المزمل، يا أيها المدثر»، وأنه ﷺ حرم على أمته دعاءه باسمه، قال الله تعالى: ﴿**لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا**﴾[النور:63]، أي: لا تجعلوا نداءه وتسميته كنداء بعضكم بعضًا باسمه ورفع الصوت، ولكن قولوا: يا رسول الله، يا نبي الله مع التوقير والتواضع وخفض الصوت، وأنه ﷺ يحرم الجهر له بالقول، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ**﴾[الحجرات:2]، وأنه ﷺ يحرم نداؤه من وراء الحجرات، قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ**﴾[الحجرات:4-5]، وأنه ﷺ حبيب الله تعالى، وجمع له بين المحبة والخلة، وأنه تعالى أقسم على رسالته وبحياته وببلده وعصره، وأنه ﷺ كلم بجميع أصناف الوحي. وأنه ﷺ هبط عليه إسرافيل ولم يهبط على نبي قبله.

أخرج الطبراني من حديث ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لقد هبط عليَّ ملك من السماء ما هبط على نبي قبلي، ولا يهبط على أحد بعدي، وهو إسرافيل»، فقال: «أنا رسول ربك إليك، أمرني أن أخيرك، إن شئت نبيا عبدا، وإن شئت نبيا ملكا». فنظرت إلى جبريل فأوما إليَّ أن تواضع، فلو أني قلت «نبيا ملكا» لصارت الجبال معي ذهبا. وأنه ﷺ سيد ولد آدم، رواه مسلم من حديث أبي هريرة بلفظ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء

الحمد ولا فخر». وأنه ﷺ غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال الله تعالى: ﴿**لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ**﴾[الفتح:2].

قال البيضاوي: «جميع ما فرط منك ممّا يصح أن تعاتب عليه، وأنه ﷺ أكرم الخلق على الله، فهو أفضل من كل المرسلين وجميع الملائكة المقربين، وأنه ﷺ أسلم قرينه، رواه مسلم، وأنه ﷺ لا يجوز عليه الخطأ ولا النسيان، وأن الميت يسأل عنه ﷺ في قبره، وأنه ﷺ حرم نكاح أزواجه من بعده، قال تعالى: ﴿**وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ**﴾[الأحزاب:6]، أي هن في الحرمة كالأمهات، حرم نكاحهن عليهم بعده تكرمة له وخصوصية. وأنه يحرم رؤية أشخاص أزواجه في الأزر، وكذا كشف وجوههن وأكفهن للشهادة وغيرها، وأنه يجوز أن يقسم على الله به ﷺ، وليس ذلك لغيره من الأنبياء والملائكة والأولياء، وأن أولاد بناته ﷺ ينسبون إليه، قال عليه الصلاة والسلام في الحسن: «إن ابني هذا سيد»، وأن كل نسب وسبب منقطع يوم القيامة إلا سببه ونسبه، قال عليه الصلاة والسلام: «كل سبب ونسب ينقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي»، والنسب بالولادة، والسبب بالزواج. وأنه لا يجوز التزوج على بناته، لأن ذلك يؤذيه، وأذيته ﷺ حرام بالاتفاق. فعن المسور بن مخرمة، أن علي بن أبي طالب خطب بنت أبي جهل، وعنده فاطمة بنت النبي ﷺ، فلما سمعت بذلك فاطمة، أتت النبي ﷺ، فقالت: «إن قومك يتحدثون أنك لا تغضب لبناتك، وهذا علي ناكح ابنة أبي جهل». قال المسور: «فقام النبي ﷺ فسمعته حين تشهد، قال: أما بعد، فإني أنكحت أبا العاص بن الربيع، فحدثني فصدقني، وإن فاطمة بنت محمد بضعة مني، وإنما أكره أن يفتنوها،

وإنه والله لا تجتمع بنت رسول الله، وبنت عدو الله عند رجل واحد أبدًا». قال فترك علي الخطبة. أخرجه الشيخان، وفي رواية لهما عن المسور أيضًا: «فإن ابنتي بضعة مني يريبني ما رابها، ويؤذيني ما آذاها». وأنه ﷺ لا يجتهد أحد في محراب صلى إليه ﷺ يمنة ولا يسرة، وأنه ﷺ من رآه بالمنام فقد رآه حقًا، فإن الشيطان لا يتمثل به، وفي رواية مسلم: «من رآني في المنام فسيراني في اليقظة، أو فكأنما رآني في اليقظة، ولا يتمثل الشيطان بي». وفي رواية أبي قتادة عند مسلم أيضًا: «من رآني فقد رأى الحق»، وله أيضًا من حديث جابر: «من رآني في المنام فقد رآني، فإنه لا ينبغي للشيطان أن يتشبه بي». وأن التسمي باسمه نافع في الدنيا والآخرة، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «يوقف عبدان بين يدي الله تعالى فيؤمر بهما إلى الجنة، فيقولان: ربنا بم استأهلنا الجنة ولم نعمل عملًا تجازينا به الجنة؟ فيقول الله تعالى: ادخلا الجنة فإني آليت على نفسي أن لا يدخل النار من اسمه أحمد ولا محمد». وروى أبو نعيم عن نبيط بن شريط قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: وعزتي وجلالي لا أعذب أحدًا تسمى باسمك في النار». وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «ما من مائدة وضعت فحضر عليها من اسمه أحمد أو محمد إلا قدس الله ذلك المنزل كل يوم مرتين»، رواه أبو منصور الديلمي. وليس لأحد أن يتكنى بكنية أبي القاسم، سواء كان اسمه محمدًا أم لا، عند الشافعي، وجوزه مالك.

ومن خصائصه ﷺ أنه يستحب الغسل لقراءة حديثه، والطيب، ولا ترفع عنده الأصوات بل تخفض كما في حياته، إذا تكلم، فإن

كلامه المأثور بعد موته في الرفعة مثل كلامه المسموع من لفظه الشريف. وأن يقرأ على مكان مرتفع، قال مطرف: «كان الناس إذا أتوا مالكًا رحمه الله خرجت إليهم الجارية، فتقول لهم: يقول لكم الشيخ: تريدون الحديث أو المسائل؟ فإن قالوا المسائل خرج إليهم في الوقت، وإن قالوا الحديث دخل مغتسله فاغتسل وتطيب، ولبس ثيابًا جددة، وتعمم، ولبس ساجه، والساج الطيلسان، وتلقى له منصة فيخرج، يجلس عليها وعليه الخشوع. ولا يزال يبشر بالعود حتى يفرغ من حديث رسول الله ﷺ. ولم يكن يجلس على تلك المنصة إلا إذا حدث.

قال ابن أبي أويس: «فقيل له في ذلك»، فقال: «أحب أن أعظم حديث رسول الله ﷺ، ولا أحدث به إلا على طهارة متمكنًا». ويقال إنه أخذ ذلك عن سعيد بن المسيب، وقد كره قتادة ومالك وجماعة التحديث على غير طهارة، حتى كان الأعمش إذا كان على غيرها تيمم. ولا شك أن حرمته عليه الصلاة والسلام وتعظيمه وتوقيره بعد مماته وعند ذكره، وذكر حديثه، وسماع اسمه، وسيرته كما كان في حياته. ويكره لقاريء حديثه ﷺ أن يقوم لأحد، وحسبك ما وقع لمالك رحمه الله في لسع العقرب له سبع عشرة مرة، وهو لم يتحرك، وتحمله للسعها توقيرًا لجناب حديثه عليه الصلاة والسلام.
ومن خصائصه عليه الصلاة والسلام أنه تثبت الصحبة لمن اجتمع به لحظة، بخلاف التابعي مع الصحابي، فلا تثبت إلا بطول الاجتماع معه على الصحيح عند أهل الأصول، والفرق عظم منصب النبوة ونورها، فبمجرد ما يقع بصره على الأعرابي الجلف ينطق بالحكمة.

وأن أصحابه كلهم عدول، قال الله تعالى خطابًا للموجودين حينئذ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾[البقرة:143]، أي عدولًا. وقال عليه الصلاة والسلام: «لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده، لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبًا ما بلغ أحدهم ولا نصيفه». وقال عليه الصلاة والسلام: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم».

ومن خصائصه عليه الصلاة والسلام أن المصلي يخاطبه بقوله: «السلام عليك أيها النبي» ولا يخاطب غيره. وأنه كان يحب على من دعاه وهو في الصلاة أن يجيبه. وأن الكذب عليه ليس كالكذب على غيره، فمن كذب عليه لم تقبل روايته أبدًا وإن تاب. وأنه ﷺ معصوم من الذنوب، كبيرها وصغيرها، عمدها وسهوها، كذلك الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وأنه لا يجوز عليه الجنون ولا الإغماء الطويل الزمن ولا العمى، لأنها نقص، وكذلك الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وأن من سبه أو انتقصه قتل، ذكره القاضي عياض في «الشفاء» وغيره، واستدلوا له بالكتاب والسنة والإجماع. وقال الحطابي: «لا أعلم أحدًا من المسلمين اختلف في وجوب قتله إذا كان مسلمًا.» ومذهب المالكية أنه يقتل حدًا لا ردة ولا تقبل توبته ولا عذره إن ادعى سهوا أو غلطًا. ومذهب الشافعية أن ذلك ردة تخرج من الإسلام إلى الكفر، فهو مرتد كافر قطعا، لا نزاع في ذلك عند الجمهور من أئمتنا، والمرتد يستتاب، فإن تاب وإلا قتل.

ومن خصائصه عليه الصلاة والسلام أنه كان يخص من شاء بما شاء من الأحكام، كجعله شهادة خزيمة شهادة رجلين. فعن النعمان بن بشير رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ اشترى من أعرابي فرسًا فجحده

الأعرابي، فجاء خزيمة فقال: «يا أعرابي، أنا أشهد عليك أنك بعته.» فقال الأعرابي: «إن شهد علي خزيمة فأعطني الثمن.» فقال رسول الله ﷺ: «يا خزيمة، إنا لم نشهدك، كيف تشهد؟» قال: «أنا أصدقك على خبر السماء، ألا أصدقك على خبر هذا الأعرابي؟» فجعل رسول الله ﷺ يعدل شهادته بشهادة رجلين، فلم يكن في الإسلام من تعدل شهادته شهادة رجلين إلا خزيمة.

ومن ذلك ترخيصه في النياحة لأم عطية. روى مسلم عنها قالت: «لما نزلت هذه الآية: ﴿**يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ**﴾[الممتحنة:12] قالت: كان منه النياحة. فقلت يا رسول الله إلا آل فلان، فإنهم كانوا أسعدوني في الجاهلية، فلا بد لي من أن أسعدهم.» فقال: «إلا آل فلان.»

ومن ذلك ترك الإحداد لأسماء بنت عميس. أخرج ابن سعد عن أسماء بنت عميس قالت: «لما أصيب جعفر بن أبي طالب قال لي رسول الله ﷺ: تسلبي ثلاثًا ثم اصنعي ما شئت.» وقوله: «تسلبي» أي البسي ثوب الحداد، وهو السلاب، وتسلبت المرأة إذا لبسته، وهو ثوب أسود تغطي به المحد رأسها.

ومن ذلك الأضحية بالعناق لأبي بردة بن نيار. والعناق هي الأنثى من ولد المعز قبل استكمالها الحول.

ومن ذلك إنكاح ذلك الرجل بما معه من القرآن. فقد زوج رسول الله ﷺ امرأة على سورة من القرآن وقال: «لا تكون لأحد بعدك مهرا.»

وأنه ﷺ كان يوعك كما يوعك رجلان لمضاعفة الأجر، والوعك هو أذى الحمى ووجعها في البدن. وأن جبريل عليه السلام أرسل إليه ثلاثة أيام في مرضه يسأله عن حاله، ذكره البيهقي وغيره.

وأنه عليه الصلاة والسلام صلى عليه الناس أفواجًا أفواجًا بغير إمام وبغير دعاء الجنازة المعروف، ذكره البيهقي وغيره، وترك بلا دفن ثلاثة أيام كما سيأتي، وفرش له في لحده قطيفة، والأمران مكروهان في حفنه. وأظلمت الأرض بعد موته ﷺ.

وأنه لا يبلى جسده الشريف ﷺ، وكذلك الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، رواه أبو داود وغيره. وأنه ﷺ لا يورث، وكذلك الأنبياء لا يورثون، لما رواه النسائي من حديث الزبير مرفوعًا: «إنا معاشر الأنبياء لا نورث.»

وأنه ﷺ حي في قبره يصلي فيه بأذان وإقامة، وكذلك الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. ولهذا قيل: «لا عدة على أزواجه.» وقد حكى ابن النجار وغيره أن الأذان ترك في أيام الحرة ثلاثة أيام، وخرج الناس وسعيد بن المسيب في المسجد. قال سعيد: «فاستوحشت، فدنوت إلى القبر. فلما حضرت الظهر، سمعت الأذان في القبر، فصليت الظهر، ثم مضى ذلك الأذان والإقامة في القبر لكل صلاة حتى مضت الثلاث ليال.»

وأنه وكل بقبره ﷺ ملك يبلغه صلاة المصلين عليه، رواه الإمام أحمد وغيره، وصححه الحاكم بلفظ: «إن لله ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني عن أمتي السلام.» وعند الأصبهاني عن عمار: «إن لله ملكًا أعطاه سمع العباد كلهم، فما من أحد يصلي عليّ إلا أبلغنيها.»

وأن أعمال أمته تعرض عليه ﷺ ويستغفر لهم. روى ابن المبارك عن سعيد بن المسيب: «ليس من يوم إلا وتعرض على النبي ﷺ أعمال أمته عشيّةً وعشيّةً، فيعرفهم بسيماهم وأعمالهم.»

وأن منبره ﷺ على حوضه، كما في الحديث. وفي رواية: «ومنبري على ترعة من ترع الجنة.» وأصل «الترعة» الروضة على المكان المرتفع خاصة. فإن كانت في المطمئن فهي روضة.

ولم يختلف أحد من العلماء أنه على ظاهره، وأنه حق محسوس موجود. فإن القدرة صالحة لا عجز فيها، وكل ما أخبر به الصادق ﷺ من أمور الغيب، فالإيمان به واجب.

وأن ما بين منبره وقبره ﷺ روضة من رياض الجنة، رواه البخاري بلفظ: «ما بين بيتي ومنبري.» وأنه ﷺ أول من ينشق عنه القبر. وفي رواية مسلم: «أنا أول من تنشق عنه الأرض.» وهو ﷺ أول من يفيق من الصعقة، وأول من يجوز على الصراط، رواه البخاري.

وأنه ﷺ يحشر في سبعين ألفًا من الملائكة، كما روي عن كعب الأحبار: «ما من فجر يطلع إلا نزل سبعون ألف ملك يحفون بقبره عليه الصلاة والسلام يضربون بأجنحتهم، حتى إذا أمسوا عرجوا. وهبط سبعون ألف ملك حتى إذا انشقت عنه الأرض، خرج في سبعين ألفًا من الملائكة يوقرونه ﷺ.»

وأنه يحشر راكب البراق، رواه الحافظ السلفي. وأنه يكسى في الموقف أعظم الحلل من الجنة، لا يقوم لها البشر، ورواه كعب بن مالك بلفظ: «يحشر الناس يوم القيامة، فأكون أنا وأمتي على تل، ويكسوني ربي حلة خضراء.»

وأنه ﷺ يقوم على يمين العرش مقامًا لا يقومه غيره، يغبطه فيه الأولون والآخرون، رواه ابن مسعود.

وأنه ﷺ يُعطى المقام المحمود. قال مجاهد: هو جلوسه على العرش، وقال عبد الله بن سلام: على الكرسي. ذكرهما البغوي.

وأنه ﷺ يُعطى الشفاعة العظمى في فصل القضاء بين أهل الموقف حين يفزعون إليه بعد الأنبياء.

وأنه ﷺ يُعطى الشفاعة في إدخال قوم الجنة بغير حساب.

وأنه ﷺ يُعطى الشفاعة في رفع درجات ناس في الجنة.

وأنه ﷺ صاحب لواء الحمد يوم القيامة، آدم فمن دونه تحته. رواه البزار.

وأنه ﷺ أول من يقرع باب الجنة. روى مسلم عن أنس رضي الله عنه قال ﷺ: «أنا أكثر الناس تبعًا يوم القيامة، وأنا أول من يقرع باب الجنة». وروى مسلم عن أنس أيضًا قوله ﷺ: «آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح، فيقول الخازن: بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك». ورواه الطبراني بزيادة فيه قال: «فيقوم الخازن فيقول: لا أفتح لأحد قبلك ولا أقوم لأحد بعدك».

وأنه ﷺ أول من يدخل الجنة. قال عليه الصلاة والسلام: «أنا أول من يحرك حلق الجنة فيفتح الله لي، فيدخلنيها ومعي فقراء المؤمنين ولا فخر». رواه الترمذي.

ومن خصائصه ﷺ: الكوثر، وهو نهر في الجنة يسيل في حوضه مجراه على الدر والياقوت، وماؤه أحلى من العسل وأبيض من الثلج.

ومنها الوسيلة، وهي أعلى درجة في الجنة.

وأما خصائص أمته ﷺ، وزادها شرفًا، فاعلم أن الله جعل أمته ﷺ خير أمة أخرجت للناس، وجعلهم ورثة الأنبياء، وأعطاهم الاجتهاد في الأحكام فيحكمون بما أدى إليه اجتهادهم. وكل من دخل في زمان هذه الأمة بعد نبيها كعيسى عليه السلام، فإنه لا يحكم في العالم إلا بما شرعه محمد ﷺ، فهو تابع لنبينا عليهما الصلاة والسلام. وكذلك من يقول من العلماء بنبوة الخضر عليه السلام وأنه باقٍ إلى اليوم فإنه تابع لأحكام هذه الملة. وكذلك إلياس، على ما صححه أبو عبد الله القرطبي، أنه حي أيضًا، وليس في الرسل من يتبعه رسول إلا نبينا ﷺ، وكفى بهذا شرفًا لهذه الأمة المحمدية.

وقد خص الله تعالى هذه الأمة الشريفة بخصائص لم يؤتها أمة قبلهم، أبان بها فضلهم، والأخبار والآثار ناطقة بذلك. خرج أبو نعيم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن موسى لما نزلت عليه التوراة وقرأها فوجد فيها ذكر هذه الأمة، قال: يا رب، إني أجد في الألواح أمة هم الآخرون السابقون، فاجعلها أمتي». قال: «تلك أمة أحمد». قال: «يا رب، إني أجد في الألواح أمة أناجيلهم في صدورهم يقرؤونها ظاهرًا، فاجعلها أمتي». قال: «تلك أمة أحمد». قال: «يا رب، إني أجد في الألواح أمة يأكلون الفيء، فاجعلها أمتي». قال: «تلك أمة أحمد». قال: «يا رب، إني أجد في الألواح أمة يجعلون الصدقة في بطونهم يؤجرون عليها، فاجعلها أمتي». قال: «تلك أمة أحمد». قال: «يا رب، إني أجد في الألواح أمة إذا هم أحدهم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة واحدة، وإن عملها كتبت له عشر حسنات، فاجعلها أمتي». قال: «تلك أمة أحمد». قال: «يا

رب، إني أجد في الألواح أمة إذا هم أحدهم بسيئة فلم يعملها لم تكتب له، وإن عملها كتبت سيئة واحدة، فاجعلها أمتي». قال: «تلك أمة أحمد». قال: «يا رب، إني أجد في الألواح أمة يؤتون العلم الأول والعلم الآخر فيقتلون المسيح الدجال، فاجعلها أمتي». قال: «تلك أمة أحمد». قال: «يا رب، فاجعلني من أمة أحمد». فأعطي عند ذلك خصلتين. فقال: «يا موسى، إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي، فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين». قال: «قد رضيت يا رب».

وُني كتاب النطق المفهوم عن ابن عباس رفعه قال: «موسى يا رب، فهل في الأمم أكرم عليك من أمتي، ظللت عليهم الغمام، وأنزلت عليهم المن والسلوى؟» فقال سبحانه وتعالى: «يا موسى، أما علمت أن فضل أمة محمد على سائر الأمم كفضلي على جميع خلقي؟» قال: «يا رب، فأرنيهم». قال: «لن تراهم، ولكن أسمعك كلامهم». فناداهم الله تعالى فأجابوا كلهم بصوت واحد: «لبيك اللهم لبيك». فقال سبحانه وتعالى: «صلاتي عليكم ورحمتي سبقت غضبي، وعفوي سبق عذابي، استجبت لكم قبل أن تسألوني، فمن لقيني منكم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله غفرت له ذنوبه». قال ﷺ: «فأراد الله أن يمن علي بذلك فقال: ﴿**وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا**﴾[القصص:46]، أي أمتك حتى أسمعنا موسى كلامهم».

وفي الحلية لأبي نعيم عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أوحى الله تعالى إلى موسى نبي بني إسرائيل أنه من لقيني وهو

جاحد بأحمد أدخلته النار». قال: «يا رب، ومن أحمد؟». قال: «ما خلقت خلقًا أكرم علي منه. كتبت اسمه مع اسمي في العرش قبل أن أخلق السماوات والأرض. إن الجنة محرمة على جميع خلقي حتى يدخلها هو وأمته». قال: «ومن أمته؟». قال: «الحمادون يحمدون صعودًا وهبوطًا، وعلى كل حال يشدون أوساطهم ويطهرون أطرافهم، صائمون بالنهار، رهبان بالليل، أقبل منهم اليسير وأدخلهم الجنة بشهادة أن لا إله إلا الله». قال: «اجعلني نبي تلك الأمة». قال: «نبيها منها». قال: «اجعلني من أمة ذلك النبي». قال: «استقدمت واستأخرت، ولكن سأجمع بينك وبينه في دار الجلال».

عن وهب بن منبه قال: أوحى الله تعالى إلى شعيا: «إني باعث نبيا أميا أفتح به آذانا صما وقلوبا غلفا وأعينا عميا. مولده بمكة، ومهاجره طيبة، وملكه بالشام. عبدي المتوكل المصطفى المرفوع الحبيب المنتخب المختار. لا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح ويغفر، رحيما بالمؤمنين. يبكي للبهيمة المثقلة، ولليتيم في حجر الأرملة. ليس بفظ ولا غليظ، ولا صحاب في الأسواق، ولا متزين بالفحش، ولا قوال للخنا. لو يمر إلى جنب السراج لم يطفئه من سكينته. ولو يمشي على القصب الرعراع (أي الطويل) لم يسمع من تحت قدميه. أبعثه مبشرا ونذيرا». إلى أن قال: «وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس: أمرا بالمعروف، ونهيا عن المنكر، وتوحيدا لي، وإيمانا بي، وإخلاصا لي، وتصديقا لما جاءت به رسلي. وهم رعاة الشمس والقمر. طوبى لتلك القلوب والوجوه والأرواح التي أخلصت لي. ألهمهم التسبيح والتكبير والتحميد والتوحيد في

مساجدهم ومجالسهم ومضاجعهم ومتقلبهم ومثواهم. ويصفون في مساجدهم كما تصف الملائكة حول عرشي. هم أوليائي وأنصاري، أنتقم بهم من أعدائي. عبدة الأوثان يصلون لي قياما وقعودا وركعا وسجودا. ويخرجون من ديارهم وأموالهم ابتغاء مرضاتي، ألوفا، ويقاتلون في سبيلي صفوفا. أختم بكتابهم الكتب، وبشريعتهم الشرائع، وبدينهم الأديان. فمن أدركهم فلم يؤمن بكتابهم ويدخل في دينهم وشريعتهم، فليس مني، وهو مني بريء. وأجعلهم أفضل الأمم، وأجعلهم أمة وسطا، شهداء على الناس. إذا غضبوا هللوني، وإذا تنازعوا سبحوني. يطهرون الوجوه والأطراف، ويشدون الثياب إلى الأنصاف، ويهللون على التلال والأشراف. قربانهم دماؤهم، وأناجيلهم في صدورهم. رهبانا بالليل، ليونا بالنهار. طوبى لمن كان معهم وعلى دينهم، ومنها جهم وشريعتهم. وذلك فضلي أوتيه من أشاء، وأنا ذو الفضل العظيم». رواه أبو نعيم.

ومن خصائصهم الجمعة، قال ﷺ: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، ثم هذا يومهم الذي فرض الله عليهم، فاختلفوا فيه، فهدانا الله له. فالناس لنا فيه تبع: اليهود غدا والنصارى بعد غد». رواه البخاري.

ومن خصائصهم أن الله تعالى رفع عنهم الإصر الذي كان على الأمم قبلهم. قال الله تعالى: «ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم» أي ويخفف عنهم ما كلفوا به من التكاليف الشاقة، كتعيين القصاص في العمد والخطأ، وقطع الأعضاء الخاطئة، وقطع موضع النجاسة، وقتل النفس في التوبة. وقد كان الرجل من بني

إسرائيل يذنب الذنب، فيصبح قد كتب على باب بيته أن كفارته أن تنزع عينيك، فينزعهما. وأصل الإصر هو الثقل الذي يأصر صاحبه، أي يحبسه من الحراك لثقله.

ومنها أن الله أحل لهم كثيرا مما شدد على من كان قبلهم، ولم يجعل عليهم في الدين من حرج، كما قال تعالى: ﴿**وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**﴾[الحج: 78] أي ضيق بتكليف ما اشتد القيام به عليهم. عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «الحرج ما كان على بني إسرائيل من الإصر والشدائد، وضعه الله عن هذه الأمة».

ومنها أن الله تعالى رفع عنهم المؤاخذة بالخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه. وحديث النفس، وقد كان بنو إسرائيل إذا نسوا شيئا مما أمروا به أو أخطروا، عجلت لهم العقوبة فحرم عليهم شيء من مطعم أو مشرب على حسب ذلك الذنب. قال ﷺ: «إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه». رواه الإمام أحمد وغيره.

ومنها أن الإسلام وصف خاص بهم، لا يشركهم فيه غيرهم إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. لقوله تعالى: ﴿**هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ**﴾[الحج: 78]، ﴿**وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا**﴾[المائدة: 3].

ومنها أن شريعتهم أكمل من جميع شرائع الأمم المتقدمة، وهذا مما لا يحتاج لبيانه لوضوحه. انظر إلى شريعة موسى عليه الصلاة والسلام، فقد كانت شريعة جلال وقهر. أمروا بقتل نفوسهم، وحرمت عليهم الشحوم وذوات الظفر وغيرها من الطيبات، وحرمت عليهم الغنائم. وعجل لهم من العقوبات ما عجل، وحملوا من الأصار

والأغلال ما لم يحمله غيرهم. وكان موسى عليه السلام من أعظم خلق الله تعالى هيبة ووقارا وأشدهم بأسا وغضبا لله تعالى، وبطشا بأعداء الله، فكان لا يستطاع النظر إليه. وعيسى عليه السلام كان في مظهر الجمال، وكانت شريعته شريعة فضل وإحسان، وكان لا يقاتل ولا يحارب. وليس في شريعته قتال، والبيئة والنصارى يحرم عليهم في دينهم القتال وهم به عصاة. فإن الإنجيل يأمر فيه بقوله: «من لطمك على خدك الأيمن، فأدر له خدك الأيسر»، «ومن نازعك ثوبك فأعطه رداءك»، «ومن سخرك ميلا، فامش معه ميلين»، ونحو هذا.

وأما نبينا ﷺ، فكان مظهر الكمال الجامع لتلك القوة والعدل والشدة في الله والدين، والرأفة والرحمة. فشريعته أكمل الشرائع، وأمته أكمل الأمم، وأحوالهم ومقاماتهم أعمل الأحوال والمقامات. ولذلك تأتي شريعته بالعدل فرضا بالفضل ندبا، وبالشدة في موضع الشدة، وبالدين في موضع الدين. فيذكر الظلم ويحرمه، والعدل ويأمر به، والفضل ويندب إليه. كقوله تعالى: ﴿**وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا**﴾[الشورى:40]، فهذا عدل؛ ﴿**فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ**﴾[الشورى:40]، فهذا فضل؛ ﴿**إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ**﴾[الشورى:40]، فهذا تحريم للظلم. وقوله تعالى: ﴿**وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ**﴾[النحل:126]، هذا إيجاب للعدل وتحريم للظلم. ﴿**وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ**﴾[النحل:126]، ندب إلى الفضل. وكذلك تحريم ما حرم على هذه الأمة صيانة وحمية. حرم عليهم كل خبيث وضار، وأحل لهم كل طيب ونافع. فتحريمه عليهم رحمة، وعلى من كان

قبلهم لم يخل من عقوبة. وهداهم لما ضلت عنه الأمم قبلهم، كيوم الجمعة. ووهب لهم من علمه وحلمه، وجعلهم خير أمة أخرجت للناس. وكمل لهم من المحاسن ما فرقه في الأمم، كما كمل لنبيهم من المحاسن ما فرقه في الأنبياء قبله. كما كمل في كتابهم من المحاسن ما فرقه في الكتب قبله. وكذلك في شريعته، فهذه الأمة هم المجتبون كما قال الله تعالى: ﴿**هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**﴾[الحج: 78].

ومنها أنه تعالى جعلهم يوم القيامة شهداء على الناس، فأقامهم في ذلك مقام الرسل الشاهدين على أميهم.

ومنها أنهم لا يجتمعون على ضلالة. رواه الإمام أحمد وغيره في حديث: «سألت ربي أن لا تجتمع أمتي على ضلالة، فأعطانيها». ومنها أن إجماعهم حجة، وأن اختلافهم رحمة، وكان اختلاف من قبلهم عذابا. ومنها أنهم أقل الأمم عملا، وأكثرهم أجرا، وأقصرهم أعمارا، وأوتوا العلم الأول والآخر، وألهم آخر الأمم فاقتضحت الأمم عندهم ولم يفتضحوا. ومنها أنهم أوتوا الإسناد، وهو خصيصة فاضلة من خصائص هذه الأمة، وسنة بالغة من السنن المؤكدة.

قال محمد بن حاتم بن المظفر: «إن الله قد أكرم هذه الأمة وشرفها وفضلها بالإسناد، وليس لأحد من الأمم كلها، قديمها وحديثها، إسناد، إنما هو صحف في أيديهم، وقد خلطوا بكتبهم أخبارهم، فليس عندهم تمييز بين ما نزل من التوراة والإنجيل وبين ما ألحقوه بكتبهم من الأخبار التي أخذوها عن غير الثقات. وهذه الأمة الشريفة، زادها الله شرفًا بنبيها، إنما تنقل الحديث عن

الثقة المعروف في زمانه بالصدق والأمانة عن مثله، حتى تتناهى أخبارهم، ثم يبحثون أشد البحث حتى يعرفوا الأحفظ فالأحفظ، والأضبط فالأضبط، والأطول مجالسة بمن فوقه ممن كان أقصر مجالسة. ثم يكتبون الحديث من عشرين وجهًا وأكثر، حتى يهذبوه من الغلط والزلل، ويضبطوا حروفه، ويعدوه عدًا. فهذا من فضل الله على هذه الأمة.

ومنها أنهم لا تزال طائفة منهم ظاهرين على الحق حتى يأتي أمر الله، رواه الشيخان. ومنها أنهم اختصوا في الآخرة بأنهم أول من تنشق عنهم الأرض من الأمم، رواه أبو نعيم عن ابن عباس مرفوعًا بلفظ: «وأنا أول من تنشق الأرض عني وعن أمتي ولا فخر». ومنها أنهم يدعون يوم القيامة غُرًا محجلين من آثار الوضوء، رواه البخاري. ومنها أنهم يكونون في الموقف على مكان عالٍ، رواه ابن جرير وغيره عن جابر مرفوعًا بلفظ: «أنا وأمتي على كوم مشرفين على الخلائق، ما من الناس أحد إلا ودَّ أنه منا، وما من نبي كذبه قومه إلا ونحن نشهد له أنه بلغ رسالة ربه»، وفي رواية: «فأكون أنا وأمتي على تل».

ومنها أنهم يدخلون الجنة قبل سائر الأمم، رواه الطبراني عن عمر بن الخطاب ﵁ عن النبي ﷺ: «حرمت الجنة على الأنبياء حتى أدخلها، وحرمت على الأمم حتى تدخلها أمتي». ومنها أنهم يؤتون كتبهم بأيمانهم، رواه أحمد والبزار. ومنها أن نورهم يسعى بين أيديهم، أخرجه الإمام أحمد. ومنها أن لهم ما سعوا وما يسعى لهم، وليس لمن قبلهم إلا ما سعى، وأما قوله تعالى: ﴿**وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ**

﴿إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[النجم:39] فهي مخصوصة بالكافر، وأما المؤمن فله ما سعى غيره. وذكر شمس الدين بن القطان العسقلاني أن وصول ثواب القراءة إلى الميت من قريب أو أجنبي هو الصحيح، كما تنفعه الصدقة والدعاء والاستغفار بالإجماع.

وأما إهداء القراءة إلى رسول الله ﷺ، فحكى ابن القيم أن من الفقهاء المتأخرين من استحبه، وإن كان النبي ﷺ غنيًا عن ذلك، فإن له مثل أجر كل من عمل خيرًا من أمته من غير أن ينقص من أجر العامل شيء.

قال الشافعي رضي الله عنه: «ما من خير يعمله أحد من أمة النبي ﷺ إلا والنبي ﷺ أصل فيه». قال المراغي في تحقيق النصرة: «فجميع حسنات المسلمين وأعمالهم الصالحة في صحائف نبينا ﷺ زيادة على ما له من الأجر مع مضاعفة لا يحصرها إلا الله تعالى، لأن كل مهتد وعامل إلى يوم القيامة يحصل له أجر ويتجدد لشيخه مثل ذلك الأجر، ولشيخ شيخه مثله، وللشيخ الثالث أربعة، وللرابع ثمانية وهكذا، تضعف كل مرتبة بعدد الأجور الحاصلة بعده إلى النبي ﷺ. وبهذا تعلم تفضيل السلف على الخلف. فإذا فرضت المراتب عشرة بعد النبي ﷺ، كان للنبي ﷺ من الأجر ألف وأربعة وعشرون، فإذا اهتدى بالعاشر حادي عشر، صار أجر النبي ﷺ ألفين وثمانية وأربعين، وهكذا كلما ازداد واحد يتضاعف ما كان قبله أبدًا، كما قال بعضهم.

وبهكذا يجاب عن استشكال دعاء القاري له ﷺ بزيادة التشريف مع العلم بكماله عليه الصلاة والسلام في سائر أنواع الشرف، فكأن

الداعي لحظ أن قبول قراءته يتضمن لمعلمه نظير أجره، وهكذا حتى يكون للمعلم الأول، وهو الشارع عليه الصلاة والسلام، نظير جميع ذلك. وبالجملة، فقد اختص رسول الله ﷺ بفضائل لا تحصى ومناقب لا تستقصى، وكذلك أمته تكريمًا له ﷺ: ﴿**ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**﴾[الحديد:21، والجمعة:4]. »

المقصد الخامس

في بعض ما ورد في آيات التنزيل من عظم قدره ورفعة ذكره وشهادته تعالى له بصدق نبوته، وقسمه على تحقيق رسالته واتباع سنته، ووجوب طاعته، وأخذه تعالى له الميثاق على سائر النبيين ليؤمنن به إن أدركوه ولينصرنه، والتنويه به في الكتب السائفة كالتوراة والإنجيل وغير ذلك.

وفي هذا المقصد عشرة أنواع:

النوع الأول: في آيات تتضمن عظم قدره ورفعة ذكره وجليل مرتبته وعلو درجته على الأنبياء وتشريف منزلته ﷺ.

قال الله تعالى: ﴿**تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ**﴾[البقرة:253]. قال المفسرون: يعني موسى عليه السلام، كلمه بلا واسطة. وليس ما في اختصاص موسى بالكلام قد ثبت أنه تعالى كلم نبينا أيضًا. وقوله تعالى: ﴿**وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ**﴾[البقرة:253] يعني محمدًا ﷺ رفعه الله تعالى من ثلاثة أوجه: بالذات في المعراج، وبالسيادة على جميع البشر، وبالمعجزات، لأنه عليه الصلاة والسلام أوتي من المعجزات ما لم يؤته نبي قبله. قال الزمخشري: «وفي هذا إفهام من تفخيم فضله وإعلاء قدره ما لا يخفى، لما فيه من الشهادة على أنه العلم الذي لا يشتبه، والمتميز الذي لا يلتبس.» وقد بينت هذه الآية، وكذا قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ**﴾[الإسراء:55] أن مراتب الرسل والأنبياء متفاوتة.

قال بعض أهل العلم فيما حكاه القاضي عياض: «التفضيل المراد لهم هنا في الدنيا، وذلك بثلاثة أحوال: أن تكون آياته ومعجزاته أظهر وأشهر، أو تكون أمته أزكى وأكثر، أو يكون في ذاته أفضل وأظهر.» وفضله في ذاته راجع إلى ما خصه الله تعالى به من كرامته وتفضيله بكلام أو خلة أو رؤية أو ما شاء الله من ألطافه وتحف ولايته واختصاصه. فلا مرية أن آيات نبينا ﷺ ومعجزاته أظهر وأنهر وأكثر وأبقى وأقوى ومنصبه أعلى ودولته أعظم وأوفر وذاته أفضل وأطهر،

وخصوصياته على جميع الأنبياء أشهر من أن تذكر. فدرجته أرفع من درجات جميع المرسلين وذاته أزكى وأفضل من سائر المخلوقين.

وتأمل حديث الشفاعة في المحشر، وانتهائها إليه وانفراده هناك بالسؤدد كما قال ﷺ: «أنا سيد ولد آدم وأول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة» رواه ابن ماجه. وفي حديث أنس عند الترمذي: «أنا أكرم ولد آدم يومئذ على ربي ولا فخر.» قال الفخر الرازي في «المعالم»: «إن تعالى وصف الأنبياء بالأوصاف الحميدة ثم قال لمحمد ﷺ: ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ**﴾[الأنعام:٩٠]، وقد أتى بجميع ما أتوا به من الخصال الحميدة، فقد اجتمع فيه ما كان مفرقًا فيهم، فيكون أفضل منهم.»

وإن دعوته عليه الصلاة والسلام وصلت إلى أكثر بلاد العالم بخلاف سائر الأنبياء، فظهر أن انتفاع أهل الدنيا بدعوته ﷺ أكمل من انتفاع سائر الأمم بدعوة سائر الأنبياء، فوجب أن يكون أفضل من سائر الأنبياء.

وقد روى الترمذي عن أبي سعيد الخدري قال: «قال رسول الله ﷺ: أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي آدم فمن سواه إلا تحت لوائي.» وفي حديث أبي هريرة مرفوعًا عند البخاري: «أنا سيد الناس يوم القيامة.» وهذا يدل على أنه أفضل من آدم عليه السلام ومن كل أولاده. ولم يقل ﷺ: «أنا سيد الناس» عجبًا وافتخارًا على من دونه، حاشاه الله من ذلك، وإنما قاله عليه الصلاة والسلام إظهارًا لنعمة الله تعالى عليه، وإعلامًا للأمة بقدر إمامهم ومتبوعهم عند الله تعالى، وعلو منزلته

لديه تعالى لتعرف نعمة الله عليهم وعليه، فذلك فرح بفضل الله وبرحمته، كما قال تعالى: ﴿**قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا**﴾[يونس:58].

وقال الله تعالى: ﴿**وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ**﴾[الانشراح:4]. روى ابن خزيمة من حديث أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال: «أتاني جبريل عليه السلام فقال: إن ربي وربك يقول: تدري كيف رفعت ذكرك؟» قلت: الله أعلم، قال: «إذا ذكرت، ذكرتَ معي.» وذكره الطبراني وصححه ابن حبان. وعن الإمام الشافعي رضي الله عنه قال: «أخبرنا ابن عيينة عن ابن أبي نجيح، معناه: لا أذكر إلا ذكرت معي، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله.» قال الإمام الشافعي: «يعني والله أعلم ذكره عند الإيمان بالله والأذان، ويحتمل ذكره عند تلاوة الكتاب وعند العمل بالطاعة والوقوف عن المعصية.» وقال يحيى بن آدم: «رفعه بالنبوة.»

وعن ابن عطاء قال: «جعلتك ذكرًا من ذكري، فمن ذكرك ذكرني.» وعنه أيضًا قال: «جعلت تمام الإيمان بذكرك معي.» قال البيضاوي: «وأي رفع مثل أن قرن اسمه باسمه في كلمتي الشهادة، وجعل طَاعته طاعته.» ويشير إلى قوله تعالى: ﴿**مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ**﴾[النساء:80]، ﴿**وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ**﴾[التوبة:62]، ﴿**وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ**﴾[النساء:13]، ﴿**أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ**﴾[الأنفال:20، 46]، ﴿**وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ**﴾[آل عمران:132]. وقال قتادة: «ورفع الله ذكره في الدنيا والآخرة، فليس خطيب ولا متشهد ولا صاحب صلاة إلا يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.» فهو مذكور

معه في الشهادة، والتشهد، ومقرون ذكره بذكره في القرآن والخطب والأذان، ويؤذن باسمه في موقف القيامة.

وأخرج أبو نعيم في «الحلية» عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «لما نزل آدم عليه الصلاة والسلام بالهند استوحش، فنزل جبريل عليه الصلاة والسلام، فنادى بالأذان: الله أكبر الله أكبر مرتين، أشهد أن لا إله إلا الله مرتين، أشهد أن محمدًا رسول الله مرتين.» الحديث. وكتب اسمه الشريف على العرش، وعلى كل سماء، وعلى الجنان وما فيها، رواه ابن عساكر. وأخرج البزار عن ابن عمر مرفوعًا: «لما عرج بي إلى السماء، ما مررت بسماء إلا وجدت اسمي فيها مكتوبًا: محمد رسول الله.» وفي (الحلية) عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم: «ما في الجنة شجرة عليها ورقة إلا مكتوب عليها: لا إله إلا الله، محمد رسول الله.»

وشق اسمه الكريم من اسمه تعالى، كما قال حسان:

«وشق له من اسمه ليجله، فذو العرش محمود وهذا محمد.»

وسماه من أسمائه الحسنى بنحو سبعين اسمًا، وصلى عليه في ملائكته، وأمر المؤمنين بالصلاة عليه، فقال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾[الأحزاب:56]. فأخبر عباده بمنزلة نبيه عنده في الملأ الأعلى، بأنه يثني عليه عند الملائكة، وأن الملائكة تصلي عليه، ثم أمر العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه. فيجتمع الثناء عليه من الله وأهل العالمين العلوي والسفلي جميعًا، وغير ذلك من وجوه رفعة ذكره صلى الله عليه وسلم.

وقال تعالى: ﴿**مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى**﴾[طه:2]. ذكروا في سبب نزولها أقوالًا: أحدها أن أبا جهل، والوليد بن المغيرة، ومطعم بن عدي قالوا لرسول الله ﷺ: «إنك تشقى حيث تركت دين آبائك.» فقال ﷺ: «بل بُعثت رحمة للعالمين.» وأنزل الله هذه الآية ردًا عليهم، وتعريفًا له ﷺ بأن دين الإسلام والقرآن هو السلم إلى نيل كل فرح، والسبب في إدراك كل سعادة، وما فيه الكفرة هو الشقاوة بعينها.

وثانيها أنه ﷺ صلى بالليل حتى تورمت قدماه، فقال له جبريل عليه السلام: «أبقِ على نفسك، فإن لها عليك حقًا.» أي ما أنزلناه عليك لتنهك نفسك بالعبادة وتذيقها المشقة العظيمة، وما بُعثت إلا بالحنيفية السمحة. ومعنى «طه»: يا رجل، قاله ابن عباس وغيره.

وقال الله تعالى: ﴿**إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ**﴾[الكوثر:1]. قال الإمام فخر الدين الرازي في هذه السورة: «كثير من الفوائد منها أنها كالمتممة لما قبلها من السور، وذلك لأنه تعالى جعل سورة الضحى في مدح نبينا ﷺ وتفصيل أحواله، فذكر في أولها ثلاثة أشياء تتعلق بنبوته، وهي قوله: ﴿**مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى * وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى**﴾[الضحى:3-5]. ثم ختمها كذلك بأحوال ثلاثة فيما يتعلق بالدنيا، وهي قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى**﴾[الضحى:6-8]. ثم ذكر في سورة (ألم نشرح) أنه تعالى شرفه عليه الصلاة والسلام بثلاثة أشياء: ﴿**أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ**﴾[الشرح:1-2]، ﴿**الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ**﴾[الشرح:3-4].

وهكذا سورة بعد سورة حتى قال: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾[الكوثر:1] أي أعطيناك هذه المناقب المتكاثرة التي كل واحدة منها أعظم من ملك الدنيا، بحذافيرها. وإذ أنعمنا عليك بهذه النعم فاشتغل بطاعتنا ولا تبالِ بقولهم. ثم إن الاشتغال بالعبادة إما أن يكون بالنفس، وهو قوله: «فصل لربك»، وإما بالمال، وهو قوله: «وانحر». وتأمل قوله ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ﴾[الكوثر:1] كيف ذكره بلفظ الماضي ولم يقل «سنعطيك» ليدل على أن هذا الإعطاء حصل في الزمان الماضي. قال عليه الصلاة والسلام: «كنت نبيًا وآدم بين الروح والجسد.» ولا شك أن من كان في الزمان الماضي عزيزًا مرعيَّ الجانب أشرف ممن سيصير كذلك. كأنه سبحانه وتعالى يقول: «يا محمد قد هيأنا أسباب سعادتك قبل دخولك في هذا الوجود، فكيف أمرك بعد وجودك واشتغالك بعبوديتنا؟ يا أيها العبد الكريم، إنا لم نعطك هذا الفضل العظيم لأجل طاعتك، وإنما اخترناك بمجرد فضلنا وإحساننا من غير موجب.»

واختلف المفسرون في تفسير الكوثر على وجوه، منها أنه نهر في الجنة. وهذا هو المشهور المستفيض عند السلف والخلف. روى أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «بينما أنا أسير في الجنة، إذا أنا بنهر حافتاه قباب الدر المجوف، قلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاك ربك، فإذا طينه مسك أذفر.» رواه البخاري.

وفي صحيح مسلم من حديث أنس، قال: «بينما رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة، ثم رفع رأسه متبسمًا، فقلنا: ما يضحكك؟ أضحك الله سنك يا رسول الله. قال: أنزلت علي آنفًا

سورة فقرأ: **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾**[الكوثر:1-3]. ثم قال: «أتدرون ما الكوثر؟» قلنا: «الله ورسوله أعلم.» قال: «فإنه نهر وعدنيه ربي، عليه خير كثير، وهو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد النجوم، فيختلج العبد منهم فأقول: "رب إنه من أمتي." فيقول: "ما تدري ما أحدث بعدك."»

وهو تفسير صريح منه ﷺ بأن المراد بالكوثر هنا الحوض، فالمصير إليه أولى وهو المشهور. فسبحان من أعطاه هذه الفضائل العظيمة، وشرفه بهذه الخصال العميقة، وحباه ما أفاضه عليه من نعمه الجسيمة.

وقد جرت عادة الله مع أنبيائه عليهم الصلاة والسلام أن يناديهم بأسمائهم الأعلام نحو: **﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ﴾**[البقرة:35، الأعراف:19]، **﴿يَا نُوحُ اهْبِطْ﴾**[هود:48]، **﴿يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ﴾**[القصص:30]، **﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ﴾**[المائدة:110]. وأما نبينا محمد ﷺ فناداه بالوصف الشريف من الإنباء والإرسال، فقال: **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾**، **﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾** لله در القائل: «فدعا جميع الرسل كلا باسمه، ودعاك وحدك بالرسول وبالنبي.»

قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام: «ولا يخفى على أحد أن السيد إذا دعا عبيده بأفضل ما أوجد لهم من الأوصاف العلية والأخلاق السنية، ودعا آخرين بأسمائهم الأعلام التي لا تشعر بوصف من الأوصاف ولا بخلق من الأخلاق، أن منزلة من دعاه بأفضل الأسماء والأوصاف أعز عليه وأقرب إليه ممن دعاه باسمه

العلم. وهذا معلوم بالعرف أن من دعي بأفضل أوصافه وأخلاقه كان ذلك مبالغة في تعظيمه واحترامه.»

وانظر ما في نحو قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾[البقرة:30] من ذكر الرب وإضافته إلى كاف خطاب النبي ﷺ، وما في ذلك من التنبيه على شرفه واختصاصه بخطابه ﷺ. وبالجملة، فقد تضمن الكتاب العزيز من التصريح بجليل رتبته وعظيم قدره وعلو منصبه ورفعة ذكره ﷺ ما يقضي بأنه استولى على أقصى درجات التكريم، ويكفي إخباره تعالى بالعفو عنه ملاطفة قبل ذكر العتاب في قوله تعالى: ﴿**عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ**﴾[التوبة:43]، وتقديم ذكره على الأنبياء تعظيمًا له مع تأخره عنهم في الزمان في قوله تعالى: ﴿**وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ**﴾[الأحزاب:7]، وإخباره تعالى بتمني أهل النار طاعته ﷺ في قوله تعالى: «يوم تقلب وجوههم في النار يقولون: يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول.»

وهذا بحر لا ينفد، وقطر لا يعد.

النوع الثاني: في أخذ الميثاق له ﷺ على النبيين ليؤمنن به إن أدركوه، ولينصرنه.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ**﴾[آل عمران:81] الآية.

وعن علي بن أبي طالب وابن عباس رضي الله عنهم: «ما بعث الله نبيًا من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد ﷺ وهو حي، ليؤمنن

به ولينصرنه.» وقيل: معناه أنه تعالى أخذ الميثاق من النبيين وأممهم، واستغنى بذكرهم عن ذكر الأمم.

قال السبكي في هذه الآية: «إنه ﷺ على تقدير مجيئهم في زمانه، يكون مرسلًا إليهم، فتكون نبوته ورسالته عامة لجميع الخلق من زمن آدم إلى يوم القيامة، وتكون الأنبياء وأممهم كلهم من أمته، ويكون قوله عليه الصلاة والسلام: «وبعثت إلى الناس كافة» لا يختص به الناس في زمانه إلى يوم القيامة، بل يتناول من قبلهم أيضًا. إنما أخذ المواثيق على الأنبياء ليعلموا أنه المقدم عليهم وأنه نبيهم ورسولهم. فالنبي محمد ﷺ نبي الأنبياء، ولهذا ظهر ذلك في الآخرة، جميع الأنبياء تحت لوائه، وفي الدنيا كذلك ليلة الإسراء، صلى بهم. ولو اتفق مجيؤه في زمن آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى، وجب عليهم وعلى أممهم اتباعه والإيمان به ونصرته. وبذلك أخذ الله الميثاق عليهم. فنبوته عليهم ورسالته إليهم معنى حاصل له، وإنما أمره يتوقف على اجتماعهم معه، فتأخر ذلك الأمر راجع إلى وجودهم لا إلى عدم اتصافهم بما يقتضيه. وفرق بين توقف الفعل على قبول المحل وتوقفه على أهلية الفاعل. فهنا لا توقف من جهة الفاعل، ولا من جهة ذاته الشريفة ﷺ.

وإنما هو من جهة وجود العصر المشتمل عليه، فلو وجد في عصرهم لزمهم اتباعه بلا شك، ولهذا يأتي عيسى عليه السلام في آخر الزمان على شريعته ﷺ، وهو نبي كريم على حاله لا كما يظن بعض الناس أنه يأتي واحدًا من هذه الأمة. نعم، هو واحد من هذه الأمة لما قلنا من اتباعه للنبي ﷺ، وإنما يحكم بشريعة نبينا محمد

ﷺ بالقرآن والسنة، وكل ما فيهما من أمر ونهي فهو متعلق به كما يتعلق بسائر الأمة. وكذلك لو بعث النبي ﷺ في زمانه أو في زمان موسى وإبراهيم ونوح وآدم، كانوا مستمرين على نبوتهم ورسالتهم إلى أممهم، والنبي ﷺ نبي عليهم ورسول إلى جميعهم. فنبوته ورسالته أعم وأشمل وأعظم، وتتفق مع شرائعهم في الأصول لأنها لا تختلف، وتقدم شريعته ﷺ فيما عساه يقع الاختلاف فيه من الفروع. وبهذا بان لنا معنى حديثين كانا خفيين عنا: أحدهما قوله ﷺ: «بعثت إلى الناس كافة»، كنا نظن أنه من زمانه إلى يوم القيامة فبان أنه إلى جميع الناس أولهم وآخرهم. والثاني قوله ﷺ: «كنت نبيا وآدم بين الروح والجسد»، كنا نظن أنه بالعلم فبان أنه زائد على ذلك.

النوع الثالث: في وصفه تعالى له عليه الصلاة والسلام بالشهادة وشهادته له بالرسالة.

قال الله تعالى حكاية عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام عند بناء البيت الحرام:

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[البقرة:127-129].

فاستجاب الله تعالى دعاءهما، وبعث في أهل مكة منهم رسولًا بهذه الصفة من ولد إسماعيل الذي دعا مع أبيه إبراهيم عليهما السلام بهذا الدعاء. وقد اجتمع المفسرون على أنه ﷺ هو المراد من هذه الآية. وقال عليه الصلاة والسلام: «أنا دعوة أبي إبراهيم وبشارة

عيسى»، قالوا: وأراد بالدعوة هذه الآية، وبشارة عيسى هي ما ذكر في سورة الصف من قوله: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾[الصف:6].

وإنما دعا إبراهيم بهذا الدعاء بمكة لذريته الذين كانوا بها وما حولها، ولم يبعث الله تعالى إلى من بمكة إلا محمدًا ﷺ.

وقد امتن الله تعالى على المؤمنين ببعث هذا النبي منهم في هذه الصفة فقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾[آل عمران:164]. الآية.

فليس لله منّة على المؤمنين أعظم من إرساله محمدًا ﷺ يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم. وإنما كانت النعمة على هذه الأمة بإرساله أعظم النعم؛ لأن النعمة به ﷺ تمت بها مصالح الدنيا والآخرة، وكمل بسببها دين الله الذي رضيه لعباده.

وقوله: «مِّنْ أَنفُسِهِمْ» يعني أنه بشر مثلهم، وإنما امتاز عليهم بالوحي. وقال في الشواذ: «أَنفُسِهِمْ» يعني من أشرفهم لأنه من بني هاشم، وبنو هاشم أفضل قريش، وقريش أفضل العرب، والعرب أفضل من غيرهم.

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[الجمعة:2].

والمراد بالأميين العرب، تنبيهًا لهم على قدر هذه النعمة وعظمها حيث كانوا أميين لا كتاب لهم، وليس عندهم شيء من آثار النبوة كما عند أهل الكتاب. فمن الله تعالى عليهم بهذا الرسول وبهذا الكتاب

حتى صاروا أفضل الأمم وأعلمهم، وعرفوا ضلالة من ضل قبلهم من الأمم.

وفي كونه عليه الصلاة والسلام منهم فائدتان:

الفائدة الأولى: أن هذا الرسول كان أيضًا أميا كأمية المبعوث إليهم، لم يقرأ كتابًا قط ولم يخطه بيمينه كما قال تعالى: ﴿**وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ**﴾[العنكبوت:48]، ولا خرج عن ديار قومه فأقام عند غيرهم حتى تعلم منهم، بل لم يزل أميا بين أمة أمية لا يكتب ولا يقرأ حتى بلغ الأربعين من عمره، ثم جاء بعد ذلك بهذا الكتاب المبين وهذه الشريعة الباهرة، وهذا الدين القيم الذي اعترف حذاق أهل الأرض ونظارها أنه لم يقرع العالم ناموس أعظم منه. وفي هذا برهان عظيم على صدقه عليه الصلاة والسلام.

الفائدة الثانية: التنبيه على أن المبعوث منهم وهم الأميون، خصوصًا أهل مكة، يعرفون نسبه وشرفه وصدقه وأمانته وعفته، وأنه نشأ بينهم معروفًا بذلك، وأنه لم يكذب قط. فكيف كان يدع الكذب على الناس ثم يفتري الكذب على الله عز وجل؟ هذا هو الباطل. ولهذا سأل هرقل عن هذه الأوصاف واستدل بها على صدقه فيما ادعاه من النبوة والرسالة. وقال الله تعالى خطابًا لهم: ﴿**فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ**﴾[الأنعام:33].

ويروى أن رجلًا قال: «والله يا محمد ما كذبتنا قط فنتهمك اليوم، ولكن إن نتبعك نتخطف من أرضنا»، فنزلت هذه الآية، قاله ابن عباس.

وعن مقاتل، كان الحارث بن عامر يكذب النبي ﷺ في العلانية، فإذا خلا مع أهل بيته قال: «ما محمد من أهل الكذب»، ويروى أن

المشركين كانوا إذا رأوه عليه الصلاة والسلام قالوا: «إنه لنبي». وعن علي ﷺ قال: قال أبو جهل للنبي ﷺ: «إنا لا نكذبك ولكن نكذب بما جئت به»، فأنزل الله الآية، والمعنى أنهم ينكرونه مع العلم بصحته. وروي أن أبا جهل لقيه ﷺ فصافحه، فقيل له: «أنصافحه؟»، فقال: «والله إني لأعلم أنه نبي، ولكن متى كنا تبعًا لبني عبد مناف؟»، فأنزل الله الآية. رواه ابن أبي حاتم.

والقرآن كله مملوء بالآيات الدالة على صدق هذا الرسول الكريم ﷺ وتحقيق رسالته. وكيف يليق بكمال الله أن يقر من يكذب عليه أعظم الكذب، ويخبر عنه بخلاف ما هو عليه، ثم ينصره على ذلك ويؤيده ويعلي كلمته ويرفع شأنه ويجيب دعوته ويهلك عدوه، ويظهر على يده من الآيات والبراهين والأدلة ما يضعف عن مثله قوى البشر؟ وهو مع ذلك كاذب عليه مفتر ساعٍ في الأرض بالفساد! ومعلوم أن شهادته سبحانه وتعالى على كل شيء، وقدرته على كل شيء، وحكمته وعزته وكماله المقدس يأبى ذلك كل الإباء. ومن ظن ذلك به وجوزه عليه فهو من أبعد الخلق عن معرفته.

وإذا تدبرت القرآن، رأيته ينادي على ذلك ويبديه ويعيده لمن له فهم وقلب واع على الله تعالى. قال الله تعالى: ﴿**وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ**﴾[الحاقة: 44-47]. وقال تعالى لمن طلب آية تدل على صدق رسوله: ﴿**أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ**

وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[العنكبوت:51-52]. فأخبر سبحانه أن الكتاب الذي أنزله يكفي من كل آية، ففيه الحجة والدلالة على أنه من الله، وأن الله سبحانه وتعالى أرسل به رسوله، وفيه بيان ما يوجب لمن اتبعه السعادة وينجيه من العذاب. ثم قال: **﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾**[العنكبوت:52]. فإذا كان سبحانه وتعالى عالمًا بجميع الأشياء، كانت شهادته أصدق شهادة وأعدلها، فإنها شهادة بعلم تام محيط بالمشهود به.

وقال تعالى: **﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾**[الأحزاب:45-46]. فكأنه تعالى يقول: «يا أيها المشرف من قبلنا، إنا أرسلناك شاهدًا بوحدانيتنا، ومشاهدًا لكمال فردانيتنا، تبشر عبادنا عنا وتحذرهم مخالفة أمرنا، وتعلمهم مواضع الخوف منا، وداعيًا الخلق إلينا، وسراجًا يستضيئون بك، وشمسًا تبسط شعاعك على جميع من صدقك وآمن بك، ولا يصل إلينا إلا من اتبعك وخدمك وقدمك. فبشره بفضلنا وطولنا عليهم وإحساننا إليهم.»

ولما كان الله قد جعله عليه الصلاة والسلام شاهدا على الوحدانية، والشاهد لا يكون مدعيًا، فالله تعالى لم يجعل النبي ﷺ في مسألة الوحدانية مدعيًا لها، لأن المدعي من يقول شيئًا على خلاف الظاهر، والوحدانية أظهر من الشمس. والنبي ﷺ كان قد ادعى النبوة، فجعل الله تعالى نفسه شاهدًا له في مجازاة كونه شاهدًا له تعالى، فقال سبحانه: «والله يشهد إنك لرسوله». ومن هذا قوله تعالى: **﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾**[الرعد:43]. فاستشهد على رسالته

بشهادة الله له. وكذلك قوله تعالى: ﴿**قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ**﴾[الأنعام:19]. وقوله: ﴿**لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا**﴾[النساء:166]. وقوله: ﴿**وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ**﴾[المنافقون:1]. وقوله: ﴿**مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ**﴾[الفتح:29]. فهذا كله منه تعالى شهادة لرسوله قد أظهرها وبينها وبين صحتها غاية البيان، بحيث قطع العذر بينه وبين عباده، وأقام الحجة عليهم بكونه سبحانه شاهدا لرسوله.

وقال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا**﴾[الفتح:28]. فيظهر ظهورين: ظهورًا بالحجة والبيان، وظهورًا بالنصر والغلبة والتأييد، حتى يظهر على مخالفيه ويكون منصورًا.

من شهادته تعالى أيضًا ما أودعه في قلوب عباده من التصديق الجازم واليقين الثابت والطمأنينة بكلامه وحبِّه، فإن الله تعالى فطر القلوب على قبول الحق والانقياد له والطمأنينة والسكون إليه ومحبته، وفطرها على بغض الكذب والباطل والنفور منه وعدم السكون إليه. ولو بقيت الفطرة على حالها لما آثرت على الحق سواه؛ لما سكنت إلا إليه، ولا اطمأنت إلا به، ولا أحبت غيره. ولهذا ندب الحق سبحانه إلى تدبر القرآن، فإن كل من تدبره أوجب له علمًا ضروريًّا ويقينًا جازمًا أنه حق، بل أحق كل حق وأصدق كل صدق، قال تعالى: ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾[محمد:24]. فلو رفعت الأقفال عن القلوب لباشرتها حقائق القرآن، واستنارت فيها مصابيح الإيمان، وعلمت علمًا ضروريًّا كسائر الأمور الوجدانية

كاللذة والألم، أنه من عند الله تكلم به حقًا وبلغه رسوله جبريل عليه السلام إلى رسوله محمد ﷺ. فهذا الشاهد في القلب من أعظم الشواهد، انتهى ملخصًا من «مدارج السالكين».

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:158]، ففي هذه الآية دلالة على أنه ﷺ مبعوث إلى كافة الثقلين.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «والذي نفسي بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، ولا يهودي ولا نصراني، ومات ولم يؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار»، رواه مسلم. وفي هذا الحديث نسخ المثل كلها برسالة نبينا ﷺ.

وقال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ﴾[المائدة:19]. خاطب تعالى أهل الكتاب من اليهود والنصارى بأنه قد أرسل إليهم رسوله محمدًا خاتم النبيين، الذي لا نبي بعده ولا رسول، بل هو المعقب لجميعهم. ولهذا قال تعالى: ﴿عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ﴾[المائدة:19] أي بعد مدة متطاولة ما بين إرساله ﷺ وإرسال عيسى ابن مريم عليه السلام. وقد اختلفوا في مقدار هذه الفترة. قال الحافظ ابن كثير، والمشهور أنها ستمائة سنة. قال ﷺ: «أنا أولى الناس بابن مريم، لأنه ليس بيني وبينه نبي»، رواه البخاري. والمقصود أن الله بعث محمدًا على فترة من الرسل، وطموس من السبل، وتغير الأديان، وكثرة عبادة الأوثان والنيران والصلبان. فكانت النعمة به أتم، والنفع به أعم.

وفي حديث عند الإمام أحمد مرفوعًا: «إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عجمهم وعربهم، إلا بقايا من بني إسرائيل».

وفي لفظ مسلم: «من أهل الكتاب». فكان الدين قد التبس على أهل الأرض كلهم، حتى بعث الله محمدًا ﷺ فهدى به الخلائق، وأخرجهم الله به من الظلمات إلى النور، وتركهم على المحجة البيضاء والشريعة الغراء، صلوات الله وسلامه عليه.

وقال تعالى: ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ**﴾[التوبة:128]. أي: عزيز عليه عنتكم، أي: إثمكم بالشرك والمعاصي. قال الحسن: «عزيز عليه أن تدخلوا النار، حريص عليكم أن تدخلوا الجنة». ومن حرصه ﷺ علينا أنه لم يخاطبنا بما يريد إبلاغه إلينا وفهمنا إياه على قدر منزلته، بل على قدر منزلتنا. قال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**﴾[الأنبياء:107]. ولا رحمة مع التكليف بما لا يفهم. ولذلك كان ﷺ كثيرًا ما يضرب المثل بالمحسوس ليحصل الفهم. ومن تتبع الكتاب والسنة رأى من ذلك العجب العجاب.

ولما ساوى سبحانه وتعالى بين الناس في حرص رسوله عليه الصلاة والسلام على إسلامهم، خص المؤمنين برأفته ورحمته لهم. وقال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**﴾[الأنبياء:107]. قال أبو بكر بن ظاهر: «زين الله تعالى محمدًا ﷺ بزينة الرحمة، فكان كونه رحمة، وجميع شمائله وصفاته رحمة على الخلق. فمن أصابه شيء من رحمته فهو الناجي في الدارين من كل مكروه، والواصل فيهما إلى كل محبوب». وقال ابن عباس: «رحمة للبر والفاجر، لأن كل نبي إذا كذب أهلك الله من كذبه، ومحمد ﷺ أخر من كذبه إلى الموت أو إلى القيامة. وأما من صدقه، فله الرحمة في الدنيا والآخرة». وقال

السمرقندي: «رحمة للعالمين»، يعني الجن والإنس. وقيل لجميع الخلق: «للمؤمن رحمة بالهداية، ورحمة للمنافق بالأمان من القتل، ورحمة للكافر بتأخير العذاب». فذاته عليه الصلاة والسلام رحمة تعم المؤمن والكافر. قال الله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ**﴾[الأنفال:33]. وقال عليه الصلاة والسلام: «إنما أنا رحمة مهداة»، رواه البيهقي وغيره. وقال بعض العارفين: «الأنبياء خلقوا كلهم من الرحمة، ونبينا ﷺ عين الرحمة».

وفي «الشفاء» للقاضي عياض، حكي أنه ﷺ قال لجبريل: «هل أصابك من هذه الرحمة شيء؟»، قال: «نعم، كنت أخشى العاقبة، فأمنت بثناء الله تعالى علي بقوله عز وجل: ﴿**ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ**﴾[التكوير:20-21]».

وقال تعالى: ﴿**مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ**﴾[الأحزاب:40]. هذه الآية نص في أنه لا نبي بعده، فلا رسول بطريق الأولى؛ لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة، فإن كل رسول نبي، ولا ينعكس. وبذلك وردت الأحاديث عنه ﷺ، فعن أنس رضي الله عنه قال ﷺ: «إن الرسالة والنبوة قد انقطعت، فلا رسول بعدي، ولا نبي»، رواه الترمذي وغيره. وعن جابر رضي الله عنه قال ﷺ: «مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى دارًا فأكملها وأحسنها إلا موضع لبنة. فكان من دخلها فنظر إليها قال: ما أحسنها! إلا أخبر الله في كتابه ورسوله في السنة المتواترة عنه أنه لا نبي بعده ﷺ، ليعلموا أن كل من ادعى هذا المقام بعده فهو كذاب أفَّاق دجال ضال مضل. ولو تحذلق وتشعبد وأتى بأنواع السحر والطلاسم والنيرنجيات، فكلها محال

وضلال. ولا يقدح في هذا موضع هذه اللبنة؛ فأنا موضع اللبنة، ختم بي الأنبياء»، رواه البخاري ومسلم وغيرهما. وفي حديث أبي هريرة ﵁ عند مسلم: «وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون»، وقد نزول عيسى عليه السلام بعده، لأنه إذا نزل كان على دين نبينا ﷺ ومنهاجه، فنبينا ﷺ هو آخر نبي من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

النوع الرابع: في التنويه برساليته ﷺ في الكتب السابقة كالتوراة والإنجيل.

قال الله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ**﴾[الأعراف:157]. وهذا يدل على كمال صدقه ﷺ، لأنه لو لم يكن مكتوبًا لكان ذكر هذا الكلام من أعظم المنفرات لليهود والنصارى عن قبول قوله، لأن الإصرار على الكذب والبهتان من أعظم المنفرات، والعاقل لا يسعى فيما يوجب نقصان حاله وينفر الناس عن قبول مقاله. فلما قال لهم عليه الصلاة والسلام هذا، دل على أن ذلك النعت كان مذكورًا في التوراة والإنجيل، وذلك من أعظم الدلائل على صحة نبوته ﷺ. لكن أهل الكتاب، كما قال الله تعالى: ﴿**لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾[البقرة:146]، ﴿**يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ**﴾[النساء:46، المائدة:13]، وإلا فهم قاتلهم الله قد عرفوا محمدًا ﷺ كما عرفوا أبناءهم، ووجدوه مكتوبًا في التوراة والإنجيل، لكنهم حرفوهما وبدلوهما ليطفئوا نور الله بأفواههم، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون.

فدلائل نبوة نبينا ﷺ في كتابيهما بعد تحريفهما طافحة، وأعلام شرائعه ورسالته فيهما لائحة، كيف يغني عنهم إنكارهم؟ وهذا

اسم النبي ﷺ بالسريانية «مشفح». فمشفح محمد بغير شك، فإنهم يقولون «شفحًا لاها» إذا أرادوا أن يقولوا «الحمد لله»، وإذا كان الحمد «شفحًا» فمشفح محمد. ولأن الصفات التي أقروا بها هي وفاق لأحواله وزمانه ومخرجه ومبعثه وشريعته ﷺ، فليدلونا على من هذه الصفات له، ومن خرجت له الأمم من بين يديه والقادة له، واستجابت لدعوته. ومن صاحب الجمل الذي هلكت بابل وأصنامها به؟ أليس فيما أودع الله عز وجل القرآن دليل على ذلك؟ وفي تركهم جحد ذلك وإنكاره وهو يقرعهم به، دليل على اعترافهم له، فإنه يقول: ﴿**الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ**﴾[الأعراف:157]، ويقول حكاية عن المسيح: ﴿**إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ**﴾[الصف:6]، ويقول: ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾[آل عمران:71]، ويقول: ﴿**الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ**﴾[البقرة:146].

وكانوا يقولون لمخالفيهم عند القتال: «هذا نبي قد أظل مولده»، ويذكرون من صفته ما يجدونه في كتابهم: ﴿**فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ**﴾[البقرة:89] حسدًا وخوفًا على الرياسة، ﴿**فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾[البقرة:89].

وقد كان ﷺ يدعوهم إلى اتباعه وتصديقه، فكيف يجوز أن يحتج بباطل من الحجج ثم يحيل ذلك على ما عندهم وما في أيديهم؟ ويقول: «من علامة نبوتي وصدقي أنكم تجدونني عندكم مكتوبًا»

وهم لا يجدونه كما ذكر؟ أليس ذلك مما يزيدهم عنه بعدًا؟ وقد كان غنيًا عن أن يدعوهم بما ينفرهم. وكم أسلم من أسلم من علمائهم كعبد الله بن سلام وتميم الداري وكعب، وقد وقفوا منه على مثل هذه الدعوات.

وقد روى ابن عساكر في تاريخ دمشق عن عبد الله بن سلام أنه لما سمع بمخرج النبي ﷺ بمكة، خرج فلقيه فقال له النبي ﷺ: «أنت ابن سلام عالم أهل يثرب؟» قال: نعم. قال: «ناشدتك بالله الذي أنزل التوراة على موسى، هل تجد صفتي في كتاب الله؟» قال: «انسب ربك يا محمد»، فأرتج النبي ﷺ، فقال له جبريل عليه السلام: ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ**﴾[الإخلاص:1-4].

فقال ابن سلام: «أشهد أنك رسول الله، وأن الله مظهرك ومظهر دينك على الأديان، وإني لأجد صفتك في كتاب الله: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا**﴾[الأحزاب:45] يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا، أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق ولا يجزي بالسيئة مثلها ولكن يعفو ويصفح. ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء حتى يقولوا لا إله إلا الله ويفتح به أعينًا عميا وآذانًا صمًا وقلوبًا غلفًا». وقوله: «ليس بفظ ولا غليظ» موافق لقوله تعالى: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**﴾[آل عمران:159]

ورواه البخاري عن عطاء بن يسار عن عمرو بن العاص بزيادة وحرزًا للأمنين، ورواه البيهقي عن أم الدرداء عن كعب بزيادة: «يعين

المظلوم ويمنعه من أن يستضعف». وعند ابن إسحاق: «ولا يصحب في الأسواق ولا متزين بالفحش ولا قوال للخنا. أسدده بكل جميل وأهب له كل خلق كريم، ثم أجعل السكينة لباسه، والبر شعاره، والتقوى ضميره، والحكمة معقوله، والصدق والوفاء طبيعته، والعفو والمعروف خلقه، والعدل سيرته، والحق شريعته، والهدى إمامه، والإسلام ملته، وأحمد اسمه. أهدي به بعد الضلالة، وأعلم به بعد الجهالة، وأرفع به بعد الخمالة، وأسمي به بعد النكرة، وأكثر به بعد القلة، وأغني به بعد العيلة، وأجمع به بعد الفرقة، وأؤلف به بين قلوب مختلفة وأهواء متشتتة وأمم متفرقة. وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس.»

وأخرج البيهقي عن ابن عباس قال: «قدم الجارود فأسلم وقال: والذي بعثك بالحق لقد وجدت وصفك في الإنجيل، ولقد بشر بك ابن البتول.» وأخرج ابن سعد قال: «لما أمر إبراهيم بإخراج هاجر حمل على البراق، فكان لا يمر بأرض عذبة سهلة إلا قال: أنزل ههنا يا جبريل، فيقول: لا، حتى أتى مكة. فقال جبريل: انزل يا إبراهيم. قال: حيث لا ضرع ولا زرع. قال: نعم، ههنا يخرج النبي الذي من ذرية ابنك الذي تتم به الكلمة العليا.»

وفي التوراة مما اختاروه بعد الحذف والتحريف والتبديل مما ذكره ابن ظفر في «البشر» وابن قتيبة في «أعلام النبوة»: «تجلى الله من سينا، وأشرق من ساعير، واستعلن من جبال فاران.» «سينا» هو الجبل الذي كلم الله فيه موسى، و«ساعير» هو الجبل الذي ظهرت فيه نبوة عيسى، و«جبال فاران» هو اسم عبراني لجبال بني هاشم التي

كان رسول الله ﷺ يتحنث أي يتعبد في أحدها. وفيه فاتحة الوحي وهو أحد ثلاثة جبال: أحدها أبو قبيس، والمقابل له فعيقعان إلى بطن الوادي، والثالث الشرقي فاران. ومنفتحه الذي يلي فعيقعان إلى بطن الوادي هو شعب بني هاشم، وفيه وُلد ﷺ على أحد الأقوال.

قال ابن قتيبة: «وليس بهذا غموض، لأن تجلي الله من سينا هو إنزال التوراة على موسى عليه الصلاة والسلام بطور سينا. ويجب أن يكون إشراقه من ساعير، إنزاله الإنجيل على عيسى عليه الصلاة والسلام، وكان المسيح يسكن من ساعير أرض الجليل بقرية تدعى ناصرة، وباسمها سمي من اتبعه نصارى. فكما وجب أن يكون إشراقه من ساعير، إنزاله على المسيح الإنجيل، فكذلك يجب أن يكون استعلانه من جبال فاران، إنزاله القرآن على محمد ﷺ. وهي جبال مكة، وليس بين المسلمين وأهل الكتاب اختلاف في أن فاران هي مكة. وإن ادعي أنها غير مكة، قلنا: أليس في التوراة أن الله أسكن هاجر وإسماعيل فاران؟ وقلنا: دلونا على الموضع الذي استعلن الله منه واسمه فاران، والنبي الذي أنزل عليه كتاب بعد المسيح؟ أو ليس «استعلن» و«علن» بمعنى واحد، وهو ما ظهر وانكشف؟ فهل تعلمون دينا ظهر ظهور الإسلام وفشا في مشارق الأرض ومغاربها؟

وفي التوراة أيضًا، مما ذكره ابن ظفر خطابًا لموسى والمراد به الذين اختارهم لميقات ربه، الذين أخذتهم الرجفة خصوصًا ثم بني إسرائيل عمومًا، والله ربك يقيم نبيًا من إخوتك فاستمع له، كالذي سمعت ربك في حوريت يوم الاجتماع حين قلت: «لا أعود أسمع صوت الله ربي لئلا أموت». فقال الله تعالى: «نعم ما قالوا،

وسأقيم لهم نبيًا مثلك من إخوتهم، وأجعل كلامي في فمه فيقول لهم كل شيء أمرته به. وأيما رجل لم يطع من تكلم باسمي، فإني أنتقم منه». قال: «وفي هذا الكلام أدلة على نبوة محمد ﷺ. فقوله: ‹نبيًا من إخوتهم›، وموسى وقومه من بني إسحاق، وإخوتهم من بني إسماعيل.

ولو كان هذا النبي الموعود به من بني إسحاق لكان من أنفسهم لا من إخوتهم. وأما قوله: ‹نبيًا مثلك›، فقد قال في التوراة: ‹مثل موسى لا يقوم في بني إسرائيل أبدًا›. فذهبت اليهود إلى أن هذا النبي الموعود به هو يوشع ابن نون، وذلك باطل، لأن يوشع لم يكن كفؤًا لموسى عليهما الصلاة والسلام، بل كان خادمًا له في حياته، ومؤكدًا لدعوته بعد مماته. فتعين أن يكون المراد به محمد ﷺ، فإنه كُفءٌ لموسى لأنه ماثله في نصب الدعوة، والتحدي بالمعجزة، وشرع الأحكام، وإجراء النسخ على الشرائع السائفة. وقوله تعالى: ‹أجعل كلامي في فمه›، فإنه واضح في أن المقصود به محمد ﷺ، لأن معناه: أوحي إليه بكلامي فينطق به على نحو ما سمعه، ولا أنزل عليه صحفًا ولا ألواحًا لأنه أمي لا يحسن أن يقرأ المكتوب».

وفي الإنجيل، مما ذكره ابن طغري في «الدر المنظم»، قال يوحنا في إنجيله عن المسيح أنه قال: «أنا أطلب لكم من الآب أن يعطيكم فارقليط آخر يثبت معكم إلى الأبد، روح الحق الذي لن يطيق العالم أن يقتلوه». وهو عبد بن ظفر بلفظ: «إن أحببتموني فاحفظوا وصيتي، وأنا أطلب إلى أبي فيعطيكم فارقليط آخر يكون معكم الدهر كله». قال: «فهذا تصريح بأن الله سيبعث إليهم من يقوم مقامه وينوب في

تبليغ رسالة ربه، وسياسة خلقه منابه، وتكون شريعته باقية مخلدة أبدًا. فهل هذا إلا محمد ﷺ؟».

وقد اختلف النصارى في تفسير (الفارقليط)، فقيل هو الحامد، وقيل المخلص. فإن وافقناهم على أنه المخلص، أفضى بنا الأمر إلى أن المخلص رسول يأتي بخلاص العالم، وذلك من غرضنا، لأن كل نبي مخلص لأمته من الكفر، ويشهد له قول المسيح في الإنجيل: «إني جئت لخلاص العالم». فإذا ثبت أن المسيح هو الذي وصف نفسه بأنه مخلص العالم، وهو الذي سأل الآب أن يعطيهم فارقليط آخر، ففي مقتضى اللفظ ما يدل. بدل على أنه قد تقدم فارقليط أول حتى يأتي فارقليط آخر. وإذا قلنا معهم إن معناه الحامد، فأي لفظ أقرب إلى أحمد ومحمد من هذا؟»

قال ابن ظفر: «وفي الإنجيل مما ترجموه ما يدل على أن الفارقليط الرسول، فإنه قال: ‹إن هذا الكلام الذي تسمعونه ليس هو لي بل الأب الذي أرسلني بهذا الكلام لكم. وأما الفارقليط روح القدس الذي يرسله أبي باسمي فهو يعلمكم كل شيء، وهو يذكركم كل ما قلته لكم›. فهل بعد هذا بيان؟ أليس هذا صريحًا في أن الفارقليط رسول يرسله الله، وهو روح القدس، وهو يصدق بالمسيح، ويظهر اسمه أنه رسول حق من الله، وليس بإله، وهو يعلم الخلق كل شيء، ويذكرهم كل ما قاله المسيح عليه الصلاة والسلام لهم، وكل ما أمرهم به من توحيد الله؟ وأما قوله ‹أبي›، فهذه اللفظة مبدلة محرفة، وليست منكرة الاستعمال عند أهل الكتابين، إشارة إلى الرب سبحانه وتعالى، لأنها عندهم لفظة تعظيم يخاطب بها المتعلم معلمه الذي

يستمد منه العلم. ومن المشهور مخاطبة النصارى عظماء دينهم بالإباء الروحانية. ولم تزل بنو إسرائيل وبنو عيسو يقولون: ⟨نحن أبناء الله⟩، بسوء فهمهم عن الله تعالى. وأما قوله ⟨يرسله باسمي⟩، فهو إشارة إلى شهادة المصطفى ﷺ له بالصدق والرسالة، وما تضمنه القرآن من مدحه وتنزيهه عما افتري في أمره».

وفي ترجمة أخرى للإنجيل، قال: «الفارقليط إذا جاء وبخ العالم على الخطيئة، ولا يقول من تلقاء نفسه ما يسمع، يكلمهم به ويسوسهم بالحق، ويخبرهم بالحوادث». وهو عند ابن طغرك بك بلفظ: «فإذا جاء روح الحق، ليس ينطق من عنده بل يتكلم بكل ما يسمع من الله، ويخبرهم بكل ما يأتي». وهو يمجدني لأنه يأخذ مما هو لي ويخبركم. فقوله «ليس ينطق من عنده»، وفي الرواية الأخرى «ولا يقول من تلقاء نفسه بل يتكلم بكل ما يسمع» أي من الله الذي أرسله. وهذا كما قال تعالى في صفته ﷺ: ﴿**وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى**﴾[النجم: 3-4]. وقوله «وهو يمجدني» فلم يمجده عليه السلام حق تمجيده إلا محمد ﷺ، لأنه وصفه بأنه رسول الله وبرأه وبرأ أمه عليهما السلام مما نسب إليهما، وأمر بذلك.

قال ابن ظفر: فمن ذا الذي وبخ العلماء على كتمان الحق وتحريف الكلم عن مواضعه، وبيع الدين بالثمن البخس، ومن الذي أنذر بالحوادث وأخبر بالغيوب إلا محمد ﷺ؟

وفي «الدلائل» للبيهقي عن هشام بن العاص الأموي قال: «بعثت أنا ورجل آخر إلى هرقل صاحب الروم ندعوه إلى الإسلام»، فذكر الحديث وأنه أرسل إليهم ليلًا. قال: فدخلنا عليه فدعا بشيء

كهيئة الربعة العظيمة المذهبة، فيها بيوت صغار عليها أبواب. ففتح واستخرج حريرة سوداء فنشرها، فإذا فيها صورة حمراء، وإذا رجل ضخم العينين عظيم الإليتين، لم أر مثل طول عنقه، وإذا له ضفيرتان أحسن ما خلق الله تعالى. قال: «أتعرفون هذا؟» قلنا: لا. قال: «هذا آدم عليه السلام». ثم فتح بابًا آخر فاستخرج حريرة سوداء، وإذا فيها صورة بيضاء، فإذا رجل أحمر العينين ضخم الهامة حسن اللحية. فقال: «أتعرفون هذا؟» قلنا: لا. قال: «هذا نوح عليه السلام». ثم فتح بابًا آخر وأخرج حريرة، فإذا فيها صورة بيضاء، وإذا فيها والله رسول الله ﷺ. فقال: «أتعرفون هذا؟» قلنا: نعم، محمد رسول الله ونبينا. والله إنه أي هرقل قام قائمًا ثم جلس وقال: «إنه لهو». فقلنا: نعم، إنه لهو. كأنك تنظر إليه. فأمسك ساعة ينظر إليها، ثم قال: «أما والله إنه لآخر البيوت، ولكن عجلته لكم لأنظر ما عندكم». الحديث وفيه ذكر صور الأنبياء: إبراهيم، موسى، عيسى، سليمان وغيرهم. قال: «فقلنا له: من أين لك هذه الصور؟» فقال: «إن آدم سأل ربه أن يريه الأنبياء من ولده، فأنزل عليه صورهم، فكانت في خزانة آدم عليه الصلاة والسلام عند مغرب الشمس. فاستخرجها ذو القرنين من مغرب الشمس، فدفعها إلى دانيال».

وفي زبور داود عليه السلام من مزمور أربعة وأربعين: «فاضت النعمة من شفتيك، من أجل هذا باركك الله إلى الأبد، تقلد أيها الجبار سيفك، فإن شرائعك وسننك مقرونة بهيئة يمينك وسهامك مسؤونة، وجميع الأمم يخرون تحتك.» فهذا المزمور ينوه بمحمد ﷺ. فالنعمة التي فاضت من شفتيه هي القول الذي يقوله، وهو

الكتاب الذي أنزل عليه، والسنة التي سنها. وفي قوله «تقلد سيفك أيها الجبار» دلالة على أنه النبي العربي، إذ ليس يتقلد السيوف أمة من الأمم إلا العرب، وكلهم يتقلدونها على عوائقهم. وفي قوله «فإن شرائعك وسنتك» نص صريح على أنه صاحب شريعة وسنة، وأنها تقوم بسيفه، والجبار الذي يجبر الخلق بالسيف على الحق ويصرفهم عن الكفر جبرًا.

وعن وهب بن منبه قال: «قرأت في بعض الكتب القديمة قال الله: وعزني وجلالي لأنزلن على جبال العرب نورًا يملأ ما بين المشرق، ولأخرجن من ولد إسماعيل نبيًا عربيًا أميًا، يؤمن به عدد نجوم السماء ونبات الأرض، كلهم يؤمن بي ربا وبه رسولا، ويكفرون بمثل آبائهم، ويفرون منها».

قال موسى: «سبحانك وتقدست أسماؤك، لقد كرمت هذا النبي وشرفته». قال الله: «يا موسى، إني أنتقم من عدوه في الدنيا وفي الآخرة، وأظهر دعوته على كل دعوة، وأذل من خالف شريعته، وبالعدل زينته، وللقسط أخرجته، وعزني لأستنقذن به أممًا من النار. فتحت الدنيا بإبراهيم، وختمتها بمحمد، مثل كتابه الذي يجيء به. فاعقلوه يا بني إسرائيل كمثل السقاء المملوء لبنًا يمخض فيخرج زبدًا بكتابه أختم الكتب، وبشريعته أحتم الشرائع، فمن أدركه ولم يؤمن به ولم يدخل في شريعته فهو من الله بريء. أجعل أمته يبنون في مشارق الأرض ومغاربها مساجد، إذا ذكر اسمي فيها ذكر اسم ذلك النبي معي. لا يزول ذكره من الدنيا حتى تزول ذكره». ابن ظفر رحمه الله تعالى وغيره.

النوع الخامس: في آيات تتضمن إقسامه تعالى على تحقيق رسالته، وثبوت ما أوحى إليه من آياته، وعلو رتبته الرفيعة، ومكانته.

وفيه خمسة فصول:

الفصل الأول: في قسمه تعالى على ما خصه به من الخلق العظيم والفضل العميم.

قال الله تعالى: ﴿**ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾[القلم: 1-4]. قيل إن «ن» لوح من نور، تكتب فيه الملائكة ما يأمرهم به الله. ولقد سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلقه صلى الله عليه وسلم فقالت: كان خلقه القرآن. فكان كلامه مطابقًا للقرآن تفصيلًا وتبيينًا، وعلومه علوم القرآن. وإرادته وأعماله ما أوجبه وندب إليه القرآن، وإعراضه وتركه لما منع منه القرآن، ورغبته فيما رغب فيه وزهده فيما زهد فيه، وكراهته لما كرهه، ومحبته لما أحبه، وسعيه في تنفيذ أوامره. فترجمت رضي الله عنها لكمال معرفتها بالقرآن وبالرسول، وحسن تعبيرها عن هذا كله بقولها: كان خلقه القرآن. ولما وصفه تعالى بأنه على خلق عظيم، قال: ﴿**فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بِأَيِّيكُمُ الْمَفْتُونُ**﴾[القلم: 5-6]، أي: فسترى يا محمد، وسيرى المشركون عاقبة أمرك، فإنك تصير معظما ويصيرون أذلاء مغلوبين وتستولي عليهم.

الفصل الثاني: في قسمه تعالى على ما أنعم به عليه وأظهره من قدره العلي لديه.

قال تعالى: ﴿**وَالضُّحى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى**﴾[الضحى: 1-3]. تأمل مطابقة هذا القسم، وهو نور الضحى الذي

يوافي بعد ظلام الليل للمقسم عليه، وهو نور الوحي الذي وافاه ﷺ بعد احتباسه عنه، حتى قال أعداؤه: «ودع محمد ربه». فنفى سبحانه أن يكون ودع نبيه أو قلاه. فالتوديع: الترك، والقلى: البغض. أي: ما تركك منذ اعتنى بك، ولا أبغضك منذ أحبك. ﴿**وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى**﴾[الضحى:4]. هذا يعم أحواله ﷺ، ويدل على أن كل حالة يرقيه إليها هي خير له مما قبلها، كما أن الدار الآخرة هي خير له مما قبلها. ثم وعده ﷺ بما تقر به عينه وينشرح به صدره، وهو أن يعطيه فيرضى. وهذا يعم ما يعطيه من القرآن والهدى، ونشر دعوته، وإعلاء كلمته على أعدائه في مدة حياته وأيام خلفائه ومن بعدهم، وما يعطيه في موقف القيامة من الشفاعة، والمقام المحمود، وما يعطيه في الجنة من الوسيلة، والدرجة الرفيعة، والكوثر. وبالجملة، فقد دلت هذه الآية على أنه تعالى يعطيه عليه الصلاة والسلام كل ما يرضيه. ثم ذكره سبحانه بنعمه عليه، وأمره أن يقابلها بما يليق بها من الشكر، فقال تعالى: ﴿**أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى**﴾[الضحى:6] إلى آخر السورة.

الفصل الثالث: في قسمه تعالى على تصديقه وتنزيهه عن الهوى في نطقه.

قال تعالى: ﴿**وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى**﴾[النجم:1-3]. أقسم تعالى بالنجم على براءة رسوله مما نسبه إليه أعداؤه من الضلال والغي. قال ابن عباس: أقسم بالثريا إذا سقطت وغابت. وتأمل قوله تعالى: ﴿**ا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ**﴾[النجم:2] ولم يقل «محمد»، تأكيدًا لإقامة الحجة عليهم بأنه صاحبهم، وهم أعلم الخلق به وبحاله وأقواله وأعماله، وأنهم لا يعرفونه بكذب ولا

غي ولا ضلال، ولا ينقمون عليه أمرًا واحدًا. وقد نبه تعالى على هذا المعنى بقوله عز وجل: ﴿**أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ**﴾[المؤمنون:69]. ثم نزه نطق رسوله ﷺ عن أن يصدر عن هوى، فقال تعالى: ﴿**وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى**﴾[النجم:3-4]. وذكر الأوزاعي عن حسان بن عطية، قال: كان جبريل ينزل على رسول الله ﷺ بالسنة كما ينزل عليه بالقرآن يعلمه إياها.

ثم أخبر تعالى عن وصف من علمه ﷺ الوحي والقرآن فقال: ﴿**عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى**﴾[النجم:5] وهو جبريل، ولا شك أن مدح المعلم مدح للمتعلم. وهذا نظير قوله تعالى: ﴿**ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ**﴾[التكوير:20]. ثم قال تعالى: ﴿**فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى * مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى**﴾[النجم:10-11]، فأخبر سبحانه عن تصديق فؤاده ﷺ لما رأته عيناه، وأن القلب صدق العين. وليس كمن رأى شيئًا على خلاف ما هو به فكذب فؤاده بصره، بل ما رآه ببصره صدقه الفؤاد وعلم أنه كذلك. وقال تعالى: ﴿**فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِ الْكُنَّسِ**﴾[التكوير:15-16] إلى قوله: ﴿**وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ**﴾[التكوير:25]. أي: لا أقسم إذ الأمر أوضح من أن يحتاج إلى قسم. وفيه أقوال أخرى، أنه أي القرآن قول رسول كريم، وهو هنا جبريل. وأما الرسول الكريم في سورة الحاقة فهو محمد ﷺ، فأضافه إلى الرسول الملكي تارة، وإلى البشري أخرى، وإضافته إليهما إضافة تبليغ لا إضافة إنشاء من عندهما. ولفظ الرسول يدل على ذلك، فإن الرسول هو الذي يبلغ كلام من أرسله، فهذا صريح في أنه كلام من أرسل جبريل ومحمد ﷺ. فجبريل تلقاه عن الله، ومحمد ﷺ تلقاه

عن جبريل. وقد وصف الله تعالى رسوله الملكي في هذه السورة بأنه كريم يعطي أفضل العطايا وهي العلم والمعرفة والهداية والبر والإرشاد، وهذا غاية الكرم. ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾[التكوير:20] كما قال في النجم: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾[النجم:5] فيمنع بقوته الشياطين أن يدنوا منه أو يزيدوا فيه أو ينقصوا منه. وروي أنه رفع قريات قوم لوط الأربع على قوادم جناحه حتى سمع أهل السماء يباح كلابها وأصوات بنيها. ﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾[التكوير:20] أي متمكن المنزلة. وهذه العندية عندية الإكرام والتشريف والتعظيم. ﴿مُطَاعٍ﴾[التكوير:21] في ملائكة الله تعالى المقربين يصدرون عن أمره ويرجعون إلى رأيه. ثم هناك أمين على وحي الله رسالته، فقد عصمه الله من الخيانة والزلل. فهذه خمس صفات تتضمن تزكية سند القرآن، وأنه سماع محمد ﷺ من جبريل وسماع جبريل من رب العالمين. فناهيك بهذا السند علوًا وجلالة، فقد تولى الله تزكيته بنفسه. ثم نزه رسوله البشري ﷺ وزكاه مما يقول فيه أعداؤه، فقال: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾[التكوير:22] وهذا أمر يعلمونه ولا يشكون فيه. وإن قالوا بألسنتهم خلافه، فهم يعلمون أنهم كاذبون. ثم أخبر عن رؤيته ﷺ لجبريل عليه الصلاة والسلام بقوله: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾[التكوير:23]، وهذا يتضمن أنه ملك موجود في الخارج، يرى بالعيان ويدرك بالبصر. ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾[التكوير:24]، قال ابن عباس: ليس ببخيل بما أنزل الله. وأجمع المفسرون على أن الغيب هنا القرآن والوحي. وقُرِئ ﴿بِظَنِينٍ﴾[التكوير:24] ومعناه المنهم، والمعنى: وما هذا الرسول، وهو محمد ﷺ، على القرآن بمنهم بل هو أمين فيه، لا يزيد فيه ولا

ينقص منه. وقال تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾[الحاقة:38-40] الآية. أقسم تعالى بالأشياء كلها: ما يبصر منها وما لا يبصر. وهذا أعم قسم وقع في القرآن، فإنه يعم العلويات والسفليات والدنيا والآخرة، وما يرى وما لا يرى. فذلك كله دليل على صدق رسوله ﷺ، وأن ما جاء به هو من عند الله تعالى، وأنه حق ثابت، كما أن سائر الموجودات، ما يرى منها وما لا يرى، حق، كما قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾[الذاريات:23]. فكأنه سبحانه وتعالى يقول: إنه حق كما أن ما تشاهدونه من الخلق وما لا تشاهدونه حق موجود. ويكفي الإنسان من جميع ما يبصره وما لا يبصره نفسه، ومبدأ خلقه ونشأته، وما يشاهده من أحواله ظاهرًا وباطنًا. ففي ذلك أبين دلالة على وحدانية الرب، وثبوت صفاته، وصدق ما أخبر به رسوله ﷺ. ومن لم يباشر قلبه ذلك حقيقة، لم تخالط بشاشة الإيمان قلبه. ثم أقام سبحانه البرهان القاطع على صدق رسوله، وأنه لم يتقول عليه فيما قاله، وأنه لو تقول عليه وافترى لما أقره ولعاجله بالإهلاك. فإن كمال علمه وقدرته وحكمته يأبى أن يقر من تقول عليه وافترى عليه وأضل عباده، واستباح دماء من كذبه وحريمهم وأموالهم. فكيف يليق بأحكم الحاكمين وأقدر القادرين أن يقر على ذلك؟ بل كيف يليق به أن يؤيده وينصره ويعليه ويظهره ويظفره بهم فيسفك دماءهم ويستبيح أموالهم وأولادهم وبلادهم ونساءهم قائلًا إن الله أمرني بذلك وأباحه لي؟ بل كيف يليق به أن يصدقه بأنواع التصديق كلها، فيصدقه بإقراره وبالآيات المستلزمة لصدقه، ثم يصدقه بأنواعها كلها

على اختلافها. فكل آية على انفرادها مصدقة له، ثم يقيم الدلائل القاطعة على أن هذا قوله وكلامه فيشهد له بإقراره وفعله وقوله. فمن أعظم المحال وأبطل الباطل وأبين البهتان أن يجوز على أحكم الحاكمين أن يفعل ذلك. والمراد بالرسول الكريم هنا محمد ﷺ.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ**﴾[الواقعة:75-79]، قيل هو اللوح المحفوظ، وقيل الكتاب الذي بأيدي الملائكة، وقيل المصحف، ورجحه ابن الرفعة.

الفصل الرابع: في قسمه تعالى على تحقيق رسالته ﷺ

قال الله تعالى: ﴿**يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾[يس:1-4] الآية. قال ابن الحنفية: يا محمد. وعن ابن عباس أنه قسم أقسم الله تعالى به، وهو من أسمائه. ثم قال: ﴿**وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ**﴾[يس:2-3]، وهو رد على الكفار حيث قالوا لست مرسلا فأقسم الله باسمه وكتابه إنه ﷺ لمن المرسلين بوحيه إلى عباده وعلى طريق مستقيم من إيمانه أي طريق لا اعوجاج فيه ولا عدول عن الحق قال النقاس لم يقسم الله تعالى لأحد من أنبيائه بالرسالة في كتابه إلا له ﷺ.

الفصل الخامس: في قسمه بحياته ﷺ وعصره وبلده

قال الله تعالى: ﴿**لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ**﴾[الحجر:72]. العمر هو العمر، ويُفتح في القسم، و«يعمهون» تعني يتحيرون. وفي المخاطب قولان: أحدهما أن الملائكة قالته للوط عليه الصلاة والسلام، والثاني أن الخطاب لرسول الله ﷺ، وأنه تعالى أقسم

بحياته. وفي هذا تشريف عظيم ومقام رفيع وجاه عريض. قال ابن عباس: «ما خلق الله، وما ذرأ، وما برأ نفسًا أكرم عليه من محمد ﷺ، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره.» قال الله تعالى: ﴿**لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ**﴾[الحجر:72]، يقول: «وحياتك وعمرك وبقائك في الدنيا، إنهم لفي سكرتهم يعمهون.» رواه ابن جرير، ورواه البغوي في تفسيره بلفظ: «وما أقسم الله بحياة أحد إلا بحياته ﷺ، وما أقسم بحياة أحد غيره.» وذلك يدل على أنه أكرم خلق الله على الله.

وقال تعالى: ﴿**لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ**﴾[البلد:1–2]. الآية: أقسم تعالى بالبلد الأمين، وهو مكة أم القرى، وهو بلده عليه الصلاة والسلام، وقيده بحلوله فيه إظهارًا لمزيد فضله، وإشعارًا بأن شرف المكان بشرف أهله، قاله البيضاوي. ثم أقسم بالوالد وما ولد، وهو فيما قيل: إبراهيم وإسماعيل وما ولد محمد ﷺ. وقوله: «وأنت حل بهذا البلد» هو من الحلول، فيتضمن إقسامه تعالى ببلده المشتمل على عبده ورسوله. فهو خير البقاع واشتمل على خير العباد. فقد جعل الله تعالى بيته هدى للناس، ونبيه إمامًا وهادِيًا لهم، وذلك من أعظم نعمه وإحسانه إلى خلقه. ولا يخفى ما في قسمه تعالى ببلد رسول الله ﷺ من زيادة التعظيم. وقد روي أن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال للنبي ﷺ: «بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لقد بلغ من فضيلتك عند الله أن أقسم بحياتك دون سائر الأنبياء، ولقد بلغ من فضيلتك عنده أن أقسم ببلدك.» فقال: ﴿**لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ**﴾[البلد:1]. قيل مكة، وقيل المدينة.

وقال تعالى: ﴿**وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ**﴾[العصر:1-2]. وفي تفسير الفخر الرازي، والبيضاوي وغيرهما، أنه أقسم بزمان الرسول ﷺ. قال الإمام الرازي: «واحتجوا له بقوله ﷺ: (إنما مثلكم ومثل من كان قبلكم مثل رجل استأجر أجراء فقال: من يعمل من الفجر إلى الظهر بقيراط، فعملت اليهود، ثم قال: من يعمل من الظهر إلى العصر بقيراط، فعملت النصارى، ثم قال: من يعمل من العصر إلى المغرب بقيراطين، فعملتم، فغضبت اليهود والنصارى وقالوا: نحن أكثر عملًا وأقل أجرًا، فقال الله تعالى: وهل نقصتكم من أجركم شيئًا؟ قالوا: لا، قال: فذلك فضلي أوتيه من أشاء، فكنتم أقل عملًا وأكثر أجرًا.)» رواه البخاري. قالوا: «فهذا الحديث دل على أن العصر هو عصره ﷺ الذي هو فيه، فيكون على هذا أقسم تعالى بزمانه في هذه الآية، وبمكانه في قوله تعالى: ﴿**وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ**﴾[البلد:2]، وبعمره في قوله: ﴿**لَعَمْرُكَ**﴾[الحجر:72]. وذلك كله كالظرف، فكيف حال المظروف؟» قال: «ووجه القسم كأنه تعالى قال: ما أعظم خسرانهم إذ أعرضوا عنك، فانظر شدة اعتناء الحق سبحانه وتعالى في شأن نبينا محمد ﷺ، تعلم أنه أحب خلق الله إلى الله.»

النوع السادس: في وصفه تعالى له عليه الصلاة والسلام بالنور والسراج المنير.

فاعلم أن الله تعالى قد وصف رسوله ﷺ بالنور في قوله تعالى: ﴿**قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ**﴾[المائدة:15]. وقيل: المراد القرآن. ووصفه عليه الصلاة والسلام أيضًا بالسراج المنير في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى**

اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾[الأحزاب: 45]. والمراد كونه هاديًا مبينًا كالسراج الذي يري الطريق ويبين الهدى والرشاد. فبيانه أقوى وأنفع من نور الشمس.

وإذا كان كذلك، وجب أن تكون نفسه القدسية أعظم في النورانية من الشمس. فكما أن الشمس في عالم الأجسام تفيد النور لغيرها ولا تستفيد من غيرها، فكذا نفس النبي ﷺ تفيد الأنوار العقلية لسائر الأنفس البشرية. وكذلك وصف الله الشمس بأنها سراج حيث قال: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾[الفرقان: 61].

وكما وصف الله رسوله بأنه نور، وصف نفسه المقدّسة بذلك فقال: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[النور: 35]، فليس فيهما إلا الله ونوره المقدس، وهو سر الوجود والحياة والجمال والكمال، وهو الذي أشرق على العالم فأشرق على العوالم الروحانية وهم الملائكة، فصارت سرجًا منيرة يستمد منها من دونها بجود الله، ثم سرى النور إلى عالم النفوس الإنسانية، ثم طرحته النفوس على صفحات الجسوم.

فليس في الوجود إلا نور الله الساري إلى الشيء منه بقدر قبوله ووسع استعداده ورحب تلقيه. وقوله: «مثل نوره» أي مثل هداه سبحانه وتعالى. وعن مقاتل، قال: مثل الإيمان في قلب محمد ﷺ، كمشكاة فيها مصباح، فالمشكاة نظير صلب عبد الله، والزجاجة نظير جسد محمد ﷺ، والمصباح نظير الإيمان والنبوة في قلب محمد ﷺ. وعن غيره: المشكاة نظير إبراهيم، والزجاجة نظير إسماعيل، والمصباح جسد محمد ﷺ، والشجرة النبوة والرسالة.

النوع السابع: في آيات تتضمن وجوب طاعته واتباع سنته ﷺ.

قال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ**﴾[النساء:59، محمد:33]. وقال الله تعالى: ﴿**وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾[آل عمران:132]. وقال تعالى: ﴿**قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ**﴾[آل عمران:32].

قال القاضي عياض: «فجعل طاعته طاعة رسوله وقرن طاعته بطاعته، ووعد على ذلك بجزيل الثواب، وأوعد على مخالفته بسوء العقاب.» وقال تعالى: ﴿**مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ**﴾[النساء:80]، يعني من أطاع الرسول لكونه رسولا مبلغا إلى الخلق أحكام الله، فهو في الحقيقة ما أطاع إلا الله. وذلك في الحقيقة لا يكون إلا بتوفيق الله. ﴿**وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا**﴾[النساء:80]، فإن من أعماه الله عن الرشد وأضله عن الطريق، فإن أحدًا من خلق الله لا يقدر على إرشاده. وهذه الآية من أقوى الأدلة على أن الرسول معصوم في جميع الأوامر والنواهي، وفي كل ما يبلغه عن الله؛ لأنه لو أخطأ في شيء منها، لم تكن طاعته طاعة لله تعالى. وأيضا، وجب أن يكون معصومًا في جميع أفعاله؛ لأنه تعالى أمر بمتابعته في قوله: ﴿**وَاتَّبِعُوهُ**﴾[الأعراف:158]، والمتابعة عبارة عن الإتيان بمثل فعل الغير، فثبت أن الانقياد له في جميع أقواله وأفعاله، إلا ما حصه الدليل به، طاعة له وانقياد لحكم الله تعالى. قال الله تعالى: ﴿**وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ**﴾[النساء:69]، الآية. وهذا عام في المطيعين لله من أصحاب الرسول ومن بعدهم.

وقد ذكروا في سبب نزول هذه الآية أن ثوبان مولى رسول الله ﷺ كان شديد الحب لرسول الله ﷺ، قليل الصبر عنه. فأتاه يومًا وقد تغير وجهه ونحل جسمه وعرف الحزن في وجهه، فسأله رسول الله ﷺ عن حاله، فقال: «يا رسول الله، ما بي وجع غير أني إذا لم أرك اشتقتك واستوحشت وحشة عظيمة حتى ألقاك، فذكرت الآخرة بحيث لا أراك هناك، لأني إن دخلت الجنة فأنت تكون في درجات النبيين، وإن أنا لم أدخل الجنة فحينئذ لا أراك أبدا.» فنزلت هذه الآية. وذكر ابن أبي حاتم عن مسروق قال: «أصحاب محمد ﷺ قالوا يا رسول الله ما ينبغي لنا أن نفارقك فإنك لو قدمت لرفعت فوقنا ولم نرك، فأنزل الله الآية.» وذكر عن عكرمة مرسلا قال: «أتى فتى للنبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إن لنا منك نظرة في الدنيا، ويوم القيامة لا نراك، فإنك في الجنة في الدرجات العلى.» فأنزل الله هذه الآية، فقال له رسول الله ﷺ: «أنت معي في الجنة.»

قال المحققون: «لا تنكر صحة هذه الروايات، إلا أن سبب نزول هذه الآية يجب أن يكون شيئًا أعظم من ذلك، وهو الحث على الطاعة والترغيب فيها. فإنا نعلم أن خصوص السبب لا يقدح في عموم اللفظ. فهذه الآية عامة في حق جميع المكلفين، وهو أن كل من أطاع الله وأطاع الرسول فقد فاز بالدرجات العالية في المراتب الشريفة عنده تعالى. وقد ثبت وصح عنه ﷺ أنه قال: «المرء مع من أحب». وثبت عنه أيضًا عليه الصلاة والسلام أنه قال: «إن بالمدينة أقوامًا ما سرتم مسيرًا، ولا نزلتم منزلًا إلا وهم معكم حبسهم العذر».

وقال تعالى: ﴿**قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ**

لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[آل عمران:31]. وهذه الآية الشريفة تسمى آية المحبة، قال بعض السلف: «ادعى قوم محبة الله فأنزل الله هذه الآية إشارة إلى دليل المحبة وثمرتها وفائدتها». فدليلها وعلامتها اتباع الرسول، وفائدتها وثمرتها محبة المرسل لكم. فما لم تحصل المتابعة، فلا محبة لكم حاصلة، ومحبته لكم منتفية، ويستحيل ثبوت محبتهم لله وثبوت محبة الله لهم بدون المتابعة لرسوله ﷺ. فدل على أن متابعة الرسول هي حب الله ورسوله وطاعة أمره. ولا يكفي ذلك في العبودية حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما. ومتى كان شيء عنده أحب إليه منهما، فهذا هو الشرك الذي لا يغفر لصاحبه البتة، ولا يهديه الله. قال الله تعالى: **﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾**[التوبة:24]. فكل من قدم طاعة أحد من هؤلاء على طاعة الله ورسوله، أو قول أحد منهم على قول الله ورسوله، أو مرضاة أحد منهم على مرضاة الله ورسوله، أو خوف أحد منهم أو رجاءه أو التوكل عليه على خوف الله ورجاءه والتوكل عليه، أو معاملة أحد منهم على معاملة الله ورسوله، فهو ممن ليس الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وإن قال بلسانه، فهو كذب منه وإخبار بما ليس هو عليه. انتهى ملخصًا من كتاب «مدارج السالكين». وقال تعالى: **﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾**[الأعراف:158] أي إلى الصراط المستقيم.

فجعل رجاء الاهتداء أثر الأمرين: الإيمان بالرسول واتباعه، تنبيهًا على أن من صدقه ولم يتابعه بالتزام شرعه فهو في الضلالة. فكل ما أتى به الرسول عليه الصلاة والسلام يجب علينا اتباعه إلا ما خصه الدليل به. وقال تعالى: ﴿**فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا**﴾[التغابن:8] يعني القرآن. فالإيمان به ﷺ واجب متعين على كل أحد، لا يتم إيمان إلا به، ولا يصح إسلام إلا معه. قال تعالى: ﴿**وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا**﴾[الفتح:13] أي ومن لم يؤمن بالله ورسوله فهو من الكافرين. وقال تعالى: ﴿**فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ**﴾[النساء:65]، الآية. معناها: فوربك ولا مزيدة للتأكيد لمعنى القسم، ولا يؤمنون جواب القسم. أقسم الله تعالى بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتى يحكم الرسول في جميع أموره، ويرضى بجميع ما حكم به، وينقاد له ظاهرا وباطنا، سواء كان الحكم بما يوافق أهواءهم أو يخالفها. كما ورد في الحديث: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به». وهذا يدل على أن من لم يرض بحكم الرسول ﷺ لا يكون مؤمنًا، وعلى أنه لا بد من حصول الرضا بحكمه في القلب، وذلك بأن يحصل الجزم والتيقن في القلب بأن الذي يحكم به عليه الصلاة والسلام هو الحق والصدق. فلا بد من الانقياد له ﷺ باطنا وظاهرا.

النوع الثامن: فيما يتضمن الأدب معه ﷺ.

قال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ**﴾[الحجرات:1]. قال مجاهد: «لا تفتأتوا على رسول الله ﷺ

بشيء حتى يقضيه الله تعالى على لسانه». وانظر أدب الصديق ﵁ معه عليه الصلاة والسلام في الصلاة، حيث قال: «ما كان لابن أبي قحافة أن يتقدم بين يدي رسول الله ﷺ، وكيف أورثه الله مقامه والإمامة بعده». وقال الضحاك: «لا تقضوا أمرًا دون رسول الله ﷺ». وقال غيره: «لا تأمروا حتى يأمر، ولا تنهوا حتى ينهى». فمن الأدب أن لا يتقدم بين يديه بأمر ولا نهي ولا إذن ولا تصرف حتى يأمر هو، وينهى، ويأذن كما أمر الله تعالى بذلك في هذه الآية. وهذا باق إلى يوم القيامة لم ينسخ. فالتقدم بين يدي سنته بعد وفاته كالتقدم بين يديه في حياته، لا فرق بينهما عند ذي عقل سليم. ومن الأدب معه ﷺ أن لا ترفع الأصوات فوق صوته، كما قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ**﴾[الحجرات:2]. قال الرازي: «أفاد أنه ينبغي أن لا يتكلم المؤمن عنده ﷺ كما يتكلم العبد عند سيده، بل يكون صوته دون صوته مع سيده». وإذا كان رفع الأصوات فوق صوته ﷺ موجبًا لحبوط الأعمال، فما الظن برفع الآراء ونتائج الأفكار على سنته وما جاء به ﷺ؟! وروي أن أبا بكر لما نزلت هذه الآية قال: «والله يا رسول الله لا أكلمك إلا كأخي السرار»، أي الكلام الخفي الذي يراد كتمه. وأن عمر ﵁ كان إذا حدثه، حدثه كأخي السرار، ما كان يسمع النبي ﷺ حديثه بعد هذه الآية حتى يستفهمه. وروي أن أبا جعفر أمير المؤمنين ناظر مالكًا في مسجد رسول الله ﷺ، فقال له مالك: «يا أمير المؤمنين، لا ترفع صوتك في هذا المسجد، فإن الله عز وجل

أدب قومًا فقال: ﴿**لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ**﴾[الحجرات:2]، ومدح قومًا فقال: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ**﴾[الحجرات:3]، الآية، وذم قومًا فقال: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ**﴾[الحجرات:4]، الآية. وإن حرمته ميتًا كحرمته حيًا. فاستكان لها أبو جعفر».

ومن الأدب معه ﷺ أن لا يجعل دعاؤه كدعاء بعضنا بعضًا، قال تعالى: «لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضًا». وفيه قولان للمفسرين: أحدهما: لا تدعوه باسمه كما يدعو بعضكم بعضًا، بل قولوا: «يا رسول الله، يا نبي الله» مع التوقير والتواضع. الثاني: أن المعنى لا تجعلوا دعاءه لكم بمنزلة دعاء بعضكم بعضًا، إن شاء المدعو أجاب، وإن شاء ترك. بل إذا دعاكم لم يكن لكم بد من إجابته، ولم يسعكم التخلف عنها البتة. فإن المبادرة إلى إجابته واجبة، والمراجعة بغير إذنه محرمة.

ومن الأدب معه ﷺ أنهم إذا كانوا معه على أمر جامع من خطبة أو جهاد أو رباط لم يذهب أحد في حاجة له حتى يستأذنه، كما قال الله تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ**﴾[النور:62]. ومن الأدب معه ﷺ أنه لا يستشكل قوله، بل تستشكل الأرام بقوله، ولا يعارض نصه بقياس. بل تهدر الأقيسة وتلقى لنصوصه، ولا يحرف كلامه عن حقيقته لخيال مخالف تسميه أصحابه معقولًا. نعم، هو مجهول، وعن الصواب معزول. ولا يتوقف قبول ما جاء به على موافقة أحد، فكل هذا من قلة الأدب معه، وهو عين الجرأة عليه ﷺ.

ورأس الأدب معه ﷺ كمال التسليم له، والانقياد لأمره، وتلقي خبره بالقبول والتصديق دون أن يحمله معارضة خيال باطل على أن يقدم عليه آراء الرجال. فيوحد التحكيم والتسليم والانقياد للرسول كما وحد المرسل بالعبادة، فهما توحيدان لا نجاة إلا بهما. والقرآن مملوء بالآيات المرشدة إلى الأدب معه ﷺ.

النوع التاسع: في آيات تتضمن رده تعالى بنفسه المقدسة على عدوه ﷺ ترفيعًا لشأنه.

قال الله تعالى: ﴿**نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ**﴾[القلم:2]، لما قال المشركون: ﴿**وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ**﴾[الحجر:6]، أجاب تعالى عنه عدوه بنفسه من غير واسطة. وهكذا سنة الأحباب، فإن الحبيب إذا سمع من يسب حبيبه تولى بنفسه جوابه. فهنا تولى الحق سبحانه وتعالى جوابهم بنفسه منتصرًا له، لأن نصرته تعالى له أنفع من نصرته وأرفع لمنزلته. فأقسم تعالى بما أقسم به من عظيم آياته على تنزيه رسوله مما افترى به عليه أعداؤه الكفرة، وتكذيبهم له بقوله: ﴿**مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ**﴾[القلم:2]. وسيعلم أعداؤه المكذبون له أيهم المفتون هو أو هم في الدنيا، ويزداد علمهم به في البرزخ، وينكشف ويظهر كل الظهور في الآخرة بحيث يتساوى الخلق كلهم في العلم به ﷺ.

وقال تعالى: ﴿**وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ**﴾[التكوير:22]. لما رأى العاصي بن وائل السهمي النبي ﷺ يخرج من المسجد وهو يدخل، فالتقيا عند باب بني سهم، وتحدّثا، وأناس من صناديد قريش جلوس في المسجد. فلما دخل العاصي قالوا: من ذا الذي كنت تحدث معه؟

قال: «ذلك الأبتر»، يعني النبي ﷺ، وكان قد توفي ابن لرسول الله ﷺ من خديجة. فرد الله تعالى عليه وتولى جوابه بقوله: ﴿**إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ**﴾[الكوثر:3]، أي: عدوك ومبغضك هو الدليل الحقير.

ولما قالوا: ﴿**افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا**﴾[الأنعام:21] وغيرها، قال تعالى: ﴿**بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ**﴾[سبأ:8]. ولما قالوا: ﴿**لَسْتَ مُرْسَلًا**﴾[الرعد:43]، أجاب الله تعالى عنه فقال: ﴿**يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ**﴾[يس:1-3]. ولما قالوا: ﴿**أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ**﴾[الصافات:36]، رد الله تعالى عليهم فقال: ﴿**بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ**﴾[الصافات:37]. فصدقه ثم ذكر وعيد خصمائه فقال: ﴿**إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ**﴾[الصافات:38]. ولما قالوا: ﴿**أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ**﴾[الطور:30]، رد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿**وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ**﴾[يس:69].

ولما تحدثوا عن قوله: ﴿**إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ**﴾[الفرقان:4]، كذبهم الله تعالى بقوله: ﴿**فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا**﴾[الفرقان:4]. وقال ردا على قولهم أساطير الأولين: ﴿**قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾[الفرقان:6]. ولما قالوا: يلقيه إليه الشيطان، قال الله تعالى: ﴿**وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ**﴾[الشعراء:210] الآية.

ولما تلا عليهم نبأ الأولين، قال النضر بن الحارث: ﴿**لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ**﴾[الأنفال:31]. قال الله تعالى تكذيبًا لهم: ﴿**قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ**

لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[الإسراء:88]. ولما قال الوليد بن المغيرة: **﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾** [المدثر:24-25]، قال الله تعالى: **﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾**[الذاريات:52] تسلية له عليه الصلاة والسلام.

ولما قالوا: «محمد فلاه ربه»، رد الله عليهم بقوله: **﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾**[الضحى:3]. ولما قالوا: **﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾**[الفرقان:7]، قال الله تعالى: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾**[الفرقان:20]. ولما حسدته أعداء الله اليهود على كثرة النكاح والزوجات وقالوا: «ما همته إلا النكاح»، رد الله تعالى عليهم عن رسول ﷺ فقال: **﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾**[النساء:54].

ولما استبعدوا أن يبعث الله رسولًا من البشر، بقولهم الذي حكاه الله تعالى عنهم: **﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾**[الإسراء:94]، وجهلوا أن التجانس يورث الأنس وأن التخالف يورث التباين، قال الله تعالى: **﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾**[الإسراء:95]، أي لو كانوا ملائكة لوجب أن يكون رسولهم من الملائكة. لكن لما كان أهل الأرض من البشر، وجب أن يكون رسولهم من البشر. وقد كانت الأنبياء إنما يدافعون عن أنفسهم ويردون على أعدائهم كقول نوح: **﴿يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾**[الأعراف:61]، وقول هود: **﴿يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ﴾**[الأعراف:67].

النوع العاشر: في إزالة الشبهات عن آيات وردت في حقه عليه الصلاة والسلام متشابهات. قال الله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾[الضحى:7].

اعلم أنه قد اتفق العلماء على أنه ﷺ ما ضل لحظة واحدة قط. قال في «الشفاء»: «والصواب أن الأنبياء معصومون قبل النبوة من الجهل بالله وصفاته والتشكيك في شيء من ذلك». وقد تعاضدت الأخبار والآثار عن الأنبياء بتنزيههم عن هذه النقيصة منذ ولدوا، ونشأتهم على التوحيد والإيمان، بل على إشراق أنوار المعارف ونفحات ألطاف السعادة. ولم يُنقل عن أحد من أهل الأخبار أن أحدًا من الأنبياء وُصف بالكفر والإشراك قبل ذلك. ومستند هذا الباب هو النقل.

واختلف في تفسير هذه الآية، قال ابن عباس وجماعة: «وجدك ضالا عن معالم النبوة»، ويؤيده قوله تعالى: **﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾**[الشورى:52]، أي: لم تكن تدري قبل الوحي كيف تقرأ القرآن، ولا كيف تدعو الخلق إلى الإيمان، كما قاله السمرقندي. وقال بكر القاضي: «ولا الإيمان الذي هو الفرائض والأحكام»، وقد كان عليه الصلاة والسلام قبل مؤمنًا بتوحيده، ثم نزلت الفرائض التي لم يكن يدريها قبل فازداد بالتكليف إيمانًا. وذكر الإمام فخر الدين أنه ﷺ قال: «ضَلَلْتُ عن جَدِّي عبد المطلب وأنا صبي حتى كاد الجوع يقتلني، فهداني الله».

وعن علي رضي الله عنه، أنه ﷺ قال: «ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يعملون به غير مرتين، كل ذلك يحول الله بيني وبين ما أريد، ثم ما هممت بعدهما بشيء حتى أكرمني الله برسالته». قلت

ليلة لغلام من قريش كان يرعى غنمًا بأعلى مكة: «لو حفظت لي غنمي حتى أدخل مكة فأسمر بها كما يسمر الشباب». فخرجت حتى أتيت أول دار من دور أهل مكة، سمعت عزفًا بالدفوف والمزامير، فجلست أنظر إليهم، وضرب الله على أذني، فمات فما أيقظني إلا مس الشمس. ثم قلت ليلة أخرى مثل ذلك، فضرب الله على أذني فما أيقظني إلا مس الشمس. ثم ما هممت بعدهما بسوء حتى أكرمني الله برسالته.

وأما قوله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾ [الشرح:2-3] فقد اختلف في تفسيره. فقيل: المراد منه تخفيف أعباء النبوة التي تثقل الظهر القيام بأمرها وحفظ موجباتها والمحافظة على حقوقها. فسهل الله ذلك عليه وحط عنه ثقله، بأن يسرها عليه حتى تيسرت له. وقيل: الوزر ما كان يكرهه من تغيرهم لسنة الخليل عليه السلام، وكان لا يقدر على منعهم إلى أن قواه الله تعالى وقال له: «اتبع ملة إبراهيم». ومعنى «أنقض» أي: أعيى وأثقل.

وأما قوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح:2] فقال ابن عباس: «أي إنك مغفور لك غير مؤاخذ بذنب إن لو كان». وقيل: المراد أمته ﷺ. وقيل: المراد بالذنب ترك الأولى، كما قيل: «حسنات الأبرار سيئات المقربين». وقال السبكي: «قد تأملتهما، يعني الآية مع ما قبلها وما بعدها، فوجدتها لا تحتمل إلا وجهًا واحدًا وهو تشريف النبي ﷺ من غير أن يكون هناك ذنب».

وقد سبقه ابن عطية فقال: «وإنما المعنى التشريف بهذا الحكم، ولم تكن له ذنوب البتة، وكيف يتخيل خلاف ذلك؟». وأحواله عليه

السلام منقسمة إلى قول وفعل. أما القول، فقال تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾[النجم:3-4]. وأما الفعل، فإجماع الصحابة على اتباعه والتأسّي به في كل ما يفعله، من قليل أو كثير، صغير أو كبير. ولم يكن عندهم في ذلك توقف ولا بحث، حتى أعماله في السر والخلوة يحرصون على العلم بها وعلى اتباعها، علموا بها أو لم يعلموا.

ومن تأمل أحوال الصحابة معه ﷺ استحى من الله أن يخطر بباله خلاف ذلك. وأما قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾[الأحزاب:1] فإنما أمره الله تعالى بتقوى توجب استدامة الحضور، وقيل: المراد: «دم على التقوى». وقيل: الخطاب مع النبي ﷺ، والمراد أمته، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾[النساء:94] ولم يقل «بما تعمل».

وأما قوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾[القلم:8] فاعلم أنه تعالى لما ذكر ما عليه الكفار في أمره ﷺ ويسبّبونه له مما نسبوه إليه مع ما أنعم الله به عليه من الكمال في أمر الدين والخلق العظيم، أتبعه بما يقوي قلبه ويدعوه إلى التسديد مع قومه، ويقوي قلبه بذلك مع قلة العدد وكثرة الكفار. فإن هذه السورة من أوائل ما نزل، فقال: ﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾، والمراد رؤساء الكفار من أهل مكة. وذلك أنهم دعوه إلى دينهم فنهاه الله أن يطيعهم، وهذا من الله تهديد للتشديد في مخالفتهم.

وأما قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾[يونس:94] الآية، فقال قوم: المخاطب به غير النبي ﷺ، وقال آخرون: المخاطب به النبي عليه الصلاة والسلام في

الظاهر، والمراد غيره، كقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ**﴾[الطلاق:1]، وأمثاله كثيرة. أو يكون على سبيل الفرض والتقدير، لا إمكان وقوع الشك له. ولذلك قال ﷺ: «والله لا أشك ولا أسأل».

وأما قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ**﴾[الأنعام:114]، أي: في أنهم لا يعلمون ذلك.

وأما قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ**﴾[الأنعام:35] فقد أمره الله بالتزام الصبر على إعراض قومه، وأن لا يضيق صدره عند ذلك فيقارب حال الجاهل بشدة التحسر. وقيل: الخطاب لأمته عليه الصلاة والسلام، أي فلا تكونوا من الجاهلين. ومثله في القرآن كثير.

وكذلك قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ**﴾[الأنعام:116]، فالمراد غيره كما قال: ﴿**إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾[آل عمران:149]. وقوله تعالى: ﴿**فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ**﴾[الشورى:24]، ﴿**لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ**﴾[الزمر:65] وما أشبه ذلك، فالمراد غيره ﷺ.

وأما قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ**﴾[يوسف:3]، فليس بمعنى قوله: ﴿**وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ**﴾[يونس:7]، وإنما المعنى: لمن الغافلين عن قصة يوسف عليه السلام، إذ لم تخطر ببالك ولم تقرع سمعك قط، فلم تعلمها إلا بوحي منا.

وأما قوله تعالى: ﴿**وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ**﴾[الأعراف:200] الآية، فمعناه: يستحفنك بغضب، ويحملك على ترك الإعراض عنهم. والنزع أدنى حركة تكون كما قاله الزجاج.

وأما قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾[الحج:52] الآية، فأحسن ما قيل فيها ما عليه جمهور المفسرين: أن التمني المراد به هنا التلاوة، وإلقاء الشيطان فيها، إشغاله بخواطر وأذكار من أمور الدنيا للتالي حتى يدخل عليه الوهم والنسيان فيما تلاه أو يدخل غير ذلك على سامعيه من التحريف وسوء التأويل، ما يزيله الله وينسخه ويكشف لبسه ويحكم آياته.

وأما قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾[عبس:1-2] الآيات، فليس فيها إثبات ذنب له عليه الصلاة والسلام. وفعل النبي ﷺ لما فعل، وتصديه لذلك الكافر كان طاعة لله وتبليغًا عنه واستتلافًا له كما شرعه الله، لا معصية ولا مخالفة له تعالى. وما قصه الله عليه من ذلك إعلام بحال الرجلين وتوهين أمر الكافر عنده، والإشارة إلى الإعراض عنه بقوله: ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى﴾[عبس:7]، أي: ليس عليك بأس في أن لا يتزكى بالإسلام، أي: لا يبلغن بك الحرص على إسلامهم أن تعرض عمن أسلم بالاشتغال بدعوتهم. إن عليك إلا البلاغ.

وأما قوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾[التوبة:43] الآية، فروى ابن أبي حاتم عن مسعر عن عون قال: هل سمعتم بمعاتبة أحسن من هذا؟ بدأ بالعفو قبل المعاتبة. وكذا قال غيره. وقال قتادة: عاتبه الله كما تسمعون، ثم أنزل التي في سورة النور، فرخص له في أن يأذن لهم إن شاء، فقال تعالى: ﴿فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ﴾[النور:62]. ففوض الأمر إلى رأيه عليه الصلاة والسلام.

وقال عمرو بن ميمون: «اثنتان فعلهما الرسول ﷺ لم يؤمر فيهما بشيء: إذنه للمنافقين، وأخذه الفداء من الأسرى.» فعاتبه الله كما تسمعون. وذلك يدل على مبالغة الله تعالى في توقيره وتعظيمه، كما يقول الرجل لغيره إذا كان عظيمًا عنده: «عفا الله عنك، ما جوابك عن كلامي، وعافاك الله! ألا عرفت حقي؟» فلا يكون غرضه من هذا الكلام إلا زيادة التبجيل والتعظيم.

وأما الجواب عن قوله تعالى: ﴿لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾[التوبة:43] فذهب بعض إلى أن النبي ﷺ معاتب بهذه الآية، وحاشا من ذلك! بل كان ﷺ مخيرًا. فلما أذن لهم، أعلمه الله أنه لو لم يأذن لهم لقعدوا ليفاقهم، وأنه لا حرج عليه في الإذن لهم.

وأما قوله تعالى في أسارى بدر: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ إلى قوله: ﴿عَظِيمٌ﴾[الأنفال:67-68]، فروى مسلم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «لما هزم الله المشركين يوم بدر وقتل منهم سبعون وأسر سبعون، استشار النبي ﷺ أبا بكر وعمر وعليًا. فقال أبو بكر: يا نبي الله! هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، وإني أرى أن تأخذ منهم الفدية فيكون ما أخذناه منهم قوة لنا على الكفار، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضدًا.» فقال رسول الله ﷺ: «ما ترى يا ابن الخطاب؟» قال: «قلت: والله ما أرى ما رأى أبو بكر، ولكني أرى أن تمكنني من فلان قريب لعمر فأضرب عنقه، وتمكن عليًّا من عقيل فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من فلان أخيه، يعني العباس، فيضرب عنقه حتى يعلم الله أنه ليس في قلوبنا هوادة (أي ميل) للمشركين.»

فهوي ﷺ ما هوي أبو بكر ولم يهو ما قلت. فأخذ منهم الفداء. فلما كان من الغد، غدوت إلى رسول الله ﷺ فإذا هو قاعد وأبو بكر الصديق وهما يبكيان. فقلت: «يا رسول الله، أخبرني ما يبكيك أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاءً بكيت، وإن لم أجد تباكيت.» فقال النبي ﷺ: «أبكي للذي عرض على أصحابك من الفداء. لقد عرض عليّ عذابكم أدنى من هذه الشجرة» (لشجرة قريبة منه). فأنزل الله تعالى: ﴿**مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ**﴾ إلى قوله: ﴿**عَظِيمٌ**﴾[الأنفال:67–68]. وقوله ﴿**حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ**﴾ أي: يكثر القتل ويبالغ فيه حتى يذل الكفر ويقل حزبه ويعز الإسلام ويستولي أهله. وليس في هذا إلزام ذنب للنبي ﷺ، بل فيه بيان ما خص به وفضل من بين سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. فكأنه تعالى قال: «ما كان هذا لنبي غيرك»، كما قال عليه الصلاة والسلام: «أحلت لي الغنائم ولم تحل لنبي قبلي.»

وأما قوله تعالى: ﴿**تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا**﴾[الأنفال:67] فقيل: المراد بالخطاب من أراد ذلك منهم وتجرد غرضه لعرض الدنيا وحده والاستكثار منها. وليس المراد بهذا النبي ﷺ ولا عليٌّ من أصحابه. بل قد روي عن الضحاك أنها نزلت حين انهزم المشركون يوم بدر واشتغل الناس بالسلب وجمع الغنائم عن القتال حتى خشي عمر أن يعطف عليهم العدو. ثم قال تعالى: ﴿**لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ**﴾[الأنفال:68]. فاختلف المفسرون في معنى هذه الآية. فقيل: معناها: «لولا أنه سبق مني أن لا أعذب أحدًا إلا بعد النهي، لعذبنكم.» فهذا ينفي أن يكون أمر الأسرى معصية. وقيل: «لولا إيمانكم بالقرآن،

وهو الكتاب السابق، فاستوجبتم به الصفح، لعوقبتم على الغنائم.»
وقيل: «لولا أنه سبق في اللوح المحفوظ أنها حلال لكم، لعوقبتم.»
وهذا كله ينفي الذنب والمعصية، لأن من فعل ما أحل له لم يعص.
قال الله تعالى: ﴿**فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا**﴾[الأنفال:69]. قال القاضي بكر بن العلاء: «أخبر الله تعالى نبيه ﷺ في هذه الآية أن تأويله وافق ما كتب له من إحلال الغنائم والفداء.» فهذا كله يدل على أن فعل النبي ﷺ في شأن الأسرى كان على تأويل وبصيرة، فلم ينكره الله عليه. لكن الله تعالى أراد لعظم أمر بدر وكثرة أسراها إظهار نعمته وتأكيد منته بتعريفهم ما كتبه في اللوح المحفوظ من حل ذلك، لا على وجه عتاب أو إنكار.

وأما قوله تعالى: ﴿**وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا * إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا**﴾[الإسراء:74-75]، فالمعنى: لولا أن تبتناك لقررت أن تميل إلى ما أرادوا، لكن أدركتك عصمتنا، فمنعتك أن تقرب، فضلًا عن أن تركن إليهم. وهو صريح في أنه ﷺ ما هم بإجابتهم مع قوة الدواعي إليها. فالعصمة بتوفيق الله وحفظه.

وأما قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ**﴾[الحاقة:44-46]، فالمعنى: «لو افترى علينا بشيء من عند نفسه، لأخذنا منه باليمين، وقطعنا نياط قلبه وأهلكناه.» وقد أعاذه الله من التقول عليه.

وأما قوله تعالى: ﴿**مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ**﴾[الشورى:52]، فقيل: معناه: «ما كنت تدري الإيمان على التفصيل الذي شرع لك

في القرآن.» وقد اشتهر في الحديث أنه ﷺ كان يوحد الله ويبغض الأوثان ويحج ويعتمر. وعن علي رضي الله عنه قال: «قيل للنبي ﷺ: هل عبدت الأوثان؟ قال: لا. قيل: فهل شربت خمرًا قط؟ قال: لا. وما زلت أعرف أن الذي هم عليه كفر.» وما كنت أدري ما الكتاب ولا الإيمان. وقد ورد أن العرب لم يزالوا على بقايا من دين إسماعيل، كحج البيت والختان والغسل من الجنابة. وكان عليه الصلاة والسلام لا يقرب الأوثان ويعيبها، ولا يعرف شرائع الله التي شرعها لعباده على لسانه. فذلك قوله تعالى: ﴿**مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ**﴾[الشورى:52].

المقصد السادس

في وجوب محبته واتباع سنته والاهتداء بهديه، وفرض محبة آله وأصحابه، وحكم الصلاة والتسليم عليه ﷺ، وفيه ثلاثة فصول.

الفصل الأول: في وجوب محبته واتباع سنته والاهتداء بهديه

اعلم أن محبة رسول الله ﷺ هي المنزلة التي يتنافس فيها المتنافسون، وإليها يشخص العاملون، وعليها يتفانى المحبون، وبروح نسيمها يتروح العابدون. فهي قوت القلوب وغذاء الأرواح وقرة العيون، وهي الحياة التي من حرمها فهو من جملة الأموات، والنور الذي من فقده فهو في بحار الظلمات، وهي روح الإيمان والأعمال والأحوال والمقامات.

وإذا كان الإنسان يحب من منحه في دنياه مرة أو مرتين معروفًا فانيًا منقطعًا، أو استنقذه من مهلكة أو مضرة لا تدوم، فما بالك بمن منحه منحًا لا تبيد ولا تزول، ووقاه من العذاب الأليم ما لا يفنى ولا يحول؟ وإذا كان المرء يحب غيره على ما فيه من صورة جميلة وسيرة حميدة، فكيف بهذا النبي الكريم والرسول العظيم، الجامع لمحاسن الأخلاق والتكريم، المانح لنا جوامع المكارم والفضل العميم؟ فقد منحنا الله به منح الدنيا والآخرة، وأسبغ علينا نعمه الباطنة والظاهرة، فاستحق أن يكون حظه من محبتنا له أوفى وأزكى من محبتنا لأنفسنا وأولادنا وأهلينا وأموالنا والناس أجمعين. بل لو كان في منبت كل شعرة منا محبة تامة له، صلوات الله وسلامه عليه، لكان ذلك بعض ما يستحقه علينا... وقد روى أبو هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده

والناس أجمعين»، رواه البخاري. وفي صحيح ابن خزيمة: «من أهله وماله». وفي كلام القاضي عياض أن ذلك شرط في صحة الإيمان؛ لأنه حمل المحبة على معنى التعظيم والإجلال. وقال غيره: «اعتقاد الأعظمية ليس مستلزمًا للمحبة، إذ قد يجد الإنسان إعظام شيء مع خلوه من محبته». فعلى هذا، من لم يجد من نفسه ذلك الميل، لم يكمل إيمانه. وإلى هذا يومي قول عمر ﵁ في الحديث الذي رواه البخاري في الأيمان والنذور، أنه قال للنبي ﷺ: «لأنت يا رسول الله أحب إلي من كل شيء إلا نفسي التي بين جنبي»، فقال النبي ﷺ: «لن يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه». فقال عمر: «والذي أنزل عليك الكتاب، لأنت أحب إلي من نفسي التي بين جنبي». فقال له النبي ﷺ: «الآن يا عمر». فهذه المحبة ليست باعتقاد الأعظمية فقط، فإنها كانت حاصلة لعمر قبل ذلك قطعا.

ومن علامات الحب المذكور لرسول الله ﷺ أن يعرض الإنسان على نفسه أنه لو خير بين فقد غرض من أغراضه وفقد رؤية النبي ﷺ، أن لو كانت ممكنة، فإن كان فقدها أشد عليه من فقد شيء من أعراضه، فقد انصف بالأحبية المذكورة يا رسول الله ﷺ. ومن لا فلا.

قال القرطبي: «كل من آمن بالنبي ﷺ إيمانًا صحيحًا لا يخلو عن وجدان شيء من تلك المحبة الراجحة، غير أنهم متفاوتون. فمنهم من أخذ من تلك المرتبة بالحق الأوفى، ومنهم من أخذ بالحق الأدنى، كمن كان مستغرقًا في الشهوات محجوبًا بالغفلات في أكثر الأوقات. لكن الكثير منهم إذا ذكر النبي ﷺ اشتاق إلى رؤيته، بحيث

يؤثرها على أهله وماله وولده، ويبذل نفسه في الأمور الخطيرة، ويجد رجحان ذلك من نفسه وجدانا لا تردد فيه. وقد شوهد من هذا الجنس من يؤثر زيارة قبره ورؤية مواضع آثاره على جميع ما ذكر، لما وقر في قلوبهم من محبته ﷺ، غير أن ذلك سريع الزوال لتوالي الغفلات».

فكل مسلم في قلبه محبة الله ورسوله، إذ لا يدخل في الإسلام إلا بها. والناس متفاوتون في محبته ﷺ بحسب استحضار ما وصل إليهم من جهته عليه الصلاة والسلام من النفع الشامل لخير الدارين، والغفلة عن ذلك. ولا شك أن حظ الصحابة رضي الله عنهم في هذا المعنى أتم؛ لأن هذا ثمرة المعرفة وهم بها أعلم.

وقد روى ابن إسحاق أن امرأة من الأنصار قتل أبوها وأخوها وزوجها يوم أحد مع رسول الله ﷺ، فقالت: «ما فعل رسول الله ﷺ؟»، قالوا: «خير هو بحمد الله كما تحبين»، فقالت: «أرونيه حتى أنظر إليه». فلما رأته قالت: «كل مصيبة بعدك جلل، أني صغيرة».

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «كان رسول الله ﷺ أحب إلينا من أموالنا وأولادنا وآبائنا وأمهاتنا، ومن الماء البارد على الظمأ».

ولما أخرج أهل مكة زيد بن الدثنة من الحرم ليقتلوه، قال له أبو سفيان بن حرب: «أنشدك بالله يا زيد، أتحب أن محمدًا الآن عندنا نضرب عنقه وأنك في أهلك؟» فقال زيد: «والله ما أحب أن محمدًا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة، وإني جالس في أهلي». فقال أبو سفيان: «ما رأيت أحدًا من الناس يحب أحدًا كحب أصحاب محمد محمدًا».

قال الإمام البغوي في تفسيره: «نزل قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا**﴾[النساء:69] في ثوبان مولى رسول الله ﷺ، وكان شديد الحب لرسول الله ﷺ، قليل الصبر عنه. فأتاه ذات يوم وقد تغير لونه يعرف الحزن في وجهه، فقال له رسول الله ﷺ: «ما غير لونك؟»، فقال: «يا رسول الله، ما بي مرض ولا وجع، غير أني إذا لم أرك استوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك، ثم ذكرت الآخرة، فأخاف أن لا أراك، لأنك ترفع مع النبيين، وإني إن دخلت الجنة في منزلة أدنى من منزلتك، وإن لم أدخل الجنة لا أراك أبدًا». فتزلت هذه الآية، وكذا ذكره الواحدي.

ومن عامر الشعبي قال: «إن رجلًا من الأنصار أتى النبي ﷺ فقال: والله يا رسول الله، لأنت أحب إلي من نفسي ومالي وولدي وأهلي، ولولا أني آتيك فأراك لرأيت أن أموت»، وبكى الأنصاري. فقال له رسول الله ﷺ: «ما أبكاك؟»، قال: «بكيت أني ذكرت أنك ستموت ونموت، فترفع مع النبيين وتكون نحن إن دخلنا الجنة دونك». فلم يحر النبي ﷺ إليه بمعنى، أي لم يرجع إليه بقول. فأنزل الله الآية، وذكر مقاتل بن سليمان أن هذا الأنصاري هو عبد الله بن زيد الذي رأى الأذان. وذكر أيضًا أن عبد الله بن زيد هذا كان يعمل في جنة له، فأتاه ابنه فأخبره أن النبي ﷺ قد توفي. فقال: «اللهم أذهب بصري حتى لا أرى بعد حبيبي محمد أحدًا». فكف بصره.

وبالجملة، فلا حياة للقلب إلا بمحبة الله تعالى ومحبة رسوله ﷺ، ولا عيش إلا عيش المحبين الذين قرت أعينهم بحبيبهم،

وسكنت نفوسهم إليه، واطمأنت قلوبهم به، واستأنسوا بقربه، وتنعموا بمحبته. ففي القلب طاقة لا يسدها إلا محبة الله ورسوله. ومن لم يظفر بذلك، فحياته كلها هموم وغموم وآلام وحسرات.

قال صاحب «المدارج»: «ولن يصل العبد إلى هذه المنزلة العلية والمرتبة السنية حتى يعرف الله ويهتدي إليه بطريق توصله إليه، ويخرق ظلمات الطبع بأشعة البصيرة، فيقوم بقلبه شاهد من شواهد الآخرة فينجذب إليها بكليته، ويزهد في التعلقات الفانية، ويدأب في تصحيح التوبة، والقيام بالمأمورات الظاهرة والباطنة، وترك المنهيات الظاهرة والباطنة. ثم يقوم حارسًا على قلبه فلا يسامحه بخطرة يكرهها الله تعالى، ولا بخطرة فضول لا تنفعه، فيصفو لذلك قلبه بذكر ربه، ومحبته، والإنابة إليه، فحينئذ يجتمع قلبه وخواطره وحديث نفسه على إرادة ربه، وطلبه والشوق إليه. فإذا صدق في ذلك، رزق محبة الرسول، واستولت روحانيته على قلبه، فجعله إمامه وأستاذه ومعلمه وشيخه وقدوته، كما جعله الله نبيه ورسوله وهاديه. فيطالع سيرته ﷺ، ومبادئه، وأموره، وكيفية نزول الوحي عليه، ويعرف صفاته وأخلاقه وآدابه وحركاته وسكونه ويقظته ومنامه وعبادته ومعاشرته لأهله وأصحابه إلى غير ذلك مما منحه الله تعالى، حتى بصير كأنه معه من بعض أصحابه».

(ولمحبة رسول الله ﷺ علامات) أعظمها الاقتداء به، واستعمال سنته، وسلوك طريقته، والاهتداء بهديه وسيرته، والوقوف على ما حدده لنا من شريعته. قال الله تعالى: ﴿**قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ**﴾[آل عمران: 31]. فجعل تعالى متابعة الرسول ﷺ

آية محبة العبد ربه، وجعل جزاء العبد على حسن متابعة الرسول محبة الله تعالى إياه. وبحسب هذا الانبعاث تحصل المحبة والمحبوبية معًا، ولا يتم الأمر إلا بهما. فليس الشأن أن تحب الله فقط، بل الشأن أن يحبك الله. ولا يحبك إلا إذا اتبعت حبيبه ﷺ ظاهرًا وباطنًا، وصدقته خبرًا، وأطعته أمرًا، وأجبته دعوة، وآثرته طوعًا، وفنيت عن حكم غيره بحكمه، وعن محبة غيره من الخلق بمحبته، وعن طاعة غيره بطاعته. وإن لم تكن كذلك، فلا تتعن، فلست على شيء. وتأمل قوله تعالى: ﴿**فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ**﴾[آل عمران: 31]، أي الشأن في أن الله يحبكم، لا في أنكم تحبونه، وهذا لا ينالونه إلا باتباع الحبيب عليه الصلاة والسلام.

وقال المحاسبي: «علامة حب العبد لله عز وجل اتباع مرضاة الله، والتمسك بسنن رسول الله ﷺ. فإذا ذاق العبد حلاوة الإيمان ووجد طعمه، ظهرت ثمرة ذلك على جوارحه ولسانه. فاستحلى اللسان ذكر الله تعالى وما والاه، وأسرعت الجوارح إلى طاعة الله، فحينئذ يدخل حب الإيمان بالقلب كما يدخل حب الماء البارد الشديد برده في اليوم الشديد الحر للظمآن الشديد العطش، فيرتفع عنه تعب الطاعة لاستلذاذه بها. بل تبقى الطاعات غذاء لقلبه وسرورًا له، وقرة عين في حقه، ونعيمًا لروحه، يلذ بها أعظم من اللذات الجسمانية. فلا يجد في أوراد العبادة كلفة».

وفي الترمذي عن أنس عن النبي ﷺ قال: «ومن أحيى سنتي فقد أحبني، ومن أحبني كان معي في الجنة». وعن ابن عطاء قال: «من ألزم نفسه آداب السنة نور الله قلبه بنور المعرفة، ولا مقام أشرف

من مقام متابعة الحبيب في أوامره ونواهيه وأفعاله وأخلاقه». وقال أبو إسحاق الرقي، من أقران الجنيد: «علامة محبة الله إيثار طاعته ومتابعة نبيه ﷺ».

وعن غيره، قال: «لا يظهر على أحد شيء من نور الإيمان إلا باتباع السنة ومجانبة البدعة. فأما من أعرض عن الكتاب والسنة ولم يتلق العلم من مشكاة الرسول عليه الصلاة والسلام بدعواه علمًا لدنيا أوتيه، فهو من لدن النفس والشيطان. وإنما يعرف كون العلم لدنيا رحمانيًا بموافقته لما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام عن ربه تعالى، والعلم اللدني الرحماني هو ثمرة العبودية والمتابعة لهذا النبي الكريم عليه أزكى الصلاة وأتم التسليم. وبه يحصل الفهم في الكتاب والسنة بأمر يختص به صاحبه، كما قال علي بن أبي طالب، وقد سئل: هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء دون الناس؟ فقال: «لا إلا فهما يؤتيه الله عبدًا في كتابه». هذا هو العلم اللدني الحقيقي.

فاتباع هذا النبي الكريم حياة القلوب، ونور البصائر، وشفاء الصدور، ورياض النفوس، ولذة الأرواح، وأنس المستوحشين، ودليل المتحيرين.

ومن علامات محبته ﷺ أن يرضى مدعيها بما شرعه حتى لا يجد في نفسه حرجًا مما قضى. قال الله تعالى: ﴿**فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾[النساء:65]. فسلب اسم الإيمان عمن وجد في صدره حرجًا من قضائه ولم يسلم له. قال تاج الدين بن عطاء الله: «أذاقنا الله حلاوة مشربه». وفي هذه الآية دلالة على أن الإيمان

الحقيقي لا يحصل إلا لمن حكم الله ورسوله ﷺ على نفسه قولًا وفعلًا وأخذًا وتركًا وحبًا وبغضًا.

ثم إنه سبحانه لم يكتفِ بنفي الإيمان عمن لم يحكم أو حكم ووجد الحرج في نفسه حتى أقسم على ذلك بالربوبية الخاصة برسول الله ﷺ، رأفة وعناية وتخصيصًا ورعاية. لأنه لم يقل «فلا» والرب، إنما قال: ﴿**فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ**﴾[النساء:65]. ففي ذلك تأكيد بالقسم وتأكيد في القسم، علمًا منه سبحانه بما النفوس منطوية عليه من حب الغلبة ووجود النصرة سواء كان الحق عليها أو عليها. وفي ذلك إظهار لعنايته برسوله ﷺ، إذ جعل حكمه حكمه وقضاءه قضاءه. فأوجب على العباد الاستسلام لحكمه والأنقياد لأمره ولم يقبل منهم الإيمان به إلا إذا أذعنوا لأحكام رسوله ﷺ، لأنه كما وصفه ربه: ﴿**وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى**﴾[النجم:3-4]. فحكمه حكم الله، وقضاؤه قضاء الله، كما قال: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ**﴾[الفتح:10] وأكد ذلك بقوله: ﴿**يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ**﴾[الفتح:10].

وفي الآية إشارة أخرى إلى تعظيم قدره وتفخيم أمره ﷺ، وهي قوله تعالى: ﴿**وَرَبِّكَ**﴾. فأضاف نفسه إليه كما قال في الآية الأخرى: ﴿**ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا**﴾[مريم:2]. فأضاف الحق سبحانه نفسه إلى محمد ﷺ وأضاف زكريا إليه ليعلم العباد فرق ما بين المنزلتين وتفاوت الرتب.

ثم إنه تعالى لم يكتفِ بالتحكيم بالظاهر فيكونوا به مؤمنين، بل اشترط فقدان الحرج وهو النيق من نفوسهم في أحكامه ﷺ،

سواء كان الحكم بما يوافق أهواءهم أو يخالفها. وإنما تضيق النفوس بفقدان الأنوار ووجود الأغيار، فعنه يكون الحرج وهو النيق. والمؤمنون ليسوا كذلك، إذ نور الإيمان ملأ قلوبهم فاتسعت وانشرحَت فكانت واسعة بنور الواسع العليم، ممدودة بوجود فضله العظيم، مهيأة لواردات أحكامه، مفوضة له في نقضه وإبرامه.

وقال سهل بن عبد الله: «من لم ير ولاية الرسول ﷺ عليه في جميع أحواله ويرى نفسه في ملكه، لم يذق حلاوة سنته». لأنه ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه».

ومن علامات محبته ﷺ نصر دينه بالقول والفعل، والذب عن شريعته، والتخلق بأخلاقه في الجود والإيثار والحلم والصبر والتواضع وغيرها. فمن جاهد نفسه على ذلك وجد حلاوة الإيمان، ومن وجدها استلذ الطاعات وتحمل المشاق في الدين وآثر ذلك على أعراض الدنيا الفانية.

ومن علامات محبته ﷺ التسلي عن المصائب. فإن المحب يجد في لذة المحبة ما ينسيه المصائب، ولا يجد من مسها ما يجد غيره، حتى كأنه قد اكتسى طبيعة ثانية ليست طبيعة الخلق، بل يقوى سلطان المحبة حتى يلتذ بكثير من المصائب أعظم من التداذ الخلي بحظوظه وشهواته.

ومن علامات محبته ﷺ كثرة ذكره. فمن أحب شيئًا أكثر من ذكره.

ومن علامات محبته ﷺ تعظيمه عند ذكره، وإظهار الخشوع والخضوع والانكسار مع سماع اسمه. فكل من أحب شيئًا خضل له، كما كان كثير من الصحابة بعده إذا ذكروه خشعوا واقشعرت

جلودهم وبكوا. وكذلك كان كثير من التابعين ومن بعدهم يفعلون ذلك محبة له وشوقًا إليه وتهيّبًا وتوقيرًا.

قال أبو إبراهيم التجيبي: «واجب على كل مؤمن، متى ذكره ﷺ أو ذكر عنده، أن يخضع ويخشع ويتوفر ويسكن من حركته، ويأخذ في هيبته وإجلاله بما كان يأخذ به نفسه لو كان بين يديه، ويتأدب بما أدبنا الله به». وكان أيوب السختياني، إذا ذكر النبي ﷺ عنده، بكى حتى نرحمه. وكان جعفر بن محمد كثير الدعابة والتبسم، فإذا ذكر النبي ﷺ اصفر لونه. وكان عبد الرحمن بن القاسم، إذا ذكر النبي ﷺ، ينظر إلى لونه كأنه قد نزف منه الدم، وقد جف لسانه في فمه هيبة لرسول الله ﷺ. وكان عبد الله بن الزبير، إذا ذكر عنده النبي ﷺ، بكى حتى لا يبقى في عينيه دموع. وكان الزهري من أهنأ الناس وأقربهم، فإذا ذكر عنده النبي ﷺ، فكأنك ما عرفته ولا عرفك. وكان صفوان بن سليم من المتعبدين المجتهدين، فإذا ذكر عنده النبي ﷺ بكى فلا يزال يبكي حتى يقوم الناس عنه ويتركوه. وكان قتادة إذا سمع الحديث أخذه البكاء والعويل والزويل، أي القلق والانزعاج، أشار إلى ذلك القاضي عياض.

(ومن علامات محبته ﷺ) كثرة الشوق إلى لقائه. وقد كان الصحابة رضي الله عنهم، إذا اشتد بهم الشوق وأزعجتهم لواعج المحبة، فصدوا رسول الله ﷺ، واستشفوا بمشاهدته وتلذذوا بالجلوس معه والنظر إليه والتبرك به ﷺ. وعن عبدة بنت خالد بن معدان، وهو من التابعين، قالت: «ما كان خالد يأوي إلى فراش إلا وهو يذكر من شوقه إلى رسول الله ﷺ وإلى أصحابه من المهاجرين والأنصار، يسميهم ويقول: هم

أصلي وفصلي، وإليهم يحن قلبي، طال شوقي إليهم، فعجل رب قبضي إليك حتى يغلبه النوم». ولما احتضر بلال، نادت امرأته: «واحرباه!» فقال: «وَاطَرَبَاه! غدًا ألقى الأحبة، محمدًا وصحبه».

(ومن علامات محبته ﷺ) حب القرآن الذي أتى به وهدى به واهتدى به وتخلق به. وإذا أردت أن تعرف ما عندك وعند غيرك من محبة الله ورسوله، فانظر محبة القرآن من قلبك، والتذاذك بسماعه، هل هو أعظم من التذاذ أصحاب الملاهي والغنى المطرب بسماعهم؟ ويروى أن عثمان بن عفان قال: «لو طهرت قلوبنا لما شبعت من كلام الله». وقال النبي ﷺ لعبد الله بن مسعود: «اقرأ عليّ». قال: «أقرأ عليك وعليك أنزل». فقال: «إني أحب أن أسمعه من غيري». فاستفتح وقرأ سورة النساء حتى إذا بلغ ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا**﴾[النساء:41] قال: «حسبك». فرفع رأسه، فإذا عينا رسول الله ﷺ تدرفان من البكاء، رواه البخاري. وهذا يجده من سمع الكتاب العزيز بأذن قلبه. قال الله تعالى: ﴿**وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ**﴾[المائدة:83].

وقد كان ابن عمر رضي الله عنهما ربما مر بآية في ورده، فتخنقه العبرة ويسقط ويلزم البيت اليوم واليومين حتى يُعاد ويحسب مريضًا. وإذا رأيت الرجل ذوقه ووجده وطربه ونشأبه في سماع الأبيات دون سماع الآيات، وفي سماع الألحان دون سماع القرآن، فاعلم أن هذا من أقوى الأدلة على فراغ قلبه من محبة الله ورسوله. رزقنا الله حلاوة محبته بمنه ورحمته.

(ومن علامات محبته ﷺ) محبة سنته وقراءة حديثه. فإن من دخلت حلاوة الإيمان في قلبه، إذا سمع كلمة من كلام الله تعالى أو من حديث رسوله ﷺ، تشربتها روحه وقلبه ونفسه.

(ومن علامات محبته ﷺ) أن يلتذ محبه بذكره الشريف، ويطرب عند سماع اسمه المنيف. وقد يوجب له ذلك سكرًا يستغرق قلبه وروحه وسمعه. فمن اتصف بهذه العلامات فهو كامل المحبة لله ورسوله. ومن خالف بعضها فهو ناقص المحبة، ولا يخرج عن اسمها بدليل قوله عليه الصلاة والسلام للذي حدّ في الخمر لما لعنه بعضهم وقال: «ما أكثر ما يُؤتى به!» فقال ﷺ: «لا تلعنه، فإنه يحب الله ورسوله». فأخبر أنه يحب الله ورسوله مع وجود ما صدر منه.

(تنبيه) المحبة أرفع من الخلة، وقيل بالعكس، وقيل هما سواء. ونبينا ﷺ هو حبيب الله وخليله. وإن اشتهر هو بالحبيب، وإبراهيم عليه السلام بالخليل. وقد وقع الإجماع على فضله ﷺ على جميع الأنبياء، بل هو أفضل خلق الله تعالى على الإطلاق.

الفصل الثاني: في حكم الصلاة والتسليم عليه صلى الله عليه وسلم

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[الأحزاب:56]. قيل: نزلت هذه الآية في شهر شعبان، ولذلك يُقال له شهر الصلاة على رسول الله ﷺ. قال أبو العالية: «معنى صلاة الله على نبيه ﷺ ثناؤه عليه عند ملائكته، ومعنى صلاة الملائكة عليه الدعاء.» قال في فتح الباري: «وهذا أولى الأقوال، فيكون معنى صلاة الله تعالى عليه ثناءه وتعظيمه، وصلاة الملائكة وغيرهم طلب ذلك له من الله تعالى، والمراد طلب الزيادة لا طلب أصل الصلاة.» وحكى القاضي عياض عن بكر القشيري أنه قال: «الصلاة على النبي ﷺ من الله تشريف وزيادة تكريم، وعلى من دون النبي رحمة.» وبهذا يظهر الفرق بين النبي ﷺ وبين سائر المؤمنين، حيث قال الله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾[الأحزاب:56] وقال قبل ذلك في السورة المذكورة: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾[الأحزاب:43]. ومن المعلوم أن القدر الذي يليق بالنبي ﷺ من ذلك أرفع مما يليق بغيره، والإجماع منعقد على أن في هذه الآية من تعظيم النبي ﷺ والتنويه به ما ليس في غيرها.

وقال الحليمي: «معنى الصلاة على النبي ﷺ تعظيمه، فمعنى قولنا: اللهم صل على محمد، عظم محمد.» والمراد تعظيمه

في الدنيا بإعلاء ذكره، وإظهار دينه، وإبقاء شريعته، وفي الآخرة بإجزال مثوبته، وتشفيعه في أمته، وإبداء فضيلته بالمقام المحمود. وعلى هذا فالمراد بقوله تعالى: ﴿**صَلُّوا عَلَيْهِ**﴾[الأحزاب:56] الدعاء إلى ربكم بالصلاة عليه. والمقصود بالصلاة عليه ﷺ التقرب إلى الله تعالى بامتثال أمره، وقضاء بعض حق النبي ﷺ علينا. قال ابن عبد السلام: «ليست صلاتنا على النبي ﷺ شفاعة له، فإن مثلنا لا يشفع لمثله، ولكن الله أمرنا بمكافأة من أحسن إلينا، فإن عجزنا عنها كافأناه بالدعاء، فأرشدنا الله لما علم عجزنا عن مكافأة نبينا إلى الصلاة عليه.» وقال ابن العربي: «فائدة الصلاة عليه ترجع إلى الذي يصلي عليه لدلالة ذلك على نصوح العقيدة، وخلوص النية، وإظهار المحبة، والمداومة على الطاعة، واحترام الواسطة الكريمة ﷺ.»

واختُلف في حكم الصلاة عليه ﷺ على أقوال:

1. تجب في القعود آخر الصلاة بين التشهد وسلام التحلل، قاله الإمام الشافعي رضي الله عنه ومن تبعه.

2. تجب في الجملة بغير حصر، لكن أقل ما يحصل به الإجزاء مرة.

3. يجب الإكثار منها من غير تقيد بعدد، قاله أبو بكر بن بكير من المالكية.

4. تجب كلما ذكر، وهو قول كثيرين من الحنفية والشافعية والمالكية، واستدلوا بحديث: «من ذكرت عنده فلم يصل علي فمات فدخل النار فأبعده الله»، وحديث: «رغم أنف من ذكرت عنده فلم يصل علي»، وحديث: «شقي عبد ذكرت عنده فلم يصل علي.»

5. في كل مجلس مرة ولو تكرر ذكره ﷺ.

6. في كل دعاء، حكاهما الزمخشري.

7. أنها من المستحبّات، وهو قول ابن جرير الطبري.

8. تجب في العمر مرة في الصلاة أو غيرها، قاله أبو بكر الرازي من الحنفية.

9. تجب في الصلاة من غير تعيين المحل، ونقل ذلك عن أبي جعفر الباقر.

10. تجب في التشهد الأول والأخير، وهو قول الشعبي وإسحق بن راهويه.

وأما صفة الصلاة عليه ﷺ، فعن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: «لقيني كعب بن عجرة، فقال: ألا أهدي لك هدية؟ إن النبي ﷺ خرج علينا، فقلنا: يا رسول الله قد علمنا كيف نسلم عليك، فكيف نصلي عليك؟ قال: قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد. اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد.» رواه البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود والنسائي. ورواه ابن أبي حاتم بلفظ: «لما نزلت: ﴿**إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾[الأحزاب: 56]، قلنا: يا رسول الله فكيف الصلاة عليك؟ قال: قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد.»

عن أبي حميد الساعدي أنهم قالوا: «يا رسول الله، كيف نصلي عليك؟» قال: «قولوا: اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته كما صليت على إبراهيم، وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد.» رواه الإمام أحمد.

وعن أبي مسعود الأنصاري قال: «أتانا رسول الله ﷺ ونحن في مجلس سعد بن عبادة، فقال له بشير بن سعد: أمرنا الله أن نصلي عليك، فكيف نصلي عليك؟» قال: فسكت رسول الله ﷺ حتى تمنينا أنه لم يسأله، ثم قال رسول الله ﷺ: «قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم في العالمين، إنك حميد مجيد، والسلام كما قد علمتم.» رواه مالك ومسلم وغيرهما.

فإن قلت: ما موقع التشبيه في قوله «كما صليت على إبراهيم» مع أن المقرر أن المشبه دون المشبه به؟ والواقع هنا عكسه، لأن محمدًا ﷺ وحده أفضل من إبراهيم ومن آل إبراهيم، ولا سيما وقد أضيف إليه آل محمد. وقضية كونه أفضل أن تكون الصلاة المطلوبة له أفضل من كل صلاة حصلت أو تحصل لغيره. فقد أجاب العلماء عنه بأجوبة كثيرة، منها أن قوله ﷺ «اللهم صل على محمد» مقطوع عن التشبيه فيكون التشبيه متعلقًا بقوله «وعلى آل محمد»، ونقل هذا عن الإمام الشافعي رضي الله عنه. ومنها أن كون المشبه دون المشبه به ليس مطردًا، بل قد يكون التشبيه بالمثل بل بالدون كما في قوله تعالى: ﴿**مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ**﴾[النور: 35]، وأين يقع نور المشكاة من نوره تعالى؟

وقال النووي: «أحسن الأجوبة ما نسب إلى الشافعي ﵁، أن التشبيه لأصل الصلاة بأصل الصلاة أو للمجموع بالمجموع.» ومما يعزى للعارف الرباني أبي محمد المرجاني أنه قال: «وسر قوله ﷺ كما صليت على إبراهيم وكما باركت على إبراهيم ولم يقل كما صليت على موسى، لأن موسى عليه الصلاة والسلام كان التجلي له بالجلال فخر موسى صعقًا، والخليل إبراهيم كان التجلي له بالجمال لأن المحبة والخلة من آثار التجلي بالجمال. فلهذا أمرهم صلوات الله وسلامه عليه أن يصلوا عليه كما صلى على إبراهيم، ليسألوا له التجلي بالجمال. وهذا لا يقتضي التسوية فيما بينه وبين الخليل صلوات الله وسلامه عليهما، لأنه إنما أمرهم أن يسألوا له التجلي بالوصف الذي تجلى به للخليل عليه الصلاة والسلام.»

فالذي يقتضيه الحديث المشاركة في الوصف الذي هو التجلي بالجمال، ولا يقتضي التسوية في المقامين ولا في الرتبتين. فإن الحق سبحانه يتجلى بالجمال لشخصين بحسب مقاميهما، وإن اشتركا في وصف التجلي بالجمال، فيتجلى لكل واحد منهما بحسب مقامه عنده، ورتبته منه، ومكانته. فيتجلى للخليل عليه الصلاة والسلام بالجمال بحسب مقامه، ويتجلى لسيدنا محمد ﷺ بالجمال بحسب مقامه. فعلى هذا يفهم الحديث.

والمراد بآل محمد في هذا الحديث من حرمت عليهم الصدقة، كما نص عليه الشافعي واختاره الجمهور، وقيل أزواجه ﷺ وذريته، وقيل جميع الأمة أمة الإجابة، وقيل الأتقياء منهم. وهذه أفضل كيفيات الصلاة عليه ﷺ لأنه لا يختار لنفسه إلا الأشرف الأفضل،

ويترتب على ذلك أنه لو خلف أن يصلي على النبي ﷺ أفضل الصلاة، فطريق البر أن يأتي بذلك هكذا، صوبه النووي. وقيل يبر إذا قال: «كلما ذكره الذاكرون، وكلما غفل عن ذكره الغافلون»، لذكر الشافعي رضي الله عنه هذه الكيفية في خطبة الرسالة له.

وقال القاضي حسين في طريق البر: «أن يقول: اللهم صل على محمد كما هو أهله ويستحقه.» ولو جمع بينها فقال ما في الحديث وأضاف إليه أثر الشافعي وما قاله القاضي لكان أشمل. ولو قيل إنه يعمد إلى جميع ما اشتملت عليه الروايات الثابتة فيستعمل منها ذكرًا يحصل به البر لكان حسنًا.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا تشهد أحدكم في الصلاة فليقل: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، وارحم محمد وآل محمد كما صليت وباركت وترحمت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد.» رواه الحاكم.

وعن سلامة الكندي أن عليًا رضي الله عنه كان يعلم الناس الصلاة على رسول الله ﷺ فيقول: «اللهم داحي المدحوات وبارئ المسموكات، اجعل شرائف صلواتك ونوامي بركاتك ورأفة تحبنك على محمد عبدك ورسولك الفاتح لما أخلق والخاتم لما سبق، والمعلن الحق بالحق، والدامع لجبشات الأباطيل كما حمل فاضطلع بأمرك بطاعتك مستوفزًا في مرضاتك، واعيًا لوحيك، حافظًا لعهدك، ماضيًا على نفاذ أمرك، حتى أورى قبسًا لقابس آلاء الله، تصل بأهله أسبابه، به هديت القلوب بعد خوضات الفتن والإثم وأبهج موضحات الأعلام ونائرات الأحكام ومنيرات الإسلام، فهو أمينك المأمون، وخازن

علمك المخزون، وشهيدك يوم الدين، وبعيثك نعمة، ورسولك بالحق رحمة. اللهم افسح له في عدنك، وأجزه مضاعفات الخير من فضلك، مهلتات له غير مكدرات من فوز ثوابك المحلول، وجزيل عطائك المعلول. اللهم أعل على بناء الناس بناءه، وأكرم مثواه لديك ونزله، وأتمم له نوره، واجزه من ابتعائك له مقبول الشهادة، مرضي المقالة، ذا منطق عدل، وخطة فضل، وبرهان عظيم.»

ومعنى «داحي» باسط، و«المدحوات» الأرضون، و«بارئ» خالق، و«المسموكات» أي المرفوعات، يعني السموات. و«نوامي بركاتك» زوائدها، و«الفاتح لما أخلق» أي من الشرائع، و«الخاتم لما سبق» أي من النبوة والرسالة، و«الدامع» الدافع والمزيل، و«جبشات الأباطيل» ارتفاعاتها، و«اضطلع» قوي، و«المستوفز» المستعجل، و«أورى» أنار، و«القبس» أصله الشعلة من النار، و«القابس» طالب الاقتباس، والمراد هنا طالب نور الحق والهداية، و«آلاء الله» نعمه، و«أبهج» أنار، و«الأعلام» العلامات التي يهتدى بها، و«النائرات» المضيئات، و«المحلول» الذي يحل فيه، وهو الجنة، و«المعلول» من العلل، وهو الشرب بعد الشرب، و«مثواه» مقامه، و«النزل» ما يعد الإكرام للضيف إذا نزل، و«الخطة» الأمر والشأن، و«الجزل» والفصل الفاصل بين الحق والباطل.

وعن عبد الله بن مسعود ﵁ قال: «إذا صليتم على رسول الله ﷺ فأحسنوا الصلاة عليه، فإنكم لا تدرون لعل ذلك يعرض عليه.» فقالوا له: «علمنا.» قال: «قولوا: اللهم اجعل صلواتك وبركاتك ورحمتك على سيد المرسلين وإمام المتقين، وخاتم النبيين، محمد

عبدك ورسولك، إمام الخير، ورسول الرحمة. اللهم ابعثه مقاما محمودا يغبطه فيه الأولون والآخرون. اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم، إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم، إنك حميد مجيد.»

عن رويفع بن ثابت الأنصاري، أن رسول الله ﷺ قال: «من صلى على محمد وقال: اللهم أنزله المقعد الصدق المقرب عندك يوم القيامة، وجبت له شفاعتي.» رواه الطبراني.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من سره أن يكتال بالمكيال الأوفى إذا صلى علينا أهل البيت، فليقل: اللهم صل على محمد النبي الأمي، وأزواجه أمهات المؤمنين، وذريته وأهل بيته، كما صليت على إبراهيم، إنك حميد مجيد.» رواه أبو داود.

عن طاوس، سمعت ابن عباس يقول: «اللهم تقبل شفاعة محمد الكبرى، وارفع درجته العليا، وأعطه سؤله في الآخرة والأولى، كما آتيت إبراهيم وموسى.»

وأما المواطن التي تشرع فيها الصلاة عليه ﷺ فمنها:

- التشهد الأخير: وهي واجبة فيه.
- التشهد الأول: وهي سنة فيه وأقلها: «اللهم صل على محمد.»
- خطب الجمعة: فلا تصح خطب الجمعة إلا بها.
- عقب إجابة المؤذن: لما رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا عليّ، فإنه من صلى عليّ واحدة، صلى الله عليه بها

عشرا، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تبتغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو. فمن سأل الله لي الوسيلة، حلت عليه الشفاعة.» أخرجه مسلم وغيره.

وقوله: «حلت عليه الشفاعة» أي: وجبت، وقيل: غشيته ونزلت به.

– روى البخاري وغيره عن جابر، عن النبي ﷺ: «من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة الثامة والصلاة القائمة، آت محمدا الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته، حلت له شفاعتي يوم القيامة.»

– أول الدعاء وأوسطه وآخره: لما روى الإمام أحمد من حديث جابر، أن رسول الله ﷺ قال: «لا تجعلوني كقدح الراكب، يملأ قدحه ثم يضعه ويرفع متاعه، فإن احتاج إلى شراب شربه أو الوضوء توضأ، وإلا أهراقه، ولكن اجعلوني في أول الدعاء وأوسطه وآخره.»

– عقب دعاء القنوت: لما رواه أحمد وغيره عن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال: «علمني رسول الله ﷺ كلمات أقولهن في الوتر: اللهم اهدني فيمن هديت، وعافني فيمن عافيت، وتولني فيمن توليت، وبارك لي فيما أعطيت، وقني شر ما قضيت، فإنك تقضي ولا يقضى عليك، وإنه لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت، تتباركت ربنا وتعاليت، وصلى الله على النبي.»

– أثناء تكبيرات العيدين: روي ذلك عن ابن مسعود رضي الله عنه.

– عند دخول المسجد والخروج منه: لما رواه أحمد عن فاطمة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا دخل المسجد صلى على محمد وسلم، ثم قال: اللهم اغفر لي ذنوبي، وافتح لي أبواب رحمتك. وإذا

خرج صلى على محمد وسلم، ثم قال: اللهم اغفر لي ذنوبي، وافتح لي أبواب فضلك.»

– في صلاة الجنازة: فإن السنة أن يقرأ الفاتحة بعد إحدى التكبيرات، وبعد الأولى أولى، وأن يصلي على النبي ﷺ بعد الثانية، ويدعو للميت بعد الثالثة، ويقول بعد الرابعة: «اللهم لا تحرمنا أجره ولا تفتنا بعده.» وفي ذلك حديث رواه الشافعي والنسائي.

– عند التلبية: أي بعد الفراغ منها.

– عند الصفا والمروة.

– عند الاجتماع والتفرق: لما روى الترمذي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما جلس قوم مجلسا لم يذكروا الله فيه ولم يصلوا على نبيه إلا كان عليهم ةرة، فإن شاء عذبهم، وإن شاء غفر لهم.» والـ«يرة» هي النقص أو التبعة أو الحسرة.

– عن أبي سعيد قال: «ما من قوم يقعدون ثم يقومون ولا يصلون على النبي ﷺ إلا كان عليهم حسرة، وإن دخلوا الجنة لما يرون من الثواب لمن يصلي عليه.»

– عند الصباح والمساء: لما روى الطبراني من حديث أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: «من صلى عليّ حين يصبح عشرا، وحين يمسي عشرا، أدركته شفاعتي يوم القيامة.»

– عند الوضوء: لحديث ابن ماجه عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «لا وضوء لمن لم يصل على النبي ﷺ.»

– عند نسيان الشيء: لحديث أنس عن النبي ﷺ قال: «إذا نسيتم شيئا، فصلوا عليّ تذكروه إن شاء الله تعالى.» رواه أبو موسى المديني.

- بعد العطاس: كما ذهب إليه أبو موسى المديني وجماعة.

- عند زيارة قبره الشريف ﷺ: لحديث أبي داود عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما من أحد يسلم عليّ إلا رد الله عليّ روحي حتى أرد عليه السلام.» وروى ابن عساكر: «من صلى عليّ عند قبري سمعته.»

وورد الأمر بالإكثار من الصلاة عليه يوم الجمعة وليلتها. فعن أوس بن أوس الثقفي قال: قال رسول الله ﷺ: «من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خلق الله آدم، وفيه قبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا عليّ من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة عليّ.» قالوا: «يا رسول الله، وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت؟» أي: بليت. قال: «إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء.» رواه أحمد وغيره وصححه ابن خزيمة وغيره.

وقد روى البيهقي من حديث أبي أمامة عن النبي ﷺ الأمر بالإكثار من الصلاة عليه ﷺ ليلة الجمعة ويوم الجمعة. فإن قلت: ما الحكمة في خصوصية الإكثار من الصلاة عليه ﷺ يوم الجمعة وليلتها؟ أجاب ابن القيم بأن رسول الله ﷺ سيد الأنام ويوم الجمعة سيد الأيام، فللصلاة عليه فيه مزية ليست لغيره، مع حكمة أخرى وهي أن كل خير نالته أمته في الدنيا والآخرة فإنما نالته على يده ﷺ، فجمع الله لأمته بين خيري الدنيا والآخرة، وأعظم كرامة تحصل لهم إنما تحصل لهم يوم الجمعة؛ فإن فيه بعثهم إلى منازلهم وقصورهم في الجنة، وهو يوم المزيد لهم إذا دخلوا الجنة، وهو يوم عيدهم في الدنيا، ويوم يسعفهم الله تعالى بطلباتهم وحوائجهم، ولا يرد

سائلهم. وهذا كله إنما عرفوه وحصل لهم بسببه وعلى يده ﷺ. فمن شكره وحمده وأداء القليل من حقه أن يكثروا من الصلاة عليه في هذا اليوم وليلته ﷺ.

وأما فضيلة الصلاة عليه ﷺ فقد ورد التصريح بها في أحاديث قوية، أمثلها ما أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ: «من صلى علي واحدة، صلى الله عليه بها عشرا». وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن جبريل أتاني، فقال: من صلى عليك من أمتك واحدة، صلى الله عليه عشر صلوات، ورفعه عشر درجات». رواه الطبراني والترمذي وصححه. وعن أبي طلحة أن رسول الله ﷺ جاء ذات يوم، والسرور يرى في وجهه، فقالوا: «يا رسول الله، إنا لنرى السرور في وجهك»، فقال: «إنه أتاني الملك، فقال: يا محمد، أما يرضيك أن ربك عز وجل يقول: إنه لا يصلي عليك أحد من أمتك إلا صليت عليه عشرا، ولا يسلم عليك أحد من أمتك إلا سلمت عليه عشرا؟» قال: «بلى». رواه الإمام أحمد وغيره.

وعن عامر بن ربيعة أن رسول الله ﷺ قال: «من صلى علي صلاة، لم تزل الملائكة تصلي عليه ما صلى علي، فليقلل عبد من ذلك أو ليكثر». رواه الإمام أحمد وغيره. وعن عبد الله بن عمرو بن العاص: «من صلى على رسول الله ﷺ صلاة، صلى الله عليه وملائكته بها سبعين صلاة، فليقلل عبد من ذلك أو ليكثر». رواه الإمام أحمد. وعن أبي بن كعب قال: «يا رسول الله، إني أكثر الصلاة، فكم أجعل لك من صلاتي؟» قال: «ما شئت». قلت: «الربع»، قال: «ما شئت، وإن زدت فهو خير لك». قلت: «النصف»، قال: «ما شئت، وإن

زدت فهو خير لك». قلت: «الثلثين»، قال: «ما شئت، وإن زدت فهو خير لك». قلت: «أجعل لك صلاتي كلها؟» قال: «إذا تكفى همك، ويغفر ذنبك». رواه الترمذي. قال النووي: «ويكره إفراد الصلاة عن السلام»، واستدل بورود الأمر بهما معًا في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾[الأحزاب:56]. وقال في فتح الباري: «إنه يكره أن يفرد الصلاة ولا يسلم، أما لو صلى في وقت وسلم في وقت آخر فإنه يكون ممتثلا».

الفصل الثالث: في ذكر محبة أصحابه عليه الصلاة والسلام وآله وقرابته وأهل بيته وذريته رضي الله عنهم أجمعين

قال الطبراني: «اعلم أن الله تعالى لما اصطفى نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم على جميع من سواه، وخصه بما عمه به من فضله الباهر، وحباه أعلى ببركته من انتمى إليه نسبًا أو نسبة، ورفع من انطوى عليه نصرة وصحبة، وألزم مودة قرباه كافة بريته، وفرض محبة جملة أهل بيته المعظم وذريته»، فقال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾[الشورى:23]. ويروى أنها لما نزلت، قالوا: «يا رسول الله، من قرابتك هؤلاء؟» قال: «علي وفاطمة وابناهما». وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[الأحزاب:33]. وقد اختلف في المراد بأهل البيت في هذه الآية، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أنها نزلت في نساء النبي صلى الله عليه وسلم. رواه ابن أبي حاتم عن عكرمة. وعن أم سلمة رضي الله عنها، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في بيته إذ جاءت فاطمة ببرمة فيها خزيرة، فدخلت عليه بها، فقال: «ادعي زوجك وابنيك»، قالت: فجاء علي وحسن وحسين فدخلوا عليه، فجعلوا يأكلون من تلك الخزيرة وتحته كساء، قالت: وأنا في الحجرة أصلي، فأنزل الله عز وجل هذه الآية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[الأحزاب:33]. قالت: فأخذ فضل الكساء وغشاهم به، ثم أخرج يده فألوى بها إلى السماء، ثم قال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي وحامتي، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم

تطهيرا». قالت: فأدخلت رأسي من البيت فقلت: «وأنا معكم يا رسول الله»، فقال: «إنك إلى خير، إنك إلى خير». رواه الإمام أحمد. والخزيرة: لحم يقطع صغارًا ويصب عليه ماء كثير، فإذا نضج، ذر عليه الدقيق، فإن لم يكن فيه لحم فهي عصيدة. والكساء: مرط من شعر، والمرط هو كل ثوب غير مخيط. وحامتي: أي خاصني.

وعن أبي سعيد الخدري ﵁ قَال: قال رسول الله ﷺ: «نزلت هذه الآية في خمسة: في وفي علي وحسن وحسين وفاطمة»، ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾[الأحزاب:33].

وعن زيد بن أرقم قال: قام فينا رسول الله ﷺ خطيبا فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد، أيها الناس، إنما أنا بشر مثلكم، يوشك أن يأتيني رسول ربي عز وجل فأجيبه، وإني تارك فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله عز وجل فيه الهدى والنور، فتمسكوا بكتاب الله عز وجل، وخذوا به، وحث فيه ورغب فيه، ثم قال: وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي ثلاث مرات». فقيل لزيد: «من أهل بيته؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟» قال: «بلى، إن نساءه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حرم الصدقة». قيل: «من هم؟» قال: «آل علي، وآل جعفر، وآل عقيل، وآل العباس». قيل: «كل هؤلاء حرم الصدقة؟» قال: «نعم». خرجه مسلم. «والثقل»: كل شيء نفيس مصون.

ولا يشك من تدبر القرآن العظيم أن نساء النبي ﷺ داخلات في الآية الكريمة، فإن سياق الكلام معهن. وهذا اختيار ابن عطية بعد نقل أن الجمهور على أنهم علي وفاطمة والحسن والحسين. وروى أبو سعيد عن النبي ﷺ: «إني أوشك أن أدعى فأجيب، وإني تارك

فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي. كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي. وإن اللطيف الخبير أخبرني أنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض، فانظروا بماذا تخلفوني فيهما»، وعترة الرجل أهله وأقاربه.

وعن أبي بكر ﵁ أنه قال: «أيها الناس، ارقبوا محمدًا في أهل بيته» رواه البخاري. والمراقبة للشيء تعني المحافظة عليه، يقول: «احفظوهم ولا تؤذوهم». وقال أيضًا: «لقرابة رسول الله ﷺ أحب إلي أن أصل من قرابتي». وقال ﷺ: «أحبوا الله لما يغذوكم به، وأحبوني بحب الله، وأحبوا أهل بيتي بحبي» رواه الترمذي. وفي «المناقب» لأحمد: «من أبغض أهل البيت فهو منافق». وفي البخاري من حديث سعد بن أبي وقاص أن النبي ﷺ قال لعلي: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي». وفي لفظ آخر: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟». ولما كان هارون إنما كان خليفة في حياة موسى، دل ذلك على تخصيص خلافة علي للنبي ﷺ بحياته.

وأما حديث الترمذي والنسائي من «من كنت مولاه فعلي مولاه»، فقد قال الشافعي ﵁: «يعني بذلك ولاء الإسلام»، كقوله تعالى: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ**﴾[محمد:11]. وروي أنه ﷺ قال: «من آذى عليا فقد آذاني»، أخرجه الإمام أحمد. وأخرج المخلص الذهبي: «من أحب عليا فقد أحبني». وقد ذكر النقاس أن قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا**﴾[مريم:96] نزلت في علي. وقال محمد بن الحنفية: «لا تجد مؤمنًا إلا وهو يحب عليا وأهل بيته».

وقالت عائشة رضي الله عنها: «كانت فاطمة أحب الناس إلى رسول الله ﷺ، وزوجها أحب الرجال إليه» رواه الترمذي. وفي البخاري: «إن فاطمة بضعة مني، فمن أغضبها أغضبني». والبضعة هي قطعة اللحم، واستدل به السهيلي على أن من سبها يكفر. في الترمذي من حديث أسامة بن زيد أنه ﷺ قال في حسن وحسين: «اللهم إني أحبهما، فأحبهما، وأحب من يحبهما». وفي حديث أبي هريرة عند الحافظ السلفي قال: «ما رأيت الحسن بن علي قط إلا فاضت عيناي دموعا». وذلك أن رسول الله ﷺ خرج يومًا وأنا في المسجد، فأخذ بيدي واتكأ علي حتى جئنا سوق فينقاع. فنظر فيه ثم رجع حتى جلس في المسجد، ثم قال: «ادع ابني». فقال: فأتى الحسن بن علي يشتد حتى وقع في حجره، فجعل رسول الله ﷺ يفتح فمه ثم يدخل فمه في فمه ويقول: «اللهم إني أحبه، فأحبه، وأحب من يحبه» ثلاث مرات.

وقال ﷺ: «من أحبني وأحب هذين وأباهما وأمهما كان معي في درجتي يوم القيامة»، رواه أحمد. وليس المراد بالمعية هنا المعية من حيث المقام بل من جهة رفع الحجاب كما في قوله تعالى: ﴿**فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ**﴾[النساء:69].

وعن عقبة بن الحارث قال: «رأيت أبا بكر حمل الحسن وهو يقول: بأبي شبيه بالنبي، ليس شبيها بعلي». وعلي يضحك. وقال ﷺ للعباس رضي الله عنه: «والذي نفسي بيده، لا يدخل قلب رجل الإيمان حتى يحبكم لله ولرسوله». ثم قال: «يا أيها الناس، من أذى عمي فقد آذاني، فإنما عم الرجل صنو أبيه»، رواه الترمذي وقال حسن صحيح.

قال ابن الأثير: «أصل الصنو أن تطلع نخلتان من عرق واحد»، يريد أن أصل العباس وأصل أبي واحد. وجلله ﷺ وبنيه بكساء ثم قال: «اللهم اغفر للعباس وولده مغفرة ظاهرة وباطنة، لا تغادر ذنبا إلا سترته. اللهم احفظه في ولده»، رواه الترمذي. وفي رواية ابن السري: «غطاهم بشملة له سوداء مخططة بحمرة، وقال: اللهم إن هؤلاء أهل بيتي وعترتي، فاسترهم من النار كسترهم بهذه الشملة». قال: «فلم يبق في البيت مدرة ولا باب إلا أمن».

والمَدَرَةُ: التراب، وأَمِنَ قال: «آمين» معجزة له ﷺ، والشَمْلَةُ: الكساء، سُمِّيَ شَمْلَةً لأنه يشتمل به. وروي أنه ﷺ قال لعقيل بن أبي طالب: «إني أحبك حبين: حبا لقرابتك مني، وحبا لما كنت أعلم من حب عمي لك». وقال ﷺ يوم حنين: «أبو سفيان بن الحارث من خير أهلي». وأخرج الحاكم وصححه عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال: «لا يبغضنا أهل البيت أحد إلا أدخله الله النار». واعلم أن الألفاظ الأربعة: آله، وأهل بيته، وعترته، وذوي القربى، معانيها متقاربة. وقد وقع الاصطلاح على اختصاصهم من بين ذوي الشرف بالشطفة الخضراء أيام المأمون العباسي، ثم انقطع إلى أواخر القرن الثامن. فأمر السلطان الأشرف سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة أن يمتازوا عن الناس بعصائب خضر على العمائم ففعل ذلك بمصر والشام وغيرهما.

وأما الصحابة رضوان الله عليهم، فقال سبحانه وتعالى: ﴿**مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ**﴾[الفتح: 29] إلى آخر السورة. أخبر سبحانه وتعالى أن سيدنا محمد ﷺ رسوله حقا من غير شك ولا ريب، فقال: ﴿**مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ**﴾[الفتح: 29]، ثم ثنى

بالثناء على أصحابه، فقال: ﴿**وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ**﴾[الفتح:29]، كما قال تعالى: ﴿**فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾[المائدة:54]. فوصفهم بالشدة على الكفار، والرحمة بالأخيار، ثم أثنى عليهم بكثرة الأعمال مع الإخلاص.

من نظر إليهم أعجبه سمتهم وهديهم لخلوص نياتهم وحسن أعمالهم. ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿**ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ**﴾[الفتح:29] أي أفراخه ﴿**فَآزَرَهُ**﴾ أي شدَّه وقواه ﴿**فَاسْتَغْلَظَ**﴾شب فطال ﴿**فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ**﴾[الفتح:29] قوته وغلظه وحسن منظره. فكذلك أصحاب محمد ﷺ آزروه وأيدوه ونصروه، فهم معه كالشطء مع الزرع ليغيظ بهم الكفار. ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك رحمه الله في رواية عنه تكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة، قال: «لأنهم يغيظونهم، ومن غاظه الصحابة فهو كافر»، وقد وافقه على ذلك جماعة من العلماء.

والأحاديث في فضل الصحابة كثيرة، ويكفي ثناء الله عليهم ورضاه عنهم. وقد وعدهم الله مغفرة وأجرا عظيما، ووعد الله حق وصدق، لا مبدل لكلماته، وهو السميع العليم. قال الإمام مالك رضي الله عنه: «بلغني أن النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة الذين فتحوا الشام، يقولون: والله لهؤلاء خير من الحوارثين فيما بلغنا»، وصدقوا، فإن هذه الأمة المحمدية، خصوصا الصحابة، لم يزل ذكرهم معظما في الكتب الإلهية، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿**ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ**﴾[الفتح:12].

والصحابي هو من صحب النبي ﷺ أو رآه من المسلمين ولو ساعة، ومات على ذلك. وقد أجمع جمهور العلماء من السلف والخلف على أن أصحابه ﷺ خير خلق الله وأفضلهم بعد النبيين وخواص الملائكة المقربين. لما روى البخاري من حديث عبد الله بن مسعود أن النبي ﷺ قال: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم». قال في «فتح الباري»: «والقرن أهل زمان واحد متقارب اشتركوا في أمر من الأمور المقصودة»، ويطلق على مدة من الزمان، اختلفوا في تحديدها من عشرة أعوام إلى مائة وعشرين.

والمراد بقرن النبي ﷺ في هذا الحديث: الصحابة. وآخر من مات منهم بلا خلاف: أبو الطفيل عامر بن واثلة الليني، وكان موته سنة مائة على الصحيح. وأما عدد أصحابه ﷺ فلا يعلمها إلا الله تعالى لكثرة من أسلم من أول البعثة إلى أن مات ﷺ. وقد روي أنه ﷺ قبض عن مائة ألف وأربعة وعشرين ألفا.

وأفضلهم على الإطلاق عند أهل السنة إجماعا: أبو بكر ثم عمر رضي الله عنهما. وذهب بعض السلف إلى تقديم علي على عثمان رضي الله عنهما، وممن قال به سفيان الثوري، والجمهور على تقديم عثمان.

وعن مالك الوقف، أي: لا يفضل أحدهما على الآخر. قال الإمام أبو منصور البغدادي: «أصحابنا مجمعون على أن أفضلهم الخلفاء الأربعة، ثم الستة تمام العشرة، يعني: طلحة والزبير وسعدا وسعيدا وعبد الرحمن بن عوف وأبا عبيدة عامر بن الجراح، وهم الذين بشرهم النبي ﷺ بالجنة في أحاديث».

وقد روى الطبري في «الرياض» عن أنس مرفوعا عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله افترض عليكم حب أبي بكر وعمر وعثمان وعلي كما افترض الصلاة والزكاة والصوم والحج، فمن أنكر فضلهم فلا تقبل منه الصلاة والزكاة ولا الصوم ولا الحج». وعن أنس أيضا عن النبي ﷺ: «حب أبي بكر واجب على أمتي». وأخرج الأنصاري عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا بكر، ليت أني لقيت إخواني»، فقال أبو بكر: «يا رسول الله، نحن إخوانك». قال: «لا أنتم أصحابي، إخواني الذين لم يروني وصدقوا بي وأحبوني، حتى إني لأحب إلى أحدهم من ولده ووالده». قالوا: «يا رسول الله، أما نحن إخوانك؟»، قال: «لا أنتم أصحابي، ألا تحب يا أبا بكر قوما أحبوك بحبي إياك؟»، قال: «فأحبهم ما أحبوك بحبي إياك».

فمحبة من أحبه الرسول ﷺ كأهل بيته وأصحابه ﵃، علامة على محبة رسول الله ﷺ، كما أن محبته عليه الصلاة والسلام علامة على محبة الله تعالى. وكذلك عداوة من عاداهم، وبغض من أبغضهم وسبهم. فمن أحب شيئا أحب من يحبه وأبغض من يبغضه. قال تعالى: ﴿**لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ**﴾[المجادلة:22].

فحب آل بيته عليه الصلاة والسلام وأصحابه وأولاده وأزواجه من الواجبات المتعينات، وبغضهم من الموبقات المهلكات. ومن محبتهم وجوب توقيرهم، وبرهم، والقيام بحقوقهم، والاقتداء بهم بأن يمشي على سُنتهم وآدابهم وأخلاقهم، والعمل بأقوالهم مما ليس للعقل فيه مجال، وحسن الثناء عليهم بأن يذكروا بأوصافهم الجميلة

على قصد التعظيم. فقد أثنى الله عليهم في كتابه المجيد، ومن أثنى الله عليه فهو واجب الثناء. قال شيخ الإسلام ولي الدين العراقي: «من اعترف بأن أفضل الأمة بعد نبيها ﷺ أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي، لكنه أحب عليًا أكثر من أبي بكر مثلًا، فإن كانت المحبة المذكورة محبة دينية فلا معنى لذلك؛ إذ المحبة لازمة للأفضلية، وهذا لم يعترف بأفضلية أبي بكر إلا بلسانه، وأما بقلبه فهو مفضل لعلي لكونه أحبه محبة دينية زائدة على محبة أبي بكر، وهذا لا يجوز. وإن كانت المحبة المذكورة محبة دنيوية لكونه من ذرية علي أو لغير ذلك من المعاني، فلا امتناع فيه، والله أعلم.»

قال سهل بن عبد الله التستري: «لم يؤمن بالرسول ﷺ من لم يوقر أصحابه ولم يعز أوامره.» ومما يجب أيضًا الإمساك عما شجر بينهم، أي وقع بينهم من الاختلاف، والإضراب عن أخبار المؤرخين، وجهلة الرواة، وضلال الشيعة والمبتدعين القادحة في أحد منهم. قال ﷺ: «إذا ذكر أصحابي فأمسكوا.» وأن يلتمس لهم فيما نقل من ذلك فيما كان بينهم من الفتن أحسن التأويلات، ويُخرج لهم أصوب المخارج؛ إذ هم أهل ذلك كما هو مشهور في مناقبهم، ومعدود من مآثرهم مما يطول إيراد بعضه. وما وقع بينهم من المنازعات والمحاربات فله محامل وتأويلات. فسبهم والطعن فيهم إذا كان مما يخالف الأدلة القطعية كفر، كقذف عائشة رضي الله عنها، وإلا فبدعة وفسق. قال عليه الصلاة والسلام: «يا أيها الناس، احفظوني في أختاني وأصهاري وأصحابي. لا يطالبنكم الله بمظلمة أحد منهم، فإنها ليست مما هب.» رواه الخلعي.

وقال عليه الصلاة والسلام: «الله الله في أصحابي، لا تتخذوهم غرضًا من بعدي. من أحبهم فقد أحبني، ومن أبغضهم فقد أبغضني، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله. فيوشك أن يؤاخذه.» رواه المخلص الذهبي. وهذا الحديث خرج مخرج الوصية بأصحابه ﷺ على طريق التأكيد والترغيب في حبهم، والترهيب عن بغضهم. وفيه إشارة إلى أن حبهم من الإيمان، وبغضهم كفر. لأنه إذا كان بغضهم بغضًا له كان كفرًا بلا نزاع، للحديث السابق: «لن يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه.» وهذا يدل على كمال قربهم منه بتنزيلهم منزلة نفسه، حتى كأن أذاهم واقع عليه وواصل إليه ﷺ. وفي الحديث: «من سب أحدًا من أصحابي فاجلدوه.»

فهرس الكتاب

مقدمة الناشر.. 5
ترجمة المؤلف 7
مقدمة 9
المقصد الأول.. 16
غزواته صلى الله عليه وآله وسلم 51
المقصد الثاني.. 120
الفصل الأول: أسماؤُه الشريفة صلى الله عليه وسلم 121
الفصل الثاني: أولاده الكِرام عليه وعليهم الصلاة والسلام......128
الفصل الثالث: أزواجه الطاهرات وسراريه المطهرات صلى الله عليه وسلم..132
الفصل الرابع: أعمامه وعماته وإخوته من الرضاعة وجداته صلى الله عليه وسلم 140
المقصد الثالث 144
الفصل الأول: كمال خلقته وجمال صورته صلى الله عليه وسلم 145
الفصل الثاني: فيما أكرمه الله تعالى به من الأخلاق الزكية صلى الله عليه وسلم 166
الفصل الثالث: فيما تدعو ضرورته إليه صلى الله عليه وسلم من غذائه وملبسه ومنكحه وما يلحق بذلك. 183
المقصد الرابع 208
الفصل الأول: معجزاته صلى الله عليه وسلم..209
الفصل الثاني: فيما خصه الله تعالى به صلى الله عليه وسلم من المعجزات، وشرفه به على سائر الأنبياء من الكرامات والآيات

البينات 243
المقصد الخامس 278
المقصد السادس 334
الفصل الأول: في وجوب محبته واتباع سنته والاهتداء بهديه .335
الفصل الثاني: في حكم الصلاة والتسليم عليه صلى الله عليه وسلم 347
الفصل الثالث: في ذكر محبة أصحابه عليه الصلاة والسلام وآله وقرابته وأهل بيته وذريته رضي الله عنهم أجمعين.................................... 360

Book Review

كما نثق بكتابنا نثق بصوتك/ هنا نصغي إليك!

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

الهالة للنشر والتوزيع
AL HALA PUBLISHING & DISTRIBUTION

تواصل معنا، ونحن نسمعك!

https://www.facebook.com/alhalapublishing

alhalapublishing@gmail.com